بسم الله الرحمن الرحيم

القصيدة الجاهلية
بين
الانتماء و التمرد

إعداد

د/رمضان حسانين جاد المولى

مدرس الأدب والنقد

بكلية اللغة العربية بأسيوط

لجنة التحكيم

أ.د. علي محمد طلب لجنة علمية محكمة

أ.د. تمساح علي أحمد نحيلة لجنة علمية محكمة

المدخل
تطور القصيدة في العصر الجاهلي

إن الإشكالية الأولى التى يثيرها عنوان البحث ، تكمن فى تحديد المفاهيم التى طرحتها مفردات العنوان ، وأعنى بها القصيدة ..الجاهلية ..الانتماء.. التمرد..، وسأكون معنيا فى هذا المدخل بتسليط ضوء كاشف على المصطلحين المشار إليهما، فتعالوا أولا نتعرف على مصطلح« القصيدة » وأهميتها وأطوارها .

القصيدة فى أصل الاستخدام : المخة إذا خرجت من العظم ، فإذا انفصلت منه قيل انقصدت ، وهى مفردة ؛ وجمعها قصيد وقصائد ، كسفينة وسفين وسفائن ، والقصيد من الشعر: ما تم شـــطر أبياته ، وفى العين والتهذيب : شطر أبنيته ، سمى بذلك لكماله وصحة وزنه ، وسمى قصيدا لأن قائله احتفل به فنقحه بالكلام الجيد والمعنى المختار ، وقال ابن جنى : سمى قصيدا ؛ لأنه قصد وعمد إليه ، أى أن قائله جعله من باله فقصد إليه قصدا ، وأورى فيه ذهنه ، ولم يقتضبه اقتضابا ، وهو فعيل بمعنى مفعول من القصد ، وأدخلوا الهاء فى القصيدة لأنهم ذهبوا بها مذهب الاسم ، هكذا فى التهـــذيب ، قال ابن جنى : فإن رأيت القصيدة الواحدة قد وقع عليها القصيد بلا هاء ، فإنما ذلك ؛ لأنه وضـــع على الواحد اسم جنس اتساعا[1].

أما القصيدة فى أبسط تعريف لها : ـــ فهى شكل أدبى مكون من مجموعة أبيات شعرية متماثلة فى تفعيلاتها ، وتمثل القافية مرتكزا إيقاعيا للبيت ، والشاعر يلتزم بهذا القالب ولا يتجـــاوزه إلا فى الحدود التى يسمح بها علم العروض العربى من زحافات أو ضرورات .

وقد اختلف فى عدد الأبيات التى يصح إطلاق مصطلح (قصيدة) عليها ، فقد نـــسب ابـــن منظور قولا للأخفش [2] : « وليست القصيدة إلا ثلاثة أبيات» ، قال : وعد ذلك ابن جنى تجوزا

---

(١) انظر ، العين للفراهيدي ١٦٢/١ تحقيق د . مهدي المخزومي و د . ابراهيم السامرائي ، ط لبنان ١٩٨٨ ، و لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر، بيروت) (قصد).
، و تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري، ١٣٧٧هـــ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي مصر: (قصد) .
، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، ١٩٥٢م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.. (قصد).

(٢) اللسان ، مصدر سابق ، مادة (قصد)

؛ لأن ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر فهو قطعة ، فأما ما زاد على ذلـــك فإنمـــا تسميه العرب قصيدة ، وفى العمدة « إذا بلغت الأبيات سبعة ، فهى قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من الناس ، ومن الناس من لا يعد عنده قصيدة إلا ما بلغ عشرا وجاوزها ولو ببيت واحد [١] » .

وكانت القصيدة أهم الفنون التى عرفها العربى فى العصر الجاهلى ، بـــل أعظمهـــا علـــى الإطلاق ، فهى اللسان المعبر عن مظاهر الحياة فى المجتمع الجاهلى ، كما أنها ديوان الثقافة المتنقل بين مجالس القبيلة ونواديها ، وأسواق الجزيرة ومنتدياتها ، والرفيق المصاحب فى رحلات العربان وتنقلاتهم ، ولذا فهى عالم حي قائم بذاته ، ومن هنا فقد أقامت علاقة ود حقيقية فاعلة بين إنسان هذا الزمان وبين المعرفة :« وصارت علم قوم ، لم يكن لهم علم أصح منه [٢] » ، « وكان الشعر فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون [٣] » ، وأدرك الجاهليون قيمة القصيد ومكانته فى حياتهم ، فكان للشاعر الحظوة الكبرى عندهم ، واحتل فى المجتمع مكانة لا تضاهيها مكانة .

وقد مرت القصيد الجاهلية بمراحل متعاقبة ؛ قبل أن يستوى عودها ، وتقـــدم لنـــا النمـــاذج الشعرية الناضجة والمتميزة ، وقد وضع النقاد ودارسوا تاريخ الأدب تصوراتهم حـــول أطـــوار نـــشأة القصيدة ، مذ كانت جنينا مرورا بمهدها ، وطفولتها إلى يفاعها ، حتى بلوغها شرخ الـــشباب ، فـــرأى البعض أنّ القصيدة بدأت كما تبدأ الخطبة بالسجع المتوازن « ثم تتسع الفواصل وتتقارب شـــيئا فـــشيئا في ترتيب وقع النغمات حتى تصبح الجمل مقاطع متعادلة الطول ، متوافقة في موقع النبرات ، فتتحـــول إلى أشطر عروضية تامة ، وتتحول مواقع السجع إلى قوافٍ سوية ، فينتهي الإنشاد بالشعر الموزون كمـــا نفهمه الآن [٤] » . ويرى صاحب كتاب (المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام) أنّ الشعر قـــد بـــدأ « بداية متحررة فلم يكن الإنسان في بادئ أمره بالشعر يتقيد بالوزن والقافية ، وإنما كان يميز بينـــه وبـــين النثر بالنغم الذي يجعله فيه ، وبالنبـــرات التي يخـــرجها مخارج الغناء ، ولهـــذا تجد المقطوعات الـــشعرية

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، – ابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة ،دار الجيل ، بيرت ، لبنان. ج١ ص١٨٨ ، ١٨٩

(٢)(٣) طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مصر ١٩٧٤م ، ص ٢٤

(٤) شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، دراسة فنية، مصطفى الشورى ، الدار الجامعية ، بيروت ١٩٨٣. ص٧٦

القديمة التي وصلت إلينا مدونة في كتابات مختلف الشعوب لا تشبه الشعر المعروف ، إذ فيها تحرر، وفيها اعتماد على الترنم والإنشاد وعلى فن الإلقاء ،أما الاعتبارات الفنية المعروفة، فهي من عمل الشعراء المتأخرين الذين أحلوا الوزن محل الإلقاء ، ووضعوا قواعد معينة في نظم الشعر. فلم تكن الأبيات الشعرية في الشعر القديم متساوية ، ولم تكن هناك قوافٍ بالضرورة ، حتى إنك لا تستطيع تمييز القطعة الشعرية عن غيرها إلا بالإنشاد [١] » والقول بأن القصيدة بدأت كما تبدأ الخطبة ضرب من الخيال الذى يعوزه الدليل ، وضرب المثل باللغات الأخرى التى كانت البدايات فيها معتمدة على النبر والإنشاد ، لا يصلح تعميمه على الشعر العربى ؛ لأنه ليس بين أيدينا فى الشعر العربى مثيلات هذه القطع الشعرية الغير مستوفية للقيم الموسيقية المتعارفة ، وأجد نفسى أقرب ميلا إلى أن القصيدة تطور طبعى للأرجوزة التى هى أولى صور النظم المرتجلة فى عفوية ، ولكن البداية تمثلت فى نظم مقطوعات من بيتين أو أكثر، فاستحسن العرب هذه المقطوعات التى تطورت شيئا فشيئا إلى قصائد ومعلقات ، يحافظ فيها الشاعر على ثوابت ؛ هى تقاليد فنية عرفتها القصيدة ، وترسخت عبر مسيرة تطورها فى طليعتها ؛ الشكل الخارجى من وحدة الوزن والقافية والروي ، ثم الهيكل البنائى وما فيه من تقاليد فنية مرعية أضحت الصورة المثلى للنظم ، وصارت أنموذجا يحاكى ، وتحتسب جودة الشاعر بمقدار قربه أو بعده عنها. ولا ريب أن التقاليد الفنية المرعية فى النص الشعرى هى التى تحكمت فى هيكل القصيدة العربية فى الجاهلية ، وافترضت له افتتاحا ، ورحلة ، وغرضا رئيسا، فبرز الاهتمام بالمطلع ، ليكون بعيد التأثير فى المتلقى ، قادرا على اجتذاب الأسماع ، مراعيا مقتضى الحال ، متسقا مع معانى الأبيات فى القصيدة كلها ، لا منافيا لها، بعيدا عن التعقيد والغموض ، بريئا من التكلف فى الصياغة ، منزها عن الركاكة فى التعبير، فيه جدة وابتكار، وأسر للأسماع والقلوب ، يقول ابن رشيق « فإن الشعر قفل أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجود ابتداء شعره ؛ فإنه أول مايقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة [٢] » فهو المفتاح السحرى الذى يفتح قلب المتلقى وعقله ، فينشط لاستقبال معانى القصيدة وصورها ، ويتفاعل معها، ولذا نرى ابن رشيق يستجيد مطلع امرىء القيس ، ويشيد ببراعة استهلاله حين قال :« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» فيعلق بقوله « هو عندهم أفضل ابتداء صنعه شاعر، لأنه وقف واستوقف، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى مصراع واحد[٣]» .

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد على ،دار العلم للملايين، بيروت . مكتبة النهضة، بغداد ،١٩٧٨م ، ج١ ص١٣٥ ،١٣٦ .

(٢) ، (٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ابن رشيق ، مصدر سابق ، ج١ص٢١٨وهو مأخذ ينبغى أن يبرأ

وإذا كان المطلع هو مفتاح القصيدة ، فالباب الذى يفتحه هو بكاء الأطلال ، وهو باب غالبية القصائد الجاهلية ، والافتتاح الملتزم عند غالبية الشعراء ، لكن تفاصيل اللوحة الطللية تكون مهيـــأة لقبول النسيب أو الغزل أو التشبيب ..الخ ، ومن هنا تختلف تفاصيل اللوحة وطبيعة تشكيلها ؛ من نص لآخر ، ومن شاعر لغيره .

وإذا كان المطلع مفتاح القصيدة ، والوقفة الطللية بابها ، التى ينفذ من خلالهما المتلقى إلى أفنية القصيدة وحجراتها ، فإن الردهة الموصلة بين جنباتها هى حسن التخلص ، والانتقال في سلاسة مـــن المقدمة ، إلى الغرض الرئيس ، الفخر أو المديح مثلا ...الخ ، الذى يؤكد عليه الشاعر فى قـــصيدته فيغلب عليها ، كالفخر فى معلقة عمرو بن كلثوم ، والمديح فى معلقة زهير بن أبى سلمى ، والاعتذار فى معلقة النابغة الذبيانى ، والغزل فى معلقة امرىء القيس ، ولكن هذه الأغراض لا تـــتمحض لهـــا القصيدة إذ غالبا ما يمزج الشاعر المدح بالحماسة والحكمة كما فعل زهير، أو الفخر بالهجاء كما فعل عمرو بن كلثوم ، أو يتدخل الغزل مع مراتع الشباب ويختلط الفخر بهموم الثأر كما عنـــد امـــرىء القيس ، وربما نثر بين تضاعيفها وثناياها التأملات والحكم كما فعل طرفة ، ثم تأتى بعد ذلك الخاتمة ، وهى النفس الأخير الذى يتنفسه الشاعر ، فينبغى أن يصب فيه معنى عميقا ، يذهب مذهب المثل ، أو ضربا من ضروب الحكمة التى تختصر موقفا إنسانيا.

وقد كانت القصيدة الجاهلية فضاء رحبا، يتنقل فيه الشاعر بين مراحل حياته وذكرياته وتاريخ قبيلته ، ما شاء له أن يتنقل ، « فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه علىتصرفه فى فنونه صلة لطيفة ، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماحة ، ومـــن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافى والنوق .... [١] ، وفضاءات القصيدة المتعددة تلك ، قـــد تفقد الشاعر قدرته على التركيز؛ فيعجز عن التمهيد لانتقاله من موضوع إلى آخر؛ فيقفـــز فـــوق الموضوعات قفزا ، فى انتقالات فجة لا يبررها قول الشاعر« دع ذا» أو« عد عن ذا » ، بل ينبغى أن يكون الانتقال ممهدا سلسا حتى لا يحدث اقتضابا ، وهو مأخذ ينبغى أن يبرأ منه كـــل شـــاعر مطبوع .

وقد دافع النقاد القدامى والمحدثين ، عن القصيدة الجاهلية وتعدد أغراضها ، وقدم كل منـــهم تبريراته لهذا التعدد ، بل وتصوره الموحد لهذا التعدد كما فعل ابن قتيبة حين ذكر « أن بعض أهـــل

(١) عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٢م ، ص٥

الأدب يذكر أن مقصد القصيد ، إنما ابتدىء فيها بذكر الديار والدمن والآثـــار ، فبكـــى وشـــكا، وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها،..... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميـــل نحـــوه القلـــوب ، ويصرف إليه الوجوه ، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس ، لائـــطٌ بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل ، وإلف النساء ،..... فإذا علم أنـــه قـــد استوثق من الإصغاء إليه ، والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق، رحل».....الخ [١] ، وقد يبـــدو رأي الحاتمي متقدماً على معاصريه ، حين قال : " فإن القصيدة مثل خلق الإنسان في اتصال بعـــض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر، أو باينه في صحة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفي معالم جماله... [٢]" ، لكن المتأمل في عجز كلامه يجد أن مقصده من ذلك لا يعدو أن يكون:" حسن التخلص " المعروف في اصطلاح البلاغيين يقول :" وقد وجدت حـــذاق الـــشعراء ، وأرباب الصناعة من المحدثين محترسين من مثل هذه الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان حتى يقع الاتصال ، ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناســـب صـــدورها وأعجازها ، وانتظام نسيبها بمدحها، كالرسالة البليغة، والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء عن جزء " [٣].

وكان للدارسين في العصر الحديث آراؤهم في وجود هذه الوحدة العضوية في شعرنا الجاهلي ، وأطلقوا إطلاقات متفاوتة عليها فأسماها د/ محمد النويهي (الوحدة الحيوية) [٤] لأنها تعبر عن حيـــاة القبيلة الرحبة ، فجاءت القصيدة متنقلة بين الأطلال ، والنسيب ، والرحلة للوصول إلى الموضوع ، فهي نموذج من حياة القبيلة العربية ، كما أسماها د/ عز الدين إسماعيل (وحدة بنائية) لأنها تعـــبرعن البنية الخاصة من خلال التقاليد المرعية للقصيدة [٥] . فى حين جعلها د/ غنيمى هلال وحدة خارجية لا رباط فيها إلا من ناحية خيال الجاهلى وحالته النفسية ، إذ كانت تتوالى أبيات القصيدة على نحولا يبرره إلا واقع حياة البدوى ومشاعره النفسية [٦] ، ولم يكن النقاد المحـــدثون فى حاجـــة إلى هـــذه

---

(١) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة – دار المعارف ، تحقيق أحمد محمد شاكر،الطبعة الثانية ١٩٦٦م ج١ص٢٤

(٢) ،(٣) ،زهر الأداب ،ثمر الألباب / الحصرى القيروانى ، تحقيق / على محمد البجاوى ، عيسى البابى الحلبى ط٢ ج٢ ص٥٩٧ العمدة ـــ ابن رشيق القيروانى ، مصدر سابق ، ج٢ ص١١٧

(٤) قضية الشعر الجديد ، محمدالنويهي . معهد الدراسات العربية، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٦٤م ص٢٢

(٥) الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، عز الدين اسماعيل، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٧ م، ص٥٦.

(٦) النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمى هلال ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص٣٧٤ ، ٢٠١ .

التبريرات ، لأن الشعر الجاهلى شعر غنائى ، والشعر الغنائى ليس إلا دفقات القلب ، وخلجـــات المشاعر، يبثها الشاعر كيف شاء ، وأن [أرسطو] زعيم المنادين بهذه الوحدة قد أعفـــى الـــشعر الغنائى منها [١]. وعلى كل ، فإنه من العسف تطبيق المفاهيم النقدية الحديثة قسراً على الشعر العربي القديم..

وقد لحقت القصيدة العربية فى مسيرتها التاريخية بعض التغييرات التى لحقت الشكل، فظهرت المربعات والمخمسات ، كما ظهرت الموشحة فى العصر الأندلسى، لكن التغير الكبير الذى لحقهـــا كان فى العصر الحديث ، فيما عرف بشعر التفعيلة

أو الشعر الحر ، وقد قاد هذه الحملة مجموعة من الشعراء العرب ذوى الاتجاهـــات الفكريـــة الخاصة ، كالسياب ، وحجازى ، وعبد الصبور، ونازك الملائكة ، وقد قوبلوا بالرفض ،

ولاقوا نقدا شديدا ولاذعا من النقاد الكلاسيكيين ؛ لمخالفة ما دعوا إليه لـــصورة القـــصيدة المتوارثة ، منذ أقدم النصوص التى عرفتها الذائقة العربية ، لكنها سرعان ما حققت مساحة واسعة من الانتشار من منتصف القرن العشرين .

وظهر بعدها أيضا ما عرف ب (قصيدة النثر) فى سبعينيات القرن العشرين ، على يد جيل ممن عرفوا بالشعراء الحداثيين منهم : أدونيس ، أنسي الحاج ، محمد الماعوط ، حلمى سالم ، ولازالت تقابل بالرفض ، والزمن وحده هو الذى سيحدد إمكانية صمودها من عدمه .

أما مصطلح « الجاهلية »: ففى اللغة : الجهل نقيض العلم ، و جهلت الشيء إذا لم تعرفه ، وفى حديث الإفك : اجتهلته الحمية ؛ أى حملته الأنفة والغضب على الجهل، والجاهلية زمن الفتـــرة ولا إسلام ، وهىالحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين وفى هذا المعنى جاء حديث [إنك امرؤ فيك جاهلية] . والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك [٢]... ؛ إذن فكلمة (الجاهلية) تعددت دلالاتها ، فهى مرة تدل على (الجهل الذى هو ضد العلم) أي: الجهل المعرفي العـــام ، ولهـــذا ترجمـــت فى الإنجليزيـــة THE TIME OF

(١) مزيدمن التفاصيل ، يرجع إلى وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، (دراسة في تطور المفهوم واتجاهات النقاد المعاصرين) د. بسام قطوس ، مؤسسة حمادة ، إربد، الأردن ١٩٩٩، ص ٦٢ ، ،٦٣ص ١١٠ ــ ١١١٣.

(٢) ــ انظر لسان العرب، ابن منظور. وتاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهرى ، مادة (جهل)

IGNORANC[١]، وثانيها : الجهل بالعقيدة ومرادات الإيمان ، وثالثها : الجهل المنافي للحلم لا الجهل المنافي للعلم ، الذي عبّر عنه عمرو بن كلثوم حينما قال [٢] :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويرى شوقي ضيف [٣] أن إطلاق كلمة الجاهلية على هذا العصر ليست من قبيل الجهل الذى هونقيض العلم ، وإنماهى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، وقد توقف المستشرقون عند كلمة الجاهلية ، فالمستشرق < جولد تسيهر> قلما تسمح يرى أن كلمة < الجاهلية > تعنى (عصر الجهل خلافا للعصر اللاحق وهو عصر العلم[٤] ويميل <ريجيسير بلاتشر> إلى أن (كلمة الجاهلية ، تضم جميع مظاهر العنف والوحشية والتعسف والزهو والتبجح التى حد الإسلام منها ، أو قضى عليها بغية لإيجاد فضائل أكثر اتزانا وإنسانية[٥]) فى حين يرى المستشرق < هيوارث > أنه (ليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهالة المناقضة للعلم والمعرفة ، إنما الغرض منها السفاهة التى كانت مؤدية إلى الهمجية وانتشار الضلالة ، وعبادة الأوثان والإسراف فى القتل واستباحة الزنا والخمر وانتهاء هذا كله بتأريث العداوة وقيا م الحروب وتفرق القبائل[٦]) وهذه الدلالات المتعددة لكلمة (الجاهلية) قد أربكت بعض الدارسين ودفعتهم إلى القول بأن مصطلح الجاهلية مصطلح دينى له غاية محددة حين ظهر الإسلام ، هى حث العرب على التخلص من كل نقيصة كانت لهم فى عهد ما قبل الإسلام ، بل تنفيرهم من ذلك وترغيبهم فى ما جاء به الإسلام من خلق سوى أراده الله تعالى لهم (٧) ، ولذا آثر بعض الباحثين العرب مصطلح (مرحلة ما قبل الإسلام)وشاركهم فى ذلك المستشرقون ليكون بديلا عن مصطلح (الجاهلية) لأنه فى نظرهم مصطلح مضلل ، (قد ارتبط بفكرة سائدة وغير حقيقية ترى فى هذه الحقبة من حياة العرب إظلاما تاما فى كل نواحى الحياة ، فهى من الجهل والجهالة العمياء ، وكثيرا

(١) ــ العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦ م ،ص٣٩

(٢) ــ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد على ، مرجع سابق ،ج١ ص٣٨ ،٤٠

(٣) ــ ديوان عمرو بن كلثوم ، صنفه د/ على أنور زيد ، دار سعد الدين ، دمشق ، ص٨٢

(٤) ــ دائرة المعارف الإسلامية ، جولد تسيهر ، دار الشعب – القاهرة ١٩٦٩ م. ١١

(٥) ــ دائرة المعارف الإسلامية ، جولد تسيهر ، المصدرالسابق ، ص١١

(٦) ــ تاريخ الأدب العربي، رجيس بلاشير ترجمة إبراهيم الكيلاني، الدار التونسية للنشر، تونس المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦ــــ نقلا عن : عبد العزيز نبوي، دراسات في الأدب الجاهلي، ص ١٧

(٧) الصورة في الشعر العربي، حتى آخر القرن الثاني الهجري، دراسة في أصولها وتطورها، ــ علي البطل دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣ ص٣٣.

ما يؤكد هذا المعنى فى قولهم <جاهلية جهلاء وضلالة عمياء > على حين أنه كان للعرب حضارتهم المتطورة قبل الإسلام بزمن طويل ، فالتسمية بالجاهلية تسمية دينية قصد منها التنفير من هذا العهد وآثاره ، وليست تسمية علمية [١] (وإذا صح أن نطلق على هذا العصر لفظ الجهالة من وجهة نظر دينية فهل يصح أن نعممه من وجهة نظر علمية ؟ [٢]) إن مصطلح الجاهلية قد لا يصلح من وجهة نظر علمية أن نطلقه على ما صدر عن هذا العصر من معارف وآداب ، والرأى أنه لا مشاحة فى الاصطلاح ، ومعهذا فإن مصطلح (مرحلة ما قبل الإسلام) لا يصلح بديلا ، على الرغم من دواعى التبرير التى يعرضونها له ، لأنه أكثر التباسا ، فهو لا يعنى بتحديد البعد الزمانى لمرحلتين ، بل تقسيم الحياة العربية إلى مرحلتين ؛ إحداهما سابقة على الإسلام ، وأخرى لاحقة للبعثة النبوية ، دون تحديد زمنى ، ومن هنا فإن ما قبل الإسلام زمن غير محدد من عمر التراث العربى . وعندئذ يقع مصطلح ما قبل الإسلام فى إطلاق آخر يحتاج إلى ضبط . وفى المقابل ؛ فإن مصطلح العصر الجاهلى لا حاجة لنا إلى تغييره ، بعد أن أصبح شائعا على ألسنة المشتغلين بالأدب ، وفى بطون كتب السلف والخلف . وهو يعبر عن جهل بالدين ، وليس عن جهل بالحياة العلمية والثقافية ، وهو أقرب إلى معانى الطيش والسفه فى سلوك بعض القوم، وعاداتهم فى الحروب، أو غزو بعضهم، والمبالغة فى الثأر، وماشابه ذلك ...

أما «القصيدة الجاهلية» من حيث دلالتها الزمنية : فيقصد به القصيدة التي تنسب إلى عصر ما قبل الاسلام ، والجاحظ يحدد عصر القصيدة الجاهلية زمانيًا بمئة وخمسين سنة إلى مائتى سنة قبل الإسلام حسب قوله، « فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام[٣] » . وهذا ما أخذ به معظم الدارسين لهذا العصر ، ويبدو أن التقدير اعتمد على أقدم النصوص التى وصلتنا ، لأن أولية الشعر العربى تمتد إلى زمن أبعد من هذا بكثير بالطبع .

ومن حيث الدلالة المكانية : فالمكان الذي تنتمي إليه «القصيدة الجاهلية» لا يتعدى الجزيرة العربية ، فغالبية الشعراء الذين وصلنا شعرهم من أواسطها ، والبعض من جنوبها أو أطرافها ، كانت قبائلهم مقيمة فيها ، أوانتقلوا إليها.

---

(١) فى أدب ما قبل الإسلام، محمد عثمان علي ، دار الأوزاعي، بيروت، ١٩٨٦م ص١٥،١٤

(٢) المرجع السابق ، ص١٥

(٣) ــ الحيوان ، أبو عمرو الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار الجيل ، ج١ص١٠٧

المـبحث الأول
بين الانتماء والتمرد

اللغة وعاء الفكر ، فهى لاتنطلق فى فضاءات الحياة بغير مضمون تعبر عنه ، بل لابد مـــن أن تحمل محصولا فكريا قل هذا المحصول أو كثر، وانطلاقا من هذا ، فإنه يجدر بنـــا أن نتعـرف علـــى استخدام العرب لمدلولى الانتماء والتمرد ، ومرادات هذين المفهومين فى زمانهم .

مع التسليم بأنه ليس بالضرورة أن يستخدم العرب اللفظتين للدلالة على مانعرفه نحن اليوم فى اصطلاحنا لهما ، فنحن ندرك أن التطور الذى يلحق بالفكر يترك قطعا أثاره على اللغة

ودلالاتها ؛ (لأنه يوجد تلازم لا ينفصم بين الفكر واللغة [١]، ولكن على الجانب الأخر لـــن نعدم وشائج القربى فيما بين مانعنيه وماعنوه .

أولا: الانتماء بين تطور الدلالة والمفهوم

(الانتماء) فى اللغة :- (الانتماء) فى اللغة مصدر للفعل (انتمى) وهو كما نرى فعل مزيد علـــى وزن افتعل حروفه الأصلية هي:(النون، والميم ، والألف المقصورة) ، وهذه الألف أصلها الياء كما فى:(نَمَـــى ينمي نَمْيا ونُميًا، ونَمَاءً ، زاد وكثر) ومنه قول عبيد بن الأبرص [٢] :

وخيلٍ كَأسْرابِ القَطَا قد وَزَعْتُها بِخَيْفَانَةٍ تَنْمِي بِسَاقٍ وَعُرْقوبِ

أوأصلها الواو كما فى(نَمَا-ينمو ، نموة ، وإنماء ، وربما قالوا: ينمو نُمُوّاً... وعليه جاء قول كعب بن مالك [٣] :

---

(١) الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة ، – د– محمد–شحرور ، الطبعة الخامسة، دار الأهالي ، دمشق، ص٢٩٨.

(٢) وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم الأسدى من مضر ، عاصر امرأ القيس ،وعمر طويلا ،وقتله النعمـــان بن المنذر حيث وفد عليه يوم بؤسه ووزعتها: كففتها. وخيفانة: سريعة. وتنمي: ترتفع.

والبيت المذكور فى ، ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح دكتور حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٧، ص٢٦

(٣) – هو الصحابي الجليل:كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمى الخزرجى معدود من المخـــضرمين نيف على السبعين وكف بصره في أخريات حياته– ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، ١٩٦٦م، بغداد، ص ٢١٥

أنا ابن مباري الرّيحِ عمرو بنِ عامرٍ*** نَمَوْتُ إلى قَحْطَانَ في سَالفِ الدهْر

وأما يعقوب فقال: ينمي وينمو، فسَوّى بينهما) [١] ، وإذا نظرنا إلى الاستخدامين وجـدنا أن الزيادة متحققة فى كليهما فالأولى بمعنى: ترتفع ، والثانية بمعنى: تمتد وتتصل ، فإذا عدنا إلى (اللسان) نجده يقرر أنّ المعنى العام الذى يدور حوله الانتماء هو الزيادة (فالأشياء كلُّها على وجه الأرض نامٍ وصامت : فالنامي مثل النبات والشجر ونحوه ، والصامت كالحجر والجبل ونحـوه) [٢] ، وجـاء في القاموس (والناميةُ خلق الله تعالى ، ومن الكَرْم القضيب عليه العناقيد) [٣] ، والنامية مـن الإبـل السمينة ، ونَمَى الإنسان: سمن ونَمَى الماء : طَمَا). والملاحظ أن الأمثلة الواردة فيمـا سـبق مـن استشهادات عدا بيت (كعب بن مالك) قد دارت حول الدلالة الحسية لمادة (نمى) ، لكنها سرعان ماحملت من الدلالات المعنوية المتصلة بسياقنا ، وذلك كقولنا: (نَمَيْتُ الحديث إلى فـلان: رفعتـه وأسندته... ويقال نَمَيْتُ الحديث: بَلَغْتُه على جهة الإصلاح) [٤] ، فَنمْيُ الحديث هو زيادة في عدد العارفين به وبصاحبه. أما المصدر (الانتماء) فدار معناه فى إطار الدلالة العامة للمادة ، حيث جاء فى تهذيب اللغة (أن كل ارتفاع انتماء يقال انتمى فلان فوق الوسادة أى ارتفع فوقها) [٥] ، غـير أن اللفظة لم تقف عند حدود دلالتها الحسية ، بل تطور استخدامها على نحو ماجاء فى اللسان (انتمـى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه فى النسب ، ونماه جده إذا رفع إليه نسبه) [٦] ، وفى معجم العين ، جاء والعزوة انتماء الرجل إلى قومه . تقول : إلى من عزوتك ؟ ، فيقول إلى تميم) [٧] ، ومن ذلك ماجاء في أساس البلاغة: (ومن المجاز فلان يَنْميه حَسَبُه، وقد نَمَاه جَدٌّ كريم، وقال النابغة يمدح المنذر بـن المنذر بن ماء السماء [٨] : ــ

---

(١) ــ انظر لسان العرب، ، مصدر سابق ،: (نمي). ، و تاج اللغة وصحاح العربية، والجوهري، ، مصدر سابق ،: (نمى). وفيه: (حكى أبو عبيدة نما يَنْمو ويَنْمي)، والقاموس المحيط، الفيروز آبادي، مصدر سابق ، (نما). وفيه: (نَمَا... كنمي

(٢) --ا(للسان: (نمي).

(٣) –القاموس:(نما).

(٤) –أساس البلاغة–الزمخشري، دار النفائس ، ١٩٩٢م ، بيروت،:(نمي).

(٥) –انظر: تهذيب اللغة مادة(نمى). (٨) –(للسان: (نمي).

(٦) انظر (العين) الخليل بن أحمد مادة (عزو)

(٧)أساس البلاغة، (نمي).

(٨) والمنذر هو :عمرو بن المنذر بن امرؤ القيس ، وماء السماء المعزو أليها هى أمه . والنابغة هو : أبو أمامة زياد بن معاوية مـن فحول الشعر الجاهلى . ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق الدكتور شكري فيصل، دار الفكر، بيروت ١٩٦٨م، ص١٦٥.

إلى صَعْبِ المَقادَةِ مُنذِرِيّ نَمَاهُ في فُرُوعِ المجد نامي

أبوه قبله وأبو أبيـــــه بنوا مجد الحياة على إمام

وهكذا حصل المنذر الشرف والسؤدد من انتمائه إلى هذا الجد ، فالجدّ هو الرافع لمنزلة المنذر، فاتصال النسب يكسب زيادة في المنزلة ورفعة فى الشأن. ومن ذلك قول عمرو بن الأهتم السعديّ [١]:

نَمَتْنِي عُرُوقٌ مِن زُرارة للعُلَى ومن فَدَكِيّ، والأشـــدُّ عُـــرُوقُ

مَكَارِمُ يَجْعَلْنَ الفتى في أَرُومَةٍ يَفاعٍ، وبعضُ الوالـــدينَ دَقِيـــقُ

يفخر بجدّيه: فَدَكِيّ، وهو من قبل أبيه، والأشدّ، وهو من قبل أمّه ، وهو يفخر بانتمائه إليهما، وذلك لأن المجد يكّون في الآباء المتقدمين ، واكتسابه يأتى من اتصال الفرع بالأصـــل ، ونحوه ماجاء فى اللسان : (انتمى فلان إلى فلان إذا ارتفع إليه في النسب) [٢] ، ولكن هذه الدلالات المعنوية لاتنأى بنا عن الدلالة الأولى من الاتصال والامتداد والزيادة.

ولا يبعد عن ذلك ماجاء في قول الطفيل الغنوي [٣]:

أَرَى إبلي عافَتْ جَدودَ فَلَمْ تَذُقْ بها قَطْرَةَ إلاّ تَحـــلةَ مُقْســـم
وبُنْيَانَ لَمْ تُورَدْ، وقد تَمَّ ظمؤها تُراحُ إلى جَوّ الحياضِ وتنتمي

وقد فسر شارح الديوان تنتمي بـــ (ترفع إلى هذه الحياض). والرفع في اللسان (تقريبك الشيء من الشيء) [٤] ، والانتماء ظاهرة يتقارب المنضوون تحت لوائها. وهكذا نجد أنمعاني لفظة (الانتماء)

---

(١) شرح اختيارات المفضل، -المفضّل الضّبيّ ،،للخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية، دار الكتـــب العلمية، ، ١٩٨٧م بيروت، ٢/٦١٠. وفدكى : هو ابن أعبد المنقرى من زيد مناة ، والأشد هو : ابن عمرو بن دثار وابن الأهتم : هو عمرو بن سنان بن سمى بن سنان بن خالد بن منقر من بنى تميم شاعر مخضرم معمر توفى في خلافة معاوية .

(٢) -اللسان: (نمي).

(٣) – الطفيل الغنوي : طفيل بن عوف بن كعب منقيس عيلان ، شاعر جاهلى من فحول العرب وفرسانها ، ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت ، ١٩٦٨م، ص٧٦. وعافت: كرهت. وجدود: ماء بعينه. والمقسم: الذي يقسم الماء في الإناء. وبُنيان: موضع. وتراح: تستخفّ.

(٤)-انظر اللسان مادة : رفع.

فى بعدها المعنوى قد استوعبت منذ الجاهلية الدلالات المرادة منها عندنا ، وهى المعانى الـــتى تفيـــد الصلة والاحتماء والامتداد والتولد والتلازم والانتشار وما إليها فى سياقها المعنوى لا الحسى ، بحيث يحقق الانتماء رابطة تنطلق من أصل وترتفع به ، وتحافظ على تواصلها معه ، وتجذرها فيه ، فلـــم تكن اللغة لتحكى فى الفراغ ، بل تعبر عن فكر إنسانى وحياة معاشة .

مفهوم الانتماء :- يمكن تعريف الانتماء [١] بأنه العلاقة الانسانية التى تنتج بـــين الأفـــراد الإنسان منتميا إلى أسرة ، ثم عشيرة أو قبيلة ، أوطبقة اجتماعية ، أو منظمة ، و يتعـــاظم مفهـــوم الانتماء حين ينضم المكان إلى البشر ليشكل مفهوم الانتماء الراقى للوطن أو للأمة ؛ ليصبح الوطن أو الأمة هو الملاذ والمأوى الذى يشعر فيه المنتمى بالأمان والاستقرار.

وقد ينشأ الانتماء من خلال التعاطف تجاه موقف أو قضية ، أوالالتقاء الفكرى أو الوجدانى أو كليهما، فيكون انتماء منطقيا ، يعتمد على العقل ، وينتج المعرفة ويجمع إلىوضوح الهدف سمو الغاية ، وهكذا قد يتطورالانتماء ، أو تتعدد دوائره ، ولكن الإنسان مع ذلك لا

يفقد جوهر الانتماء الفطرى إلى الأسرة والبيئة بتغير مظهر الانتماء ، بل يتوافـــق الانتمـــاء الجديـــد مـــع التوجهات التي ينتمي إليها ولا يعطلها فالهوية والانتماء للوطن لاتتعطل بفعل انتماءات أخرى [٢].

والانتماء ، من أقوى دوافع السلوك الانسانى ، ومن أهم الصور المميزة للجنس البشرى ، فهو ظاهرة إنسانية فطرية ، وهو المقدمة الضرورية لنشوء المجتمع البشرى ، وضرورة لاستمرار البقاء فى ظل منظومة اجتماعية .

ثانيا: التمرد بين الدلالة والمفهوم :

(التمرد) فى اللغة :- المادة (الميم والراء والدال) تعددت إطلاقاتها فمن معانيها (الملاسة) روى ثعلب عـــن

---

(١) رجعت فى ذلك إلى : ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية- أحمد زكي بدوي، الطبعـــة الثانيـــة، ١٩٨٦م، مكتبة لبنان ص١٥٢،وما بعدها

و قصة الحضارة، ول ديو رانت - ، ترجمة-د- زكي نجيب محمود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية ٥٨/١،وما بعدها ..

والفن والحياة الاجتماعية-، ولالو - شارل، تعريب الدكتور عادل العوّا ، دار الأنوار، بيروت ١٩٦٦م، ص١٨٦ وما بعدها.

(٢) – نظرية الثورة العربية، عصمت سيف الدولة، دار المسيرة، بيروت- ١٩٧٩م ج ٢ص٨٣

ابن الأعرابي قوله (المرد نقاء الخدين من الشعر ونقاء الغصن من الورق ، والمرد : المليس [١] ومردت الـشيىء لينته وصقلته نحو (مرد الخبز يمرده مردا–من باب قتل–أى ماثه حتى يلين ، والمريد التمر ينقـع فى اللبن حتى يلين) [٢] ، ومنها (التمريد : تمليس الطين والتسوية كما مرد صرح سليمان عليه الـسلام تطلق على مايبلغ الغاية ، ويتجاوز الحد المتعارف عليه ، جاء فى اللسان .....ومنه...المـارد مـن الرجال : العاتى الشديد ، وأصله من مردة الجن والشياطين ..... ومن أمثالهم ، تمرد مـارد وعـز الأبلق ، وهما حصنان فى بلاد العرب غزقما الزباء فامتنعا عليها ، فقالت هذه المقالة وذهبت مـثلا لكل عزيز ممتنع .. [٣] ومن معانيه (وقد تمرد عليه أى عصا واستعصى.) والمارد العاتى وشيطان مريد أى عات خبيث [٤] .

وهكذا فإن (التمرد) ؛ يدور حول الغلو فوق حد المعروف والمألوف ، وشق عصا الطاعـة ، والخروج على الإجماع والجماعة

مفهوم التمرد:– حالة من الخروج على النظام الاجتماعى السائد ، أو القانون العام المنظم لحياة مجتمع ما، مما هو سائد فيها من نظم سياسية أوأعراف اجتماعية أو قيم روحية وأخلاقيـة ، يراهـا المتمرد قيما تتطلب الهدم والتغيير.

وكما أن الانتماء طبيعة إنسانية ، فإن التمرد كذلك ، وقد يكون إيجابيا يدفع للتطور والابتكار والتجديد ، وقد يكون سلبيا ، يبعث على الفوضى ، ويهدرالقيم .

وتاريخ التمرد سحيق فى القدم يمتد إلى ما قبل الوجود الإنسانى على الأرض ويتمثل فى موقف إبليس حينما رفض السجود لآدم ، كما جاء في أكثر من سياق قرآني ، ومن ذلك مـا جـاء في سورة الأعراف ((ولقد خلقناكم ثم صوَّرناكم ثم قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين، قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال: أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين، قال: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين)). [٥].

---

(١) تهذيب اللغة – للأزهرى – مصدر سابق – مادة (مرد).

(٢) الصحاح – للجوهرى – مصدر سابق – مادة (مرد).

(٣) لسان العرب –– مصدر سابق – مادة (مرد).

(٤) انظر– مادة (مرد) فى ، القاموس المحيط للفيروز آبادي ، مصدر سابق ، العين – الفراهيدى، مصدر سابق

(٥) سورة الأعراف ـــ آيتا ١١، ١٢

وآخر يمتد إلى عمق الأساطير القديمة مثل أسطورة سيزيف الشهيرة الذي سرق الموت وكبله ، فيعاقب بحمل الصخرة ، تلك اللعنة التي كلما وصل بها إلى قمة الجبل تهوى من جديد إلى أســفله فيعود ليحملها..، وهي ربما تشبه لعنة العقاب التي حلت "لإبليس" وهذا من التمرد السلبي فالأول يستعلي على أوامر الله ، والثاني ، يتمرد على الظواهر الكونية المعروفة ، بما يمثل التمرد فيهما أنانية وعبث .

أما التمرد الإيجابي فيرتبط بالمعرفة والحرية وقيم العدل والحق والجمال ، ويــصب في ســياق التمرد على ما هوسائد من عادات هدامة وتقاليد بالية للاستعاضة عنها بأفكار مستنيرة وقيم خلاقة وعادات دافعة للتقدم ؛ ولهذا يواجه المتمرد الكثير من العوائق في سبيل أن يرسخ هذه الفلسفات وتلك القيم[١] .التمرد إذن في صورته الثانية ؛ قيمة نبيلة ، تسهم في أن يتقدم الانسان علي هــذا الكوكب.. فكل حركة من حركات الإصلاح هي لون من التمرد علي واقع جائر، والإنجــازات الفلسفية الفنية والأدبية الكبرى هي أيضا تمرد علي فكر مترهل ..

وهو ناتج عن شعور صاحبه بانعدام القدرة والعجز عن مواجهة السلطة وتلاشــي المعــايير، بخاصة في ظلال المجتمع الطبقي ، أو في ظروف التفرقة العنصرية ، أو شعوره باختلاف ذاتــه عــن الآخرين . وانقطاع التواصل العاطفي والثقافي بينه وبين ومجتمعه ، وافتقاد الإحساس بالعلاقة بينهما[٢] . كما أنه ناتج عن تعرُّض الفرد لرضوض نفسية نتيجة العزلة

النفسية عن المجتمع ، أوالإحباط و فقدان الروح المعنوية مما يؤدى اضطراب الصلة بين الفــرد والمجتمع .

وهكذ تتواصل الدوائر الجدلية بين الأفراد والمجتمعات في حالة صراع حول الثابت والمتحول وتدوم الحركة في قفزات بين انتماء وتمرد.

ثالثا : الانتماء والتمرد ظاهرتان

(١) انظر تفاصيل ذلك في (أفاق التمرد ــ قراءة نقدية في التاريخ الأوربي والعرب) ــ فاروق القاضي ــ مركز البحوث العربية والإفريقية ، المؤسسة العربية للنشر ٢٠٠٤م

(٢) انظر مقال:البحث عن جوهرة التمرد ــ محمود الوردانى ــ أخبار الأدب،الأحد ٧ من نوفمبر ٢٠٠٤ عــدد ٥٩١

الانتماء والتمرد ظاهرتان اجتماعيتان ؛ يتحقق لهما ما يتحقق لسائر الظواهر الاجتماعية مـــن العمومية والتاريخية والإلزام [١]

أما عموميتهما : فلأنهما شعور اجتماعي موجود وفاعل فى كل تجمع بشرى قل أو كثر، يجمع أفراده رباط من نسب أو وطن أو عقيدة أو فكر، أو أىّ من الأواصر التى تميزهم من غيرهم ، فنجد من يلتفون حوله ، ويلتقون عنده ، وينتمون إليه ، وفى الوقت ذاته نجـــد مـــن يخرجـــون عليـــه ، ويتمردون على قواعده وقوانينه ، ويحاولون الخلاص منه ، والفكاك من أسره.

وأما تاريخيتهما : فيؤكدها أن الروابط الأسرية أو العشائرية أو الروحية روابط قديمـــة قـــدم الوجود الإنسانى ذاته ، فالإنسان يولد منتمياً بالضرورة إلى أسرة ، يحمل عاداتها وتقاليدها ويصطبغ بصبغتها ، والأسرة هى جزء من عشيرة وقبيلة وأمة ، فيوجد من يحمل انتماءاتها ويدافع عنها ، ومن يتحلل من روابطها ، ويتمرد عليها ، وجملة المواقف البشرية من تلك الروابط ، بين ملتـــزم بهـــا وخارج عليها ، اكتسبت بعدا تاريخيا أعطاها صفة الاستمرارية في تاريخ الإنسان .

وأما إلزاميتها : فيتجلى فى أن الشعور بالانتماء أوعدمه تكوين نفسي وشعورى لدى الإنسان ، سرعان ما يتحول إلى فكر يسيطر عليه ، فيتولد منه وجوده المادى ، بحيث يجد من نفسه انـــدفاعا نحوه ، فإما أن يتوجه الفرد إلى الدخول فى دائرة اجتماعية ينتمى إليها ، وإما ينقطع عنها

والانتماء ، قد يكون قسريا بحيث لا يمكن الاستغناء عنه أو الإفلات منه ، كانتمائه النسبى إلى أسرته أو عشيرته لأنه لا دخل للإنسان فيه ، ولا سويّة له بدونه ، أو يكون بتضافر جُهد مجموعة من الناس تلتقـــي أفكارها، ويترحّد جهدها ، وهو انتماء تملّكهُ أصحابه بإراداتهم ، وأضافوه إلى انتماءاتهم السابقة.

والتمرد إنما إرادة الإنسان فى الخروج على قيم الانتماء التي تعوق رؤيته للتطور، أوتحد مـــنّ حرّيته ، وقد يظل التمرد يعلن عن حالة فردية تحمل صفة الشذوذ ، قد تتعدد ولا يتلاقى أصحابها ، وقد تتلاقي الأفكار والأهداف أو تتشابه الظروف ، وتقوم صلات تمهد سُبُل تلاقى هؤلاء المتمردين مما ينتج عنه قيام انتماء جديد ، كما يحدث مع اصحاب المذهب الواحد أو الحزب الواحد أو أبناء الطبقة الاجتماعية الواحدة .

---

(١) انظر فى ذلك ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع لإميل دور كايم ترجمة محمود قاسم ،مراجعة ، د/ السيد محمد بدوى مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١م ص١٧٩

إنّ تماثل الأفراد المتمردين يُولد لديهم شعوراً مشتركا ، يتلاقى فيه المتمردون ذوى الصبغة الفكرية الواحدة فيتحول التمرد إلى انتماء يضيف إلى هؤلاء الأفراد مكتسبات تطوّر آليات تفكيرهم ، وتضعف القيود التي تمنع تحرّرهم ، وانطلاقهم نحو حياة أفضل [١] ، وبذلك تتخلق دوائر انتماء جديدة .

إذن فالانتماء والتمرد ظاهرتان اجتماعيتان ، يتحقق لهما ما يتحقق للظواهر الاجتماعية الأخرى ، وهما ظاهرتان متطوّرتان ، وذلك لأن البشر ليسوا آليين، فى تعامُلهم مع الانتماءات القسرية ، فبعضهم يتعايش مع الظروف المحيطة ، و ويتوافق مع الانتماءات الموجودة ، وبعضهم يرى في جوانب منها ما يعوق تقدّمه ، ويدخل في عملية جدلية متمردة على واقعه قد تنتج انتماءً جديدا إذا شاركه فى رؤيته غيره وانضم إليه ، والتمرد لا يلغى بالضرورة كل انتماء ، بل قد يوسع دائرته بإضافة انتماءات أخرى بالحذف أو بالإضافة أو بالإلغاء الجزئى ، فتتعدد دوائر الانتماء وتتشابك وتتداخل فى خلق جديد.

.رابعا : الجاهلي بين الانتماء والتمرد

ارتبط الإنسان العربى الجاهلى ببيئته ارتباطاً وثيقاً ، وأحبَّ من حوله من بني جنسه ، وتجاوب معهم تجاوباً عاطفياً قوياً ، وتشبث بقبيلته ، وما عرفته من مفاهيم اجتماعية ، فاكتسب المجتمع صفة القدسية عنده ، وصار النظام القبلي لديه دستورا أصيلا ؛ مما جعله يلتصق ببيئته ، ويتعصب لأفراد عشيرته وبني قومه، ويعلي من شأنهم ، في حين يحط من قيمة غيرهم أحياناً.[٢]

ومما لا شك فيه أن الظروف البيئية التى تحكمت فى الإنسان الجاهلى ، اضطرته لأن يكون كثير الحلّ والترحال بحثاً عن الماء والكلأ له ولأنعامه ، وزادت حدة التنافس القبلى ، وأصبح في أمس الحاجة إلى التشبث بالأخر والتمسك به ، والدخول فى دائرة انتماء تجمعهم ؛ لدرء الأخطار التي تحيط بهم من كل جانب .

وكان لافتقاده للحياة الهادئة المستقرة ، أثره في اعتناقه مبدأ القوة منهجا ؛ حيث يقتحم

---

(١)-انظر نظرية الثورة العربية، مرجع سابق – ج٢ص ، وما بعدها٨٣. وفيه "التكوين القبلي للمجتمعات حصيلة نمو وإضافة تحققت خلال حَل مشكلات الطور الذي سبقه، فهو أكثر منه تقدّماً ، وأكثر منه شمولاً. فيتضمنه، ولا يلغيه، ولكن يضيف إليه ما يحدّده كما يحدّد الكلّ الجزء".

(٢)الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، عباس بيومي جلال، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية – جمهورية مصر العربية ، ص٧١، ٧٢.

المخاطر والأهوال ، فيهاجم ويغزو غير مكترث بما يصيبه ، ويدافع عن حياضه ، ويعشق المثل العليا ويحترمها ، و نراه يرتكب بعض الحماقات ، حتى أنه يبدو متناقضاً في حياته وفي قيمه ، فهو بقدر ما كان إنساناً يقدس بيئته وقبيلته ؛ يخترق هذه القيم ، ويخترق حياض غيره ، فأين المثل العليا التي نادى بها من نجدة الضعيف ، وإغاثة الملهوف ، وحفظ الجار، التي طالما تغنى بها "[١]

كما أن المجتمع القبلي الجاهلي لا يخلو من قيم جائرة ، وتعسف لافت للنظر في بناء العلاقات الاجتماعية التي تميز تمييزاً واضحاً بين أبناء القبيلة الواحدة ، فاعتقد البعض أن هذا الارتباط يكبـــل حريتهم ، ويحد من طموحاتهم فحاولوا التمرد عليه لإيجاد بديل يحفظ حقوقهم ويصون كرامتهم.

وقد مثل هؤلاء فئة راعتها المظالم الاجتماعية والتجاوزات القبلية ، فأعلنت ثورتها وتمردهـــا ، ورفضوا الاستسلام لقانون القبيلة ، وجعلوا سبيلهم لتحقيق رغباتهم وأهدافهم الاعتماد على مبـــدأ القوة والسلب والنهب شكلا من أشكال التمرد علىمالاقوه من قيم جائرة ، وتعسف لافت للنظر في بناء العلاقات الاجتماعية التي تميز تمييزاً واضحاً بين أبناء القبيلة الواحدة.[٢] فكان من الطبعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبيلة ، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التي لم تعد لها قيمة في حياتهم [٣] ، وهكذا يتلاشى ذلك الإحساس بالانتماء القبلي "[٤] و جهدت الفروسية الفردية المتمثلة في هـــذا الفارس على أن تثور على الفروسية القبلية [٥] ، وهؤلاء يطلق عليهم الصعاليك ، الـــذين يمثلـــون أقوى مظاهر التمرد فى الجاهلية[٦] ، ومن ثم (...كانت النتيجة الطبيعة لهذا كلـــه أن فـــرّ هـــؤلاء الصعاليك من مجتمعهم النظامي ليقيموا لأنفسهم بأنفسهم مجتمعاً فوضوياً ، شريعته القوة ، ووسيلته الغزو والإغارة ، وهدفه السلب والنهب، ووجدوا في الصحراء الفسيحة الواسعة التي لا تقيـــدها قيود ، ولا تحدّ من حريتها حدود، ولا يستطيع قانون أن يخترق نظامها ليفرض سلطانه عليها، مجالاً لا حدود له يمارسون فيه نشاطهم الإرهابي ، ويقيمون دولتهم الفوضوية، دولة الصعاليك ، حيـــث

---

(١)الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن، الطبعة الأولى، دار الأندلس، بيروت لبنـــان ١٩٨٤.م ص٦٩، ٧٠.

(٢) عروة بن الورد ، حياته وشعره ، إبراهيم شحادة الخواجة ، المشأة الشعبية للنشر والتوزيع، طرابلس ١٩٨٠ م ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص /١١٥.

(٤)الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، سعيد اسماعيل شلبي ، مكتبة غريب ـــ بدون تاريخ ـــ ص / ٣٩٣.

(٥)عروة بن الورد ، حياته وشعره ، إبراهيم شحادة، مرجع سابق ، ص /١٨.

(٦) الفروسية في الشعر الجاهلي ، نوري حمادي القيسي دار الكتب ، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.، ص / ٣١٢.

يحيون حياة حرة متمردة ، تسودها العدالة الاجتماعية وتتكافأ فيها فرص العيش أمام الجميع) [١].

غير أن الصعاليك لا يمثلون وحدهم ظاهرة التمرد ، وإن كانوا يمثلون أعلى درجاتها ، فهناك صنوف أخرى يشبهونهم فى أوضاعهم الاجتماعية الشاذة في مجتمعهم القبلي ، من الذين لحقهم ظلم عشائرهم وافتئات قبائلهم التي ينتمون إليها ، ومنهم أصحاب النفوس الأبية التى أنفت من الخضوع لقوانين ملك أو تجبر حاكم ، وهؤلاء وأولائك لم يحترفوا الصعلكة أو ينضموا إلى من تصعلك قبلهم ، ولا يحذو حذوهم في الانضمام إلي خلايا من الصعاليك ، بل \جعلوا من سيوفهم وسيلتهم المثلى فى نيل حقوقهم ، واسترداد كرامتهم ، أو الذود عن أنفسهم والدفاع عن أفكارهم ، وهم فى سبيل ذلك واجهوا الموت الذي هدّد حياتهم في كل خطوة يقدمون عليها ..

وسوف نقف مع هاتين الظاهرتين من خلال القصيدة الجاهلية ؛ فى الصفحات التالية فى شيء كبير من البسط والتفصيل .

(١). – الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د / يوسف خليف ، دار المعارف ، مصر، ١٩٥٩م ، ص /٥٣.

المبحث الثاني
مظاهر الانتماء
في القصيدة الجاهلية

أولا :الانتماء العرقي

تعد قرابة الدم عماد الانتماء عند العرب ، فهى التي تقيم الروابط التى يقرّها المجتمع ، وتصنع وشائج القربى بين أفرادها ، فالدم هو الرابط الذي يربط بين أبناء العرق الواحد ، ويسمى الـــرابط العرقى (النسب) أى الجد المشترك الذى يجمعهم ، وتتحدد درجات القرابة ببعد هذا الجد أوقربه ، وقد يضيق مفهوم الانتماء العرقى ؛ فيقتصر على الأسرة أو العشيرة ، وقد يتسع ليشمل كل أبنـــاء القبيلة ، إذا كانوا جميعا يشتركون فىنسب واحد . فالنسب عندهم هوالقوميـــة ورمـــز المجتمـــع السياسي في البادية[١] .

وأقرب هذه الروابط العرقية(الأبوة) ، لأنها الأصل المباشر ، وقد اتسع مدلولها عند العـــربى فأطلقه على أبيه القريب ، وعلى جده وإن علا، وعلى أعمامه. بل جعل أبناء العمومـــة إخـــوة ، إحساسا منه بالامتداد العرقى بين الأب والجد والعم ، وصار لكل قبيلة أب تنحدر منه ، وتنتمى إليه ، ويكون مناط تفاخر أفرادها وهذا أمر متعارف عليه ، وله وجود موضوعي بينهم .

والقصيدة العربية عامرة بالشواهد الدالة على الانتماء العرقى ، وتجذره في البيئة العربية ، فهذا عمرو بن كلثوم ، يرتجز ، معتزا ومتفاخرا بأبيه وجده [٢]:

والناس أذناب ونحن أرباب

أنا ابن كلثـــو م وجـــدى

عتاب

فهم الرؤوس والسادة ، وغيرهم الأذناب ، ويدلل على عراقته بانتسابه لأبيه وجده الـــذى يصرح باسميهما معتزا ، فهو عريق فى المجد ورثه كابرا عن كابر.

---

(١) المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام : جواد علي ، مرجع سابق ، ج٤/ ص٣١٤.

(٢) –عمرو بن كلثوم التغلبي بن مالك بن عتاب ، سيد تغلب ، وأحد الشعراء الفحول ، ١٩٩١م، ديوان عمرو بن كلثوم، صنفة الدكتور علي أنور زيد، دار سعد الدين . دمشق، ص٤٤.

وهذا ربيعة بن مُكَدّم الكناني ورث عن أبيه الشجاعة والزعامة ، فصارت موطن فخره ، فحق له أن يباهى بالألقاب الدالة على ذلك ، التى تنطق بالعز والسؤدد ، فهو ليس بـــدعا بـــين قومـــه فى الشجاعة لأنها ميراث ، ولا عجب إذن أن يكون الهلاك مقدور أعدائه ، يقول [١]:

أنا ابن ذى التقليد فى الشهر الأصم أنا ابن ذى الإكليل قتال البهم

مـــن يلقنى يودى كـــما أودت إرم أتركه لحما على ظهر وضم

ولعظم تقديرهم لروابط الدم ، جعل الجاهليون الأجداد بمنزلة الآباء ، فلبيد بن ربيعة يخاطـــب بعض أبناء عمومته[٢]:

أَبُونا أَبُوكُمْ والأَوَاصِرُ بَيْنَنَا قريبٌ، ولم نَأمُرْ مَنيعاً لِيَأْثَمَا

فهو يجعل من القرابة سندا لقبول اعتذاره عن فعلة أخيه ، فهم جميعا تجرى فى عروقهم دمـــاء واحدة ، ممتدة من الأب الأكبر ، إشارة منه إلى الجد الذى يجمعهم .

وعلى هذا النحو يمضى عمرو بن كلثوم التغلبي ، فتغلب وبكر أبناء أب واحد يقـــصد(جـــد واحد)يجمعهم فهم بنو أبيهم [٣] :

وكُنّا الأَيْمَنينَ إذا التَقَيْنا وكانَ الأَيسَرُونَ بني أَبِيْنا

ومن هذا المنطلق كانت العرب أيضا (تجعل الأعمام كالآباء) [٤] ويؤكد هذه المقولة شـــواهد منها أن لبيد بن ربيعة يعتز بأبوة أعمامه الذين تربى فى حجرهم بعد مقتل أبيه ، يتذكرهم بعد مماتهم ، ويذكر كيف أظلوه وكيف تمتع بحمايتهم له ، ورعايتهم إياه ، وذلك في قوله [٥]:

---

(١)ربيعة بن مُكَدّم بن عامر بن حرثان بن جزيمة بن علقمة الكناني ، أحد فرسان مضر المعدودين –الأغاني الأصفهاني – نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب– وزارة الثقافة والإرشاد القومي– المؤسسة المصرية العامـــة للتـــأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة ج ١٦ص/٨٣.

(٢) – لبيد بن ربيعة بن مالك أبو عقيل العامرى ، أحد أصحاب المعلقات ، عمر طويلا ، وأدرك الإسلام واســـلم ،وهجر الشعر فلم يقل بعد إسلامه سوى بيت واحد ،\شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقـــدّم لـــه الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية ، مطبعة حكومة الكويت١٩٨٤م ، ص٢٨٥. ومنيح: اسم رجل.

(٣) – ديوان عمرو بن كلثوم، مصدر سابق، ص٩١

(٤) – معاني القرآن، الفرّاء، تحقيق نجاتي ، ومحمد علي نجار، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥م،ج ١ص٨٢.

(٥) –شرح ديوان لبيد ، مصدر سابق ، ص٢٨٧. والمفيد: الذي يعمّ خيره على غيره، والعاصم: المانع الحامي.

وَأَنْبُشَ مِنْ تَحْتِ القبورِ أُبُوَّةً كِراماً هُـــمُ شَـــدّوا علـــيَّ التمائِمـــا

لَعِبْـــتُ علـــى أَكْتـــافِهِمْ وليداً وَسَمَّوْنِي مُفِيداً وَعَاصِما وحُجُورِهِمْ

كما أنهم عبروا ، بلفظ الأخوة ، عن أبناء العمّومة وإن تباعدوا ، كقول الحارث بـــن حلـــزة البكري مخاطباً الأرقم من تغلب [١]:

إنّ إخوانَنَا الأَرقَمَ يَغْلُو نَ علينا، في قِيْلِهِمْ إحْفَاءُ

فأبناء عمّومته إخوانه وإن غالوا فى التعالى والجفاء ، والعباس بن مرداس السلمي يعاتب رهط ابن عمّه خُفاف بن نُدْبة على قطيعتهم له ونأيهم عنه ، وهو الحريص على التقرب منهم وإليهم [٢]:

أراني كلّما قاربتُ قومي نَأوا عنّي وقطعهم شديد

و معاوية بن مالك العامري يعتزبهم ، فهم موضع فخره ، منهم يستمد أصالته وشموخه ، ويعول عليهم فى نصرته ، لأنهم عشيرته وعصبته ، والمجد فيهم أصيل متوارث ، يقول [٣]:

إنّي امرؤٌ من عُصْبَةٍ مَشْهورةٍ حُشُدٍ لَهُمْ مَجْدٌ أَشَمُّ تَليدُ

أَلْفَـــوا أبـــاهُمْ سَيّداً وأعانَهُمْ كَرَمٌ وَأعمامٌ لَهُمْ وَجُدودُ

والنابغة الجعدي ، يعتز بشجاعة عمه ، ومواقفه المشهودة فى الدفاع عن عشيرته [٤]:

---

(١) –الحارث بن حلّزة بن مكروه بن يزيد اليشكرى ،شاعر جاهلى من أهل بادية العراق ، وأحد أصحاب المعلقات،، ديوان الحارث بن حلّزة، جمعه وحققه وشرحه الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١م، ص٢٣. وإحفاء: من أحفيت الدابة إذا كلفتها ما لا تطيق حتى تحفى.

(٢) العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمى من مضر ، أبو الهيثم شاعر مخضرم أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم ، أمـــه الخنساء الشاعرة ، وكان فارسا اشترك فى الفتوح ، ومات فى خلافة عمر.–ديوان العباس ، ص٤٢.

(٣) معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب العامري.شاعر من أشراف العرب في الجاهلية، هو أخو (ملاعب الأســـنة) عامر بن مالك وعم (لبيد بن ربيعة المتوفي سنة ٤١هـــ ٦٦١م) الشاعر.لقب بمعود الحكماء أشعار العامريين الجاهليين ، جمع وتوثيق عبد الكريم اليعقوبي ، دار الحوار، ١٩٨٢ اللاذقية ، .ص٥٥.

(٤)النابغة الجعدى هو : قيس بن عبد الله بن عدس الجعدى العامرى شاعر مخضرم ، من المعمرين ، أسلم وتـــوفى فى أصـــبهان فى

وعمّي الذي حامى غداةَ مَناجِلٍ عنِ القوم حتّى فادَ غيرَ ذميمِ

وكان أبناء العم يتكافلون فى شدائدهم ، وأيام قحطهم وبؤسهم ، فإنهم يجدون أنه من العارأن يدخروا الأموال التى احتاج أقرباؤهم إليها ، غير آبهين بمن يحذرهم من عاقبة إنفاق أمـــوالهم علـــى أقربائهم ، لأن أقرباءهم هم المرجوون لنصرتهم ، والذين سينتفضون لنجدتهم إن دعا داع ، حيث لا ينفع المال عندها ، ومن أمثلته قول ضَمْرة بن ضَمْرة [١]:

أأَصْرُمُها وبُنَيُّ عَمّي ســـاغِـــبٌ فَكَفَاكِ مِنِ إبَةٍ عَلَيَّ وَعَـــابِ

أرَأَيْتِ إنْ صَرَخَتْ بِلَيْلٍ هامَتِي وخَرَجْتُ منا بَالِياً أَثْوابـــي

هل تَخْمِشَنْ إبلي عَلَيَّ وُجُوهَها أم تَعْصِبَنَّ رؤوسَها بِسِلابِ

وفى إطار هذا يتحمّل أبناء العمومة حمالة ابن عمهم ، فإن وقع عليه غرم ســـاعدوه في جمـــع الأموال اللازمة لسداد غرمه، يقول زهيربن أبي سلمى يمدح بني مُرّة [٢]:

وإنْ قامَ فيهمْ حامِلٌ قال قاعدُ: رَشَدْتَ، فلا غُرْمٌ عليكَ ولا خَذُلُ

وكان يلقى ابن العمّ لدى بنى عمومته إنْ نزل محلتهم ، الحفاظ على كرامته ، والرعاية التامـــة لشرفه ، يقول حاتم الطائي مفتخراً بذلك [٣]:

ولا يُلْطَمُ ابنُ العَمِّ وَسْطَ بُيُوتِنا ولا نَتَصَبَّى عِرسَهُ حينَ يَغْفُلُ

خلافة معاوية . وسمى النابغة لقوله الشعر بعد الثلاثين ، -شعر النابغة الجعدى، جمعه وقدّم له عبد العزيز رباح، منـــشورات المكتب الإسلامي. دمشق١٩٦٤م ، ص٢٣٧. ومناجل: جمع منجل. اسم جبل، وقد جمعه بما حوليه. وفاد: مات..

(١) ضَمرَةُ بن ضَمرَة بن جابر النَهشَلي الدارمي.من بني دارم، شاعر جاهلي من الشجعان الرؤساء،يقال: كان اسمه شقة بن ضمرة فسماه النعمان ضمرة وهو صاحب يوم ذات الشقوق، من أيام العرب في الجاهلـة،

– ذيل الأمالي والنوادر، أبو على القالي ، دار الكتاب العربي ،بيروت، د.ت ٢٧٩/٢. وساغب: جـــائع. والإبـــة: الحياء. والسلاب: خرقة سوداء تتقنع بها المرأة في المأتم.

(٢) هو: زهيربن أبي سلمى بن رباح المزنى من مضر، من أصحاب المعلقات، ومن المجودين لشعرهم حتى عرف بأنـــه فى طليعـــة عبيد الشعر، واشتهرت قصائده بالحوليات ،ديوان زهير بن أبي سلمى. دار صادر، بيروت، د.ت ص٣٩.

(٣) هو: حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائى القحطانى أبو عدى شاعر وفارس ،ومضرب المثل فى الكـــرم ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، صنعه يحيى بن مدرك الطائي، دراسة وتحقيق، الـــدكتور عـــادل سليمان جمال، الطبعة الثانية. مكتبة الخانجي، القاهرة. ص٢١٩.

وهو النصيح الصادق لابن العم إن استشاره ،استمع إلى قول أوس بن حجر [١] :

وإنْ قالَ لي: ماذا تَرَى يَسْتَشيرُني يَجدْني ابنَ عَمٍّ مِخْلَطَ الأمْرِ مِزْيَلا

وحدّثنا طرفة بن العبد عن أقربائه ونصحهم له ، أن يترك الجهل ، يقول [٢]:

وما زال شربي الرَّاحَ حى أشَرَّني صَديقي، وحتّى ساءَني بعضُ ذَلك

وحتّى يَقولَ الأقربُونَ نَصَاحـــةً ذَرِ الجَهْلَ واصْرِمْ حَبْلَها مِنْ حِبالِكِ

ويتناصرون ؛ فكان يفخر أبناء العمومة بنجدة بعضهم البعض ، ففي يوم(الهذَيل) أغار الهذيل بن هبيرة التغلبيّ على ضبّة والرباب فأنجدهما بنو سعد بن زيد مناة وضبة والرباب وسعد يرجعون إلى أدّ بن طانجة ، فقال سلامة بن جندل[٣]:

وتغلبُ، إذ حربُها لاقـــحٌ تُشَبُّ ، وتُسعَرُ نيرانُـــها

غداةَ أتانا صريخُ الرِّبـــابِ ولم يكُ يَصْلُحُ خِذلانُـــها

صريخٌ لِضَبَّةَ يوم الهُذَيـــلِ وَضَبَّةُ تُردَفُ نِسوانُـــها

تَدَاركَهُم ، والضحُّى غـــدوةٌ خَناذيذُ تُشْعَلُ أعْطَانُـــها

بأسْدٍ من الفِزْرِ غُلْبِ الرِّقابِ مصاليتَ لم يُخْشَ إدهانُها

ولإحساسهم بوحدة الدم الذى يجرى فى عروقهم ، اندفعوا إلى التسامح مع أبناء العمومـــة ،

---

(١) هو : أوس بن حجربن مالك التميمى أبو شريح من كبار شعراء تميم فى الجاهلية. ديوان أوس بـــن حجـــر (بـــيروت- دار صادر) تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم- الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـــ- ١٩٧٩م - ص٨٢. ومخلـــط الأمـــر مـــزيلاً: أخالط بأمري في موضع المخالطة. وأزايل في موضع المزايلة، أي أخلط وأميز ما ينبغي.

(٢) هو : طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد أبو عمرو البكرى الوائلى شاعر من الفحول وأحد أصحاب المعلقات ، مات صـــغيرا يايعاز من عمرو بن هند بعد وشاية عن هجاء طرفة له، ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩. ص١٨٤.

(٣) هو –سلامة بن جندل بن عبد عمرو ، أبو مالك من كعب بن سعد التميمى شاعر جاهلى ، وفارس حجـــازى مـــن طبقـــة المجيدين، ديوان سلامة بن جندل. تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، المكتبة العربية. حلب، ١٩٦٨م، ص٢٥٧-٢٥٩

وتردف نسوانها: تُسبى، وتحقب على ظهور الخيل وخناذيذ: مفردها خنذيذ، وهو الشجاع الذي لا يُهتـــدي لقتالـــه. . وتـــشعل أعطانها: تُلهب أعراضها حمية ونجدة لضبة والرباب. والفزر: بنو سعد بن زيد مناة بن تمـــيم بـــن أدّ. ومـــصاليت: مفردهـــا مصلات، وهو الرجل الماضي في الأمور. وإدهانها: لينها وغدرها.

والتغاضي عن هفواتهم ، فعمرو بن النبيت الطائي يتغاضى عن عتب ابن عمه، ويجعل ذلك من وراء ظهره ، ويعده بنصرته فى أى موقف احتاج إلى نصرته وعونه في أى وقت ، وسأدفع عنه من أمامه ، ومن خلفه ، ومن بين يديه مهما كلف الأمر يقول عمرو[١]:

إنّي وإنْ كان ابنُ عَمّي عاتِباً لمقاذفٌ من دونه ووراءِ

ومعدُّه نصري وإنْ كان أمراً متزحْزِحاً في أرضِه وسمائِه

وكان التغاضي عن ظلم أبناء العمومة بعضهم بعضاً ؛ دافعه الإبقاء على أواصر الدم ، والحرص على وحدة صف أبناء العرق الواحد ، وتجنّبا لايقاع الشرّ بينهم ، وفي ذلك يقول مُرّة بن همّام الشيباني[٢]:

يا عوفُ وَيْحكَ فِيمَ تأخذُ صِرْمتي؟ ولَكُنْتُ أسرَحُها أمامَكَ عُزَّبا

تا لله لَولا أنْ تشاءَى أهْلُنا وَلَشرُّ ما قال امرؤٌ أنْ يكذبا

لَبَعَثْتُ في عُرضِ الصُّرَاخِ مُفَاضَةً وَعَلَوتُ أجْرَدَ كالعَسِيبِ مُشَذّبا

فقد تنازل مرة عن تعدى عوف ابن عمه عليه حتى لا يتقاطع الأهل ، ويتناحر أبناء العمومة ، فهم يدركون أن من الجهل معاداة ذوى القربى ، بل عليه أن يتسامح مع ابن عمه مهما بدر منه ، ويقف بجواره ويدفع عنه، ويواسيه ، ويحفظ غيبته ، وينسى ذنوبه ، ويلخص هذه العلاقة الخاصة بين أبناء العمومة ، عبيد بن عبدالعزى السّلامي فى قوله [٣]:

ولا أدفعُ ابنَ العَمّ يَمْشي عَلى شَفاً ولوبلَغَتْني منْ أذاهُ الجَنادِعُ

---

(١) عمرو بن النبيت الطائي البحتري جاهلي- معجم الشعراء : ، المرزباني ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، منشورات مكتبة النوري، دمشق.ص ١٠٦

(٢) مُرّة بن همّام بن مرة بن ذهل الشيباني – معجم الادباء : ياقوت الحموي، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٩. . والصرمة: القطعة من الإبل نحو الثلاثين. وتشاءى: تفرّق والمفاضة: أراد بها دعوى مكثرة. والعسيب: السّعَفَة. والمشذّب: المنقّى من الخوص.

(٣)- عبيد بن عبد العزى السلامي.شاعر جاهلي أحد بني سلامان بن مفرج وهو ابن عم الشنفري وهو أزدي.وهو من الشعراء الجاهليين المجيدين.قصائد جاهلية نادرة، د.يحيى الجبوري مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٨٢م ، ص١٢٣. وعلى شفا: على حرف. والجنادع: جنادع الشرّ اوائله، وهي مادَبّ من الشرّ. وأفرشه مالي: أوسعه له. وعناك (يقول اخفق): لعلها من الأعناء: الجوانب والنواحي ، واحدها عنو

ولكن أواسيهِ وَأنسَى ذُنوبَـــــهُ لترجعهُ يوْماً إليّ الرّواجِـــــــع
وأُفرِشُـــهُ مالي وأحفظُ عيْبـــــــهُ ليسمعَ إني لأُجازيهِ سامـــــــعُ
وحسبُكُ من جهلٍ وسُوءِ صَنيعَـــةٍ مُعَاداةُ ذِي القُربى وإنْ قيلَ قاطعُ

وبلغ الأمر إلى الحد الذى يتنازلون فيه عن الثأر أحيانا ؛ رغم حساسيته عندهم ، وثقله علـــى نفوسهم ، رعاية لأواصر الدم والقربى ، ووحدة صف العشيرة ، لأن تقاتل أبناء العمّ يضعف العشيرة ، ويفت فى عضدها ، فهذا أبو جلدة اليشكري ، قتل أخوه ابنا له ، فهو فى موقف يشق على النفس ، ولكنه وجد العزاء بأن كلا منهما يحتل موقع صاحبه فلا مجال لديه للمفاضلة يقول [١]

أقول للنفس تأساء وتعزيـــــة إحدى يدي أصابتني ولم تـــرد
كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

ويجد عزاءه فى أن إحدى يديه قطعت الأخرى ، فهل يثأر للأولى بقطع الثانيـــة ؟..ســـيكون بالقطع حمقا يقع وباله عليه وهذا الحارث بن وَعْلَةَ الذهليّ [٢]، يوازن بين أخذه بثأر أخيه من قتلتـــه وهم أبناء عمومته ، وبين العفو ، فيرى فى الأول إضعاف لذاته ، بقتل أبناء عمومته ، فكأنه يقتـــل نفسه ، وفى الثانى ثقل على النفس لايعادله ثقل ، فهم لم يعتادوا أن يتنازلوا عن الثأر لقتلاهم:

قَوْمِي هُمُ قَتَلُوا، أمَيْمَ، أخِي فإذا رَمَيْتَ يُصِيبُني سَـــهْمِي
فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأعْفُوَنْ جَلَلاً وَلَئِنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

---

(١) أبو جلدة بن عبيد بن منقذ بن حجر بن عبيد الله بن مسلمة من بني جشم بن غنم من بني يشكر بن بكـــر بـــن وائل.شاعر أموي. من أهل الكوفة.وقد قتله الحجاج بعد هزيمة محمد بن الأشعث سنة ٨٣هـــ –شرح ديـــوان الحماسة ، المرزوقي، ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعـــة لجنـــة التـــأليف والترجمـــة والنـــشر القاهرة١٩٥١– ١٩٥٣مج١ ص ٦٦ .

(٢) الحارث بن وعلة الجرمي الحارث بن وعلة بن عبد الله بن الحارث ينتهي نسبه إلى جرم بن الريان وهـــو شـــاعر جاهلي وكان هو وأبوه وعلة من فرسان قضاعة وأمجادها وأعلامها وشعرائها وهو غير الحارث بن وعلة الشيباني أميم مرخم أميمة يقول قومي يا أميمة هم الذين فجعوني بأخي ووتروني فيه فإذا انتقمت منهم عاد ضرر ذلـــك علي لأن عز الرجل بعشيرته ٥ السطو القهر بالبطش والوهم الضعف وكذلك الوهي والجلل من الأضـــداد يكون للصغير وللعظيم–شرح ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، مج١ ص٢٠٤

ومن هنا ؛ فإن إحساس الجاهلى بأن أبناء عمومته قد خذلوه ، عظيم على نفسه ،لأنهم مـلاذه وملجؤه ، يصورذلك يزيد بن قنافة الطائي ، وقد تخلّى عنه ابن عمّه حاتم ، فيقول [١] :

لعمرى وما عمرى على بهين لبِئْسَ الفَتَى المدْعُوُّ بالليلِ حَاتِمُ

غداة أتى كالثور أحرج فاتقى بـجـبـهته أقناله وهو قائـم

كأن بصحراء المريط نعامـة تـبـادرها جنح الظلام نعائـم

أعارتك رجليها وهافى لبهـا وقد جردت بيض المتون صوارم

فحاتم هذا قد تركه وسط المعمعة ، وقد ادلهم الخطب ، وأحدق الخطر بهم مـن كـل جانـب ، وسابق الريح فرارا وهروبا ، تاركا ابن عمه فى الميدان ، وتخاذل أبناء العمّومة وتقاعـسهم ، تفـريط فى الدم ، وتسليم لذوى القربى إلى أعدائهم ، وإلحاق الضرر بهم ، فما بالك الوشاية بأبناء العم ؟ ،وكيـف يكون وقعها ، تصور ذلك لنا الخرنق حين وشى عبد عمرو بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند [٢]:

أرى عَبْدَ عَمْرٍو قد أسَاطَ ابنَ عمِّهِ وأَنْضَجَهُ في غَلَيْ قِدْرٍ وما يدْري

فقد ساقه كما تساق الأنعام إلى حتفه ، وأنضجه وقدمه قربانا لأعدائه ، وهو يأمن بوائقه ، ولا يتوقع غدره ، فأى عقوق للدم هذا ، وأى خيانة للأهل تلك ؟ .

ويفخر الجاهلى بأمجاد آبائه ، ويعمد إلى إعلائها ونشرها ، وإذاعتها بين القبائل، ليرفع عقيرته إلى السماء دوما مشرئبا ، ولتكون هذه الأمجاد نبراسا وهديا للأجيال القادمة ، يحملون شـرفها ،

---

(١) وهو يزيد بن قنافة بن عبد شمس العدوي من بني عدي بن أخرم ابن أبي أخرم من ثعل بن عمرو بن الغوث رهط حاتم بـن عبد الله وهوشاعر جاهلي من شعراء طيىء وفيه قصة هرب حاتم عن ابن عمّ وتركه يلاقى أعداءه بمفرده ،تفاصيلها . كتاب الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان: ٩/١ طبع جامعة الإمام محمد بـن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ ١٩٨١م. ج٢ص١٩٦ ، ١٩٧

(٢) – الخرنق بنت بدر بن هافان بن مالك من بنى ضبيعة البكرية العدنانية،ومن المؤرخين من يسقط بدر ليجعلها– الخرنق بنت هافان بن مالك ، من شهيرات الشعراء فى الجاهلية ، وأخت طرفة بن العبد، تزوجت فى بنى أسـد وقتل زوجها يوم(قلاب) فكان أكثر شعرها فى رثائه ورثاء أخيها ديوانها، برواية أبي عمرو بن العلاء، شـرحه وحققه وعلّق عليه يُسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، ص٥٤. وأشاط ابن عمه: ذهب بدمه.

ويتحلون بها بكلّ فخر، يقول حاتم الطائي [١]:

وكم لِيْمَ آبائي فما كَفَّ جُودَهُمْ مَلامٌ، ومِنْ أيْديهمُ خُلِقَتْ يَدِي

لاتنتقدوا كرمي ، وأجملو في لومي وانتقادي ، فالكرم سجية موروثة ، فكم انتقد أباؤه وأجداده من قبل على موفوركرمهم ، فما كفوا عنـــه ، وهوامتـــدادلهم ، ولا غرابـــة في أن يـــسود ابـــن السادات،لأنه يحمل لواء الأجداد ، يقول عدي بن زيد [٢]:

وإنّي لابْنُ سادات كِرامٍ عَنْهُمُ سُدْتُ

وسنن الآباء طريق الأبناء ، يسيرون على هديه ، مقتدين بهم ، وهم في غاية الاعتزاز بالتاريخ الذي صنعه آباؤهم . قال لبيد مفتخراً بقومه [٣]:

مِنْ مَعْشَرٍ سنَّتْ لَهُمْ آباؤهُمْ وَلِكُلّ قومٍ سُنّةٌ وإمَامُها

وقال النابغة يمدح ملك الحيرة[٤]:

إلى صَعْبِ المَقَادَةِ مُنْذِرِيّ نَماهُ في فروعِ المجدِ نامِ

أَبُوهُ قَبْلَهُ وأَبُو أبـــيهِ بَنَوا مَجْدَ الحَيَاةِ على إمامِ

ومدح الأعشى ، هوذة بن علي الحنفي ، بأنّه ورث عن أبيه ، وعن أعمامه: طلـــقٍ وشـــيبانَ ومالكٍ ما بنوا من أمجاد فقال: [٥]

---

(١) –ديوان شعر حاتم ، مصدر سابق ، ص٢٤٥. وانظر مثل ذلك فيه ص٢٤٦.

(٢)– هو عدي بن زيد بن حماد بن زيد العبادى التميمى ، شاعر من الدهاة ، عمل في بلاط كسرى كاتبا ومترجما ، وشى به إليه فسجنه وقتله

–ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م، ص١١٩.

(٣) –شرح ديوان لبيد ، مصدر سابق ، ص٣٢٠. وإمامها: مثالها. وانظر مثل ذلك فيه ص١٥٧.

(٤) –ديوان النابغة الذبياني ، مصدر سابق ، ص١٦٥.

(٥)الأعشى الكبير هو: ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي وكنيته : أبو بصير ، مـــن شـــعراء الطبقة الأولى ، كان يغني شعره ؛ فعرف بصناجة العرب – وهوذة بن علي بن ثمامة بن عمر بن عبـــد الله بـــن عمرو بن عبدالعزى بن سحيم بن مرّة بن الدول، ال ابن دريد ، كان ذا شرف ومكانة في قومه

– شرح ديوان الأعشى الكبير، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه الدكتور حنّا نصر الحتّي، دار الكتـــاب العـــربي، بيروت ، ١٩٩٢، ص٢٤٢.

وَجَدْتَ عَلِيّاً بانِياً فَوَرِثْتَهُ وطَلْقاً وشَيْبانَ الجَوادَ ومَالِكَا

ويقول العباس بن مرداس السلمي في مثل ذلك[١]:

لنا شِيَمٌ غيرُ مجهولةٍ توارثها الأكبرُ الأكْبَرُ

وقال كعب بن مالك[٢]:

وَعَلَّمنَا الضَّرْبَ آباؤنا وسوفَ نُعَلمُ أيضاً بَنينـــا

جلادَ الكُمَاةِ وبَذْلِ التِّلا دِ عنْ جُلِّ أحسابنا ما بقينا

إذا مَرَّ قِرْنٌ كَفَى نَسْلُهُ وَأَوْرَثَـــهُ بَـــعْـــدَهُ آخرينا

وما علمه الأباء للأبناء من فنون الحرب والقتال ، وراثة متسلسة من الجزور إلى الفروع غـــير منقطعة ؛حتى لا تنقطع أمجاد الآباء ، وليست الفروسية وحدها المجد الذى يعلم ؛ بل حرص الأبـــاء على توريث أبنائهم قيمهم الكريمة ، فهى دليل الانتماء إلى سلسلة النسب الأبوي ، ولذا يقـــول زهير بن أبي سلمى [٣]:

فلو كانَ حَمْدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تَمُتْ ولكنَّ حَمْدَ النّاسِ ليسَ بِمُخْلِدِ

ولكنَّ مِـــنْـــهُ بـــاقـــياتٍ وراثَةٌ فَأَوْرِثْ بَينكَ بَعْضَها وتَزَوَّدِ

وكانوا يعرفون أن الحرص على وراثة أمجاد الآباء وتوريثها الأبناء يقود إلى نماء تلك الأمجـــاد ورسوخها في المجتمع. يقول طرفة مفتخراً بقومه[٤]:

والمجدُ نُنْمِيهِ ونُتْلِدُهُ والحَمْدُ في الأكفاءِ نَدّخِرُهْ

---

(١)– العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمى من مضر ، أبو الهيثم شاعر مخضرم أسلم وكان من المؤلفة قلـــوبهم ، وأمه الخنساء الشاعرة ، وكان فارسا اشترك فى الفتوح ، ومات فى خلافة عمر.

–ديوان العباس بن مرداس السُّلمي ، جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبوري ، المؤسسة العامة للـــصحافة والطباعـــة، بغداد، ١٩٦٨م، ص٦٣.

(٢) –ديوان كعب بن مالك ، ،مصدر سابق ، ص٢٧٦–٢٧٧.

(٣) –شعر زهير ، ،مصدر سابق ، ص١٨٦.

(٤) –ديوان طرفة ، ،مصدر سابق ، ص١٢٧.

كما أنه يسهم فى تواصل الأجيال ملتزمين بنهج الأباء ومتمسكين بقيمهم ، ومن ذلك قـــول دريد بن الصمة[١]:

ولكِنْني أحْمِي الذِّمَارَ وأنْتَمي إلى سَعْي آباءٍ نَمَوا شَرَفي قَبْلي

وقول أوس بن حجر[٢]:

فلا وإلهي ما غَدَوْتُ بِذِمَّةٍ وإنَّ أبي قَبْلي لَغَيْرُ مُذَمَّم

وقول قحافة بن عوف بن الأحوص العامري[٣]:

إنّي إذا ما نُسِيَ الحياةُ وضاعَ يوم المشهدِ اللواءُ

أنْمِي وقد حُقَّ لي التّماءُ إلى ذُكورٍ ذِكْرُها سَنـــاءُ

ولذا فقد كانوا يرون أن المجد فى التواصل ، وذلك باحتذاء الأبناء مابنى الأباء من أمجاد ، يقول قيس بن عاصم المنقري [٤]:

إنّما المجدُ ما بَنَى والد الصِّدْ قِ وأحيَا فَعَالهُ المولودُ

وكمالُ المجدِ الشَّجَاعَةُ والحِلْـــ مُ إذا زانَهُ عَفَافٌ وجُودُ

ويحمل الأبناء وصايا الأباء دستورا فى حياتهم ،يقول ابن حريم الهمداني [٥]:

بذلكَ أوصاني حَريمُ بن مالك بِأنَّ قَليلَ الذَمِّ غيرُ قليلُ

والانتماء العرقى لا يكفي فيه النسب الأبوي فالأبناء الكرام لا بدّ لهم من أمومة طيبة طاهرة ، ومن هنا تمتعت الأم بمنزلة لا تقلّ عن منزلة الأب عند أبنائها من حيث الانتماء إليها ، والافتخار بها

---

(١) هو : دريد بن الصمة الجشمي البكرى كان فارسا وشاعرا ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، وقتل علىجاهليته.

والذمار: الديار، وكلّ ما يجب حمايته. ديوان دريد بن الصمة الجشمي، جمع وتحقيق، محمد خير البقاعي، دارقتيبة،دمشق، ١٩٨١م، ص٩٩.

(٢) –ديوان أوس بن حجر ، ،مصدر سابق ، ص١١٨.

(٣) –أشعار العامريين الجاهليين ،مصدر سابق ، ص٧٧.

(٤) – قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن الحارث. وكان سيداً جواداً ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم في وفد بني تميم فأسلم ، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على صدقات قومه معجم الشعراء، المرزباني ، مصدر سابق ، ص٢٠٠.

(٥)مالك بن حريم الهمداني شاعر فحل جاهلي. وهو جد مسروق بن الأجدع –المصدر السابق ص٢٥٥.

، بل والانتساب إليها ، فنسب عمرو بن شأس الأسدي ولد الحارث وسعد ابني ثعلبة بن دودان بن أسد إلى أمهم سَلمى بنت مالك في قوله [١]:

إنّ بني سَلْمَى شُيُوخٌ جِلّهْ
شم الأنوف لم يذوقو الذلة
بيض الوجوه خرق الأخلة

فهم شيوخ تعلوهم مسحة الوقار ، أعزة لا يتجرعون الهوان ، كرماء ، بواسل شجعان ، ومع كل هذه الشيم والفضائل عزاهم إلى أمهم ، ولم يقف الأمر عند نعت الأفراد ، بل في نعت بعـــض القبائل ؛ فبنو ربيعة ابن عامر بن صعصعة: كلاب وكعب وعامر وكلب ، ولدَتهم مجد بنت تيم بـــن غالب بن فهر، وإياهم عنى لبيد بن ربيعة في قوله [٢]:

سَقَى قومي بني مَجْدٍ وَأَسْقَى نُمَيْراً والقبائلَ مِنْ هِلاَل

وأبناء إلياس بن مُضَرَهُم: بنو خندف نسبة إلى أمهم [٣] ، التى طالما افتخر المضريون بالنـــسب إليها ، من ذلك قول سلامة بن جندل [٤]:

ومن كان لا تعتد أيامـــه له فأيامنا عـــنـــا تـــجـــلى وتعرب

ألا هل أتى أفناء خندف كلها وعيلان إذ ضم الخميسين يترب

فالشاعر في معرض الفخر يعدد أيامهم التى تعلن في صراحة وجلاء عن شجاعتهم وخاصة إذا ما

---

(١)عمرو بن شأس بن عبيد بن ثعلبة الأسدى من مخضرمى الجاهلية والإسلام قال شعره فى العصرين ،وهو معـــدود من الفحول . ، شعر عمرو بن شـــأس الأســـدي، الـــدكتور يحـــيى الجبـــوري، مطبعـــة الآداب، النجـــف الأشرف١٩٧٦م. ص٩٩. وشيوخ جلّة: ذوو أخطار. وجلّة: جمع جليل.

(٢) – انظر شرح ديوان لبيد ، ،مصدر سابق ، ص٩٣.

(٣) –انظر العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته ورتّب فهارســـه أحـــد أمـــين وزميلاه، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت١٩٦٥م، ج ٣ ص٣٣٧–٣٣٨. وفى العين (الخندفة :مشية كالهرولة للنساء والرجال ، قالت ليلى القضاعية لزوجها إلياس بن مضربن نزار: مازلت أخندف فىـــإثركم ، فقال لها خندف ، فصار اسمها إلى اليوم) مادة (خندف)

(٤)– ديوان سلامة بن جندل ، ،مصدر سابق ، ص٢١٤. والأفناء: الغصون والفروع. ويترب: اسم موضع.

ضم الجيش جناحي مضر من أبناء خندف ، وقيس عيلان ، عندها حدث عنهم ولا حرج . وقول عمرو بن شأس يخاطب رجلاً [١]:

متى تدعُ قيساً ادعُ خِنْدِفَ إنّهـــم إذا ما دُعُوا أسمعتَ ثَمَّ الدَّواعيَا

لنا حاضر لم يحضر الناس مثله وباد إذا عـــدوا علينا البواديـــا

فإن فخرت بانتسابك لقيس، فنحن أبناء خندف لنا مجد تعرفه الحواضر والبوادى .

ومن عمق الإحساس بالانتماء إلى الأم وعشيرتها يأتى تعظيم الأخوال ، فهذا عمرو بن كلثـــوم يعظم من شأن خاله الثُّوير بن هلال النمري ، فهو الشجاع الذى يحتمى فيه أقرانه ، وهو الفـــصيح ذرب اللسان الذى ينال العفو بحلاوة منطقه وحسن حديثه ، وهل فوق ذلك من فضل ؟ [٢]:

خالي بذي بَقَرٍ حَمَى أَصْحابَهُ وَشَرَى بُحْسنِ حَدِيثِه أنْ يُقْتـــلا

ذاكَ الثُّوَيْرُ فَما أُحِبُّ بَفضْلِه عِنْدَ التَّفَاضُلِ فَضْلَ قومٍ أَفْضَلا

وكان مناط فخر الواحد منهم أنه مُعَمٌّ مُخْوَل ؛ أى : أنه كريم الأعمام والأخـــوال ، ومـــن الشعر الدال على ذلك قول عوف بن الأحوص[٣]:

ولكنْ نلتُ مَجْدَ أبٍ وخالٍ وكان إليهما يَنْمِي العلاءُ

وقول قيس بن المكشوح المرادي[٤]:

كِلا أَبَوَيّ مِنْ عَمٍّ وَخالٍ كما أنبيتُه للمجدِ نامِي

ومن ذلك قول امرئ القيس ، يشمخ بين أقرانه في اعتزاز [٥]:

---

(٥) –شعر عمرو بن شأس ، مصدرسابق ، ص١٠٩

(٢) – ديوان عمرو بن كلثوم، ،مصدر سابق ، ص١١٢. وذوبقر: واد.

(٣)عوف بن الأحوص بن جعفر العامرى من بنى كلاب بن عامر بن صعصعة ،شاعر جاهلى شهد حر الفجار –أشعار العامريين الجاهليين ، مصدر سابق ، ص٤٧.

(٤) واسمه قيس بن هبيرة بن عبد يغوث المرادى ، والمكشوح هو هبيرة أطلق عليه ذلك لكى كان فى بطنه ،ويقال إنـــه ضـــرب عليه فسمى لذلك بالمكشوح. كان سيد قومه،أدرك الاسلام وأسلم –معجم الشعراء، ،مصدر سابق ، ص١٩٨.

(٥) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ، إمام شعراء الجاهلية ،أبوه ملك أسد ، عاش قسما من حياته لاهيـــا عابثا ، وعاش بقية عمره مطالبا بثأر أبيه.

وأنا الذى عرفت معد فضلـــــه ونشدت عند حجر ابن أم قطام

وأنازل البطل الكريه نزالـــــه وإذا أناضل لا تطيش سهامى

خالي ابنُ كَبْشَةَ قد عَلِمْتَ مكانَهُ وأبو يَزيدَ وَرَهْطُـــهُ أَعْـــمامي

وهكذا ؛ فهذا الصيت الذائع لامرىء القيس ، وهذه الشجاعة التي فاقت الحد ؛ ليست بغريبة ولا مستغربة إذا كان أبوه حجر، وعمه أبو اليزيد ، وخاله ابن كبشة . وكذلك افتخر أوس بـــن حجر بنسبه من جهة أبيه وأمه إلى تميم[١]:

متى تبغ عزى في تميم ومنصبى تجد لى خالا غير مخز ولا عـــم

تجدنى من أشـــرافـــهم وخيارهم حفيظا على عوراتهم غير مجرم

فهو كما يقولون معم مخول ، فأعمامه وأخواله من خيار الناس وأشـــرافهم ،يحمـــون الزمـــار ويغارون على العرض ، وليس فيهم مايخزى أو يشين . وأما حسان بن ثابت فينتسب إلى جده مـــن قبل أبيه (ابو ليلى) ، وإلى أخواله (بنى كعب) وهو فى معرض الفخر اعتزازا بهما يقول [٢]:

جَدِّي أبو ليلى وَوَالِدُهُ عَمْرٌ وأخوالي بنو كَعْبِ

ونجد أن التعبيّر بلفظة الأب أطلقت على الجد من قبل الأم ، مثلما أطلقت على الجدّ من قبل الأب كما أطلقت لفظه الأمّ على الجدة من قبل الأم ، مثلما أطلقت على الجدّة من قبـــل الأب ، وقد جمع ذلك قصي بن كلاب في قوله مفتخراً [٣]:

-ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبرهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م، ص١١٨.

(١) انظر ديوان أوس ، ،مصدر سابق ، ص ١٢٤.

(٢) – انظر ديوان حسان بن ثابت الأنصاري تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين ،الطبعـــة الثانيـــة، دار المعـــارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٩٤.

– هو الصحابي الجليل حسان بن ثابت بن المنذرالخزرجي الأنصارى ،أبو الوليد ، شاعر الأنصار فى الجاهليـــة وشـــاعر النبـــوة فى البعثة وشاعر اليمانين فيما بعد عمر طويلا ،قضى شطر ا منحياته فى الجاهلية ، وشطرا أخر فى الإسلام ، وأبو ليلـــى الـــذى عناه حسان هو : حرام بن عمروبن زيد مناة :انظرفى ذلك في أشعار العامريين الجاهليين ،مصدر سابق ، ص٨٣.

(٣) قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب ابن لؤيّ بن غالب. والأمهة : لغة فى الأم ،وقيل الهاء فى أمهة أصلية وهى فعلة بمنزلةترهة وأبهة ، وخص بعضهم بالأمهة من يعقل وبالأم من لايعقل راجع اللسان: (أمم).

إنني لدى الحرب رخي اللبب عند تناديهم بهال وهب

معتزم الصولة عال نسب أمهتي خندف وإلياس أبي

فقصى يجمع فى فخره بين شجاعته ونسبه فهو عند الحرب مقدام إذا تقاعس أوتلكأ الفرسان فهو قوى العزم ، ماضى الشكيمة ، فهم أبناء(خندف)،(إلياس) الثورة فيهم والشرف ظاهر لهم على غيرهم .

ونسب المتلَمّسُ الضبعي قوم طرفة بن العبد إلى جدهم ، قِلابةُ بنت الحارث بن قيس اليشكرية في قوله[١]:

أبني قِلابَةَ؛ لم تكُنْ عاداتُكُمْ أَخْذَ الدّنِيةِ قَبْلَ خُطّةِ مِعْضَدِ

وافتخر لبيد بن ربيعَة العامري بجدته أم البنين العامرية ، وجعل أبناءها خير بني عامر بن صعصعة [٢] :

نحن بنو أم البنين الأربعة

ونحن خير عامر بن صعصعة

كذلك لم يجد سادة العرب وملوكهم غضاضة في أن ينسبهم الشعراء إلى أمهاتهم فيما يتوجهون به إليهم من مدائح شعرية ، فقد مدح بشر بن أبي خازم الأسدي عمرو بن الحارث الكندي بقوله[٣]:

---

(١) –المتلمس الضبعيّ هو: جرير بن عبد الغزى أو عبد المسيح ، من بنى ضبيعة من ربيعة ، شاعر جاهلى من أهل البحرين وهو خال طرفة بن العبد .

، ديوان شعر المتلمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٠م، ص١٤٩.

(٢) انظر شرح ديوان لبيد ، ،مصدر سابق ، ص ٣٤١

(٣)– بشر بن أبي خازم هو عمرو بن عوف الأسدى شاعر جاهلى فحل من بنىأسد بن خزيمة ،كان شجاعا فاتكا ، قتل فى إغارة له على بنى صعصعة بن معاوية

– ديوان بشر بن أبي خازم الأسدّي، عني بتحقيقه الدكتور عزّة حسن، الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢، ص٣٨. وأرقلت: أسرعت. والرتك: سير سريع فيه اهتزاز ومقاربة خطو والسبسب: الأرض القفر، لا ماء فيها ولا أنيس ، وأم إياس هي:بنت عوف بن محلم الشيبانى.

فإلى ابْنِ أُمِّ إياسَ عَمْرٍو أَرْقَلتْ رَتَكَ النعامةِ في الجَديبِ السَّبْسَبِ

ونسب زهير بن أبي سلمى هرم بن سنان إلى أمه إذ مدحه بقوله(١):

أبي لابنِ سَلْمَى خَلّتانِ اصطَفَاهما: قِتالٌ إذا يَلْقَى العَدُوَّ ونائلُ

ومدح حذيفة ابن غانم العدوي أبا لهب بن عبد المطلب بكرم منبت أمّه لبني بنت هاجر الخزاعية السَّبَيّة في قوله(٢):

وأمُّكَ سِرٌ من خزاعةَ جَوْهَرٌ إذا حَصَّلَ الأنْسَابَ يوما ذوو الخبر

إلى سبأ الأبطال تُنمى وتنتمي فَأكْرِمْ بها منسوبة في ذرا الزُّهْرِ

ومن اعتداد الأبناء بالأم قول يزيد بن سنان بن أبي حارثة يخاطب النابغة الذبياني(٣):

لو كنتُ هيّاباً أو ابن لَئيمةٍ لأعطيتُ ماترضي به سَخَطَ الخصْمِ

ولكنْ تَمَطّتْ بي حَصانُ نَجيبَةٌ جَميل المُحيَّا من نساءِ بني غَنْمِ

فأمه شريفة عفيفة من منبت طيب ، فمن أين يأتيه اللؤم ، وكيف يرتضى الدنية .

إذن اتضح لنا أن الانتساب إلى الأمهات كان أمراً مألوفاً في العصرالجاهلى ، ومظهرا من مظاهرالانتماء ، لكن العربي بطبعه كان يأنف أن يقدم نسب أمه مهما كان عظيماً على نسب أبيه ، فالامتداد العرقي الأبوى كان عندهم الأولى بالاهتمام والتقديم ؛ وقد حملت لنا القصيدة العربيةهذه الرؤية، فحين يعقد الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي مفاضلة بين جديه ، وهما تغلبيان ، فهو ابن تغلب أما وأبا ، نراه يحتشد لنسبه الأبوى ، استمع إليه يقول (٤):

وَرِثْتُ مهلهِلاً والخَيْرَ مِنْهُ زهيراً، نِعْمَ ذُخْرُ الذّاخِرِيْنا

---

(١) -شعر زهير ، ،مصدر سابق ، ص٢٦٢. وانظر ص١٤٤ أيضاً.

(٢) حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عريج بن عدي بن كعب القرشي العدوي ،(سيرة ابن هشام)، قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف سعد ، دار الجيل، بيروت١٩٧٥م، - ج ١ص١٦٢ .

(٣) يزيد بن سنان بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ،شاعر جاهليمن السادات في الجاهلية ،وهو أخو (هرم بن سنان) ممدوح زهير بن أبي سلمى . -معجم الشعراء ، ، مصدر سابق ، ص٤٨٣.

(٤) ديوان عمرو بن كلثوم ،مصدر سابق ، ص ٩٠.

وعتابا وكلثوما جميعـــا بهم نلنا تراث الأكرمينـا

فمهلهل سيد من سادات العرب ، مقدم في الذكر علىزهير بن جشم لكن لأن الأول جدّ عمرو كلثوم لأمه ، والثانى جده من جهة أبيه، والجدّان من سادات تغلب ، والموقف لا يستدعي المفاضلة بين الجدين لكنه مع ذلك قدم زهيراً على مهلهل في عصبية شديدة للنسب الأبوى ويستكمل سلسلة النسب الأبوى بعتاب وكلثوم وكأنه يحتشد للنسب الأبوى ، ويجمع له مع أن كل الأطراف تغلبيون ، لأن المفهوم الراسخ في الأذهان ، أن الكريم يرتفع بآبائه ، وإن شرف بأخواله .

ومن المظاهر السلبية للانتماء العرقى ؛ الأخذ بالثأر ، حقيق قد يكون الأخذ بالثأر في المجتمع القبلي مجلبة لبعض المنافع من باب أن القتل أنفى للقتل (لأنه يكبح من جماح بعض الحمقى الذين تسيرهم شهوات القتل والقسوة) [١]. وأن إدراك الثأر يدفع الخزي عن أهل القتيل ، لكن العرب بالغت فيه إلى الحد الذى قطع العلاقات والأواصر، وجعل الاضطرابات والفتن سائدة فى المجتمع الجاهلى ، يعبر المهلهل عن إسرافه فى دماء بكر، قائلا [٢] :

آليتُ بالله لا أرضىَ بِقَتْلهمِ حتى أبهرج بكراً أينما وُجدوا

ويقول أيضا[٣]:

قَتلوا كليباً ثم قالوا ارْبعـــوا كَذبوا وربّ الحِلّ والإحرْام

حتى تبيدَ قبائلٌ وقبيلـــــةٌ ويَعض كلُ مثقف بالهَـــامَ

وتقومَ ربّاتُ الخُدور حواسراً يَمْسحن عُرْض ذَوائب الأيتام

حتى يَعضّ الشيخُ بعدَ حَميمه مما يرَى نَدماً على الإبهـــام

---

(١)الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الحوفي ، الطبعة الخامسة ، دار القلم، بيروت١٩٧٢م، ص٢٨٣.

(٢) المهلهل بن ربيعة ؟ - ٩٤ ق. هـ / ؟ - ٥٣١ م عدي بن ربيعة بن مرّة بن هبيرة من بني جشم. من تغلب، أبو ليلى، المهلهل. من أبطال العرب في الجاهلية من أهل نجد. وهو خال امرئ القيس الشاعر. قيل: لقب مهلهلاً، لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي رققه.وكان من أصبح الناس وجهاً ومن أفصحهم لساناً ، شارك فى وقائع بكر وتغلب، التي دامت أربعين سنة

– العقد الفريد / ابن عبد ربه ، مصدر سابق ، ج٦ ، ص٦٧. قال أبو حاتم: أُبهرج: أدعهم بهرجاً لا يُقتل بهم قتيل ولا تُؤخذ لهم دية. قال: والبَهْرج من الدراهم .

(٣) المصدر السابق ، ج٦ ، ص٦٧.

فمُهلهل ، قد أسرف في القتل ولم يُبال بأيّ قبيلة من قبائل بكر أوقع .

والعرب تعظم الأخذ بالثأر، ولو تسبب فى إضرام نيران الحروب وتأجيجها ، وعلى الرغم من كونه مظهرا سلبيا ؛ إلا أنه يظهر عمق الانتماء العرقى فى تواضعات العرف الجاهلى .

فأهل القتيل هم المطالبون بالثأر له من القاتل ، الأقرب فالأقرب ، فالابن يثأر لـــلأب والجـــد، والأولى أن يأخذه بنفسه ؛ لأنه مسؤوليته ، كما فعل قيس بن الخطيم حين ثأر لأبيه وجده بنفسه ، يقول [١]:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاءها

ثَأَرْتُ عَدِياً والخَطيمَ فَلَمْ أضِـــع ولايَةَ أَشْيَاءٍ جُعِلْتُ إزاءَهـــا

يقول : طعنت ابن عبد القيس – هو الذي قتل أبا قيس– طعنة من يطلب بثأره فلم أبق غاية ، فجعلتها نافذة مدوية ، وعدى والخطيم هما أبوه وجده ، فلم يزل قيس من ذلك العهـــد يطلـــب بثأرهما حتى ثأر لهما في حديث يطول ذكره [٢]

والأخ يثأر لأخيه ، ففي يوم الغدير حارب دريد بن الصمة الجشمي غطفان طلباً بثأر أخيه عبد الله ، فقتل ذؤاب بن أسماء بأخيه ، وفى ذلك يقول [٣]:

جزينا بني عبسٍ جزاء موفراً بمقتل عبد الله يوم الذنائـــــــــبِ

قتلنا بعبد الله خير لداتـــــه ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قاربِ

وابن العم يطالب بثأر ابن عمه ، ودريد يعود ليكون شاهدنا ، حينما يضيف إلى فخر باللحاق بثأر أخيه ، ثأره لأبناء عمومته ، فقد ثأر لبني سُليم أبناء عمومته من هوازن، يقول دريد [٤]:

---

(١) قيس بن الخطيم بن عدي الأوسي، أبو يزيد. ؟ – ٢ ق. هـــ / ؟ – ٦٢٠ م شاعر الأوس وأحد صناديدها في الجاهلية. أول ما وله في وقعة بعاث التي كانت بين الأوس والخزرج قبل الهجرة أشعار كثيرة. أدرك الإســـلام وقتل قبل أن يدخل فيه. –ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، الطبعـــة الثانيـــة، دار صادر، بيروت١٩٦٧م، ص٤٣. طعنه بالرمح ضربه به وقيل الثائر من يأخذ بالثأر والنفذ ما ينفذ من الطعنة والجمع أنفاذ والشعاع المتفرق وهو هنا المنتشر من الدم ومعناه وجعلت إزاءها: جُعلتُ القيّم عليها.

(٢) وتفاصيله في الأغاني ، ،مصدر سابق ، ج ٣ ص٥ ومابعدها

(٣) ديوان دريد ص٩١. وأجرى إليها: قصد إليها. وأوضع: أسرع في سيره.

(٤) –المصدر السابق ص٧٨: وألفافها: قومها المجتمعون حولها. ومخفر: من أخفرة، نقض عهده.

فَأبْلِغْ سُلَيْماً وَأَلْفَافَهـــــا وقد يَعْطِفُ النَسَبُ الأكبَرُ

بِأَنِّيْ ثَأرتُ بإخوانِكـــــمْ وَكُنْتُ كأنِّيْ بِها مُخْفـــــرُ

صَبَحْنا فَزارَةَ سُمْرَ القنا فَمَهْلاً فَزَارَةُ لا تَضْجَرُوا

ولا يقف الأمر عند حدود أبناء العمومة القريبة بل إن الجماعة العرقية مطالبة بالثأر، ووقوفها خلف الموتور من جماعتها أمر حتمى ؛ حتى يلحق بثأره ، لأنه ثأرهم جميعا ، والثأر هم يحمله ولى الدم ، ويصبح تحقيقه أخص أمانيه ، ليتخلص من عبء ثقيل ورزء مقيم ، تقول أسماء بنت ربيعة التغلبية: (١)

يا بَني تَغلِبَ لا تَتأَخَّروا وَاطلُبوا ثَأرَ مَليكِ الجَحفَلِ

وكما أن الأخذ بالثأرمدعاة للفخر والإشادة والتبجيل ، فإن تركه أو تأخيره يورث العار والمذمة ، فعبيد بن الأبرص يعير امرأ القيس عن تراخيه فى الثأر لأبيه ، بقوله (٢):

سَقَينا امرَأَ القَيسِ ابنَ حُجرِابنِ حارِثٍ كُؤوسَ الشَجا حَتّى تَعَوَّدَ بِالقَهرِ

وَأَلهـــــاهُ شُـــربٌ ناعِمٌ وَقُراقِرٌ وَأَعياهُ ثَأرٌ كانَ يَطلُبُ في حُجرِ

وَذاكَ لَعَمـــري كانَ أَسهَلَ مَشرَعـــاً عَلَيهِ مِنَ البيضِ الصَوارِمِ وَالسُمرِ

وإن هم لم يدركوا ثأره ، ورضوا بالدية ظل عارا يلاحقهم ، ويورث لأصلابهم ، فهذه كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، تحرض على الثأر، وتحذر من العار والشنار الذى يلحقهم لـو قبلـوا بالدية (٣):

---

(١) ــ أسماء بنت ربيعة التغلبية هى : أسماء بنت ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم التغلبية أخـت كليـب بـن ربيعة.شاعرة من تغلب شاركت مع قومها في حروبها ، لها شعر في رثاء أخيها كليب وينسب لها شعر تخاطب فيه جليلة زوجة كليب وأخت جساس. الأغانى ــ مصدر سابق ـــ ج١٠ ص١٦٦

(٢) ــ ديوان عبيدبن الأبرص ــ مصدر سابق ــ ص٧٨:.

(٣) – ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، مج١ ص٧٢ وكانت كبشة من النساء الشاعرات المتوسطات في الـشعر وكانت متزوجة في بني الحارث بن كعب وكان عبد الله أخاها لأبيها وأمها دون عمرو والسبب في هذا الشعر أن عبد الله بن معد يكرب مر براع للمحزم.بن سلمة من بني مالك بن مازن بن زبيد فاستسقاه لبنا فأبى واعتل عليه فشتمه فقتله عبد الله فثارت بنو مازن بعبد الله فقتلوه وجاؤا إلى عمرو فقالوا إن أخاك قتله رجل منا سفيه

فإن أنتم لم تثأروا واتديتم فمشوا بآذان النعام المصلم

ولا تردوا إلا فضول نسائكم إذا ارتملت أعقابهن من الدم

وتقول :ـ[١]

وأرسل عبد اللّه إذ حان يومه إلى قومه:لا تعقلوا لهمُ دمي

ولا تأخذوا منهم إفالا وأبكراً وأترك في قبر بصعدة مظلم

وهذا صوت أخر يردد[٢] امتنع قوم أصبنا صاحبهم من الرضى بالدية ، وآثروا طلب الدم على قبول الدية ، فالدية في عرفهم الدنية والعار :ـ

فلو أن حيا يقبل المال فدية لسقنا لهم سيلا من المال مفعما

ولكن أبى قوم أصيب أخوهم رضا العار فاختاروا على اللبن الدما

وسارية بن زنيم العبدي يعير أحد بني مرة بأخذ دية الأسود أخيهم يقول [٣]:

علك يا أبح حسبت أني قتلت الأسود الحسن الكريما

أخذتم عقله وتركتموه يسوق الظمي وسط بني تميما

فهو يعيرهم بأخذ دية الأبح بن مرة ، ورضوا بهذا العار، ولم يدركوا ثأره .

*وهكذا حملت القصيدة الجاهلية فى وضوح فكر العربى الذى يعتز بانتمائه العرقى ، وهى مع

ونحن يدك وعضدك فسألك الرحم إلا أخذت الدية ما أجبت وهم عمرو بذلك فغضبت كبشة وقالت هذه الأبيات

(١) – ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، مج١ ص٧٢ .

(٢) – ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، مج١ ص٧٠

(٣) –الأغانى ، ،مصدر سابق ، ج١٠ ص٢٢٧ سارية بن زنيم بن عبد الله بن جابر الكناني الدؤلي المتوفى ٣٠ هـ / ٦٥٠ م.صحابي من الشعراء، القادة، الفاتحين كان في الجاهلية لصاً، كثير الغارات يسبق الفرس عدواً على رجليه.ولما ظهر الإسلام أسلم وجعله عمر (رضي الله عنه) أميراً على جيش وسيره إلى بلاد فارس سنة ٢٣هـ، ففتح بلاداً منها أصبهان في رواية، وهو المعني بقول عمر (رضي الله عنه):يا سارية الجبل. والأبح بن مرة وكان فارسا وشاعرا ، وسارية بن زنيم العبدي : أحد بني عبد بن عدي ابن الديل

أن الشاعر لم يقصد إليه بوصفه موضوعا مستقلا ، فإن إسقاط هذه الدلالات فى ثنايا الموضوعات المختلفة ، لتعبرعن مدى تغلغلها فى حياته ، ويؤكد حضورها فى ذهنه ، وإن لم يقصد إليها قصدا ، وهذا يبين أهمية الانتماء العرقى ، و يبرزتعظيم قرابة الدم لدى العربى فى الجاهلية..

ثانيا : الانتماء القبلى

تمثل القبيلة البناء الاجتماعي الأساسي الذي بنيت عليه الحياة في الجاهلية ، ففي(المجتمع الجاهلي لم يكن بمقدور الفرد تصور نفسه خارج القبيلة ، فهو إذا عجز عن الانتساب إلى قبيلة ، وعن ذكر أسماء آبائه وأجداده كان موضع الاحتقار الشامل) [١]. وهي تعني تكويناً اجتماعياً يضم أسراً تنحدر من أصل واحد « ولها نسب مشترك يتصل بأب واحد هو أبعد الآباء والجد الأكبر للقبيلة » ولما كانت الرابطة العرقية هى الأساس الذي يجمع بين أفراد القبيلة الواحدة ، تأسس النظام القبلي انطلاقا من علاقة انتماء الفرد العربي إلى امتداده العرقى مهما علا ، وعليه فالانتماء القبلي هو تطور طبعى للانتماء العرقى ، غير أن أبرز التطورات التى لحقت بالانتماء العرقى داخل القبيلة ، فحولته إلى انتماء قبلى ، أن مفهوم القبيلة زاد على رابطة الدم رابطة الوطن فقد كان لكل قبيلةحماها ، وهى أرض تعيش عليها ، وتنزل بها، وتعتبرها ملكاً لها ، تنتشر بها بطونها وعشائرها، ولا تسمح لغريب بالنزول فيها ، أو المرور بها إلا بموافقتها ورضاها ، وقد اختص كل بطن منها بناحيته ، فانفرد بها واعتبرها أرضاً خاصة به [٢]» كما أن العربى عرف داخل القبيلة نظام الحكومة الذى يسوس الناس ويصدر القرارات ، وأضحت القبيلة« هي الحكومة الوحيدة التي يفقهها الأعرابي ، حيث لا يشاهد حكومة أخرى فوقها ، وما تقرره حكومته هذه من قرارات يطاع وينفذ ، وبها يستطيع أنْ يأخذ حقه من المعتدي عليه[٣]» ومن هنا فإن انتماء الفرد داخل القبيلة محا الفردية وتلاشى الفاصل بينما هو ذاتى ، وما هو جماعى ، وأصبح للارتباط القبلى قدسيته في نفس العربي [٤] . فما يحرزه الفرد من سبق منسوب لقبيلته أولاً ، كما أن القبيلة قد تحارب

(١) الوعي الجماعي عند العرب قبل الاسلام- د / فؤاد المرعي ، دار الأبجدية، دمشق، ١٩٨٩م ، ص٣٧

(٢) المفصل فى تاريخ العرب ، جواد على ، مصدر سابق ،ج٤ ص٣٤٣

المصدر السابق ، ج٤ ص٣١٤

المصدر السابق ، ج٤ ص ٣٩٣بتصرف

(٣) شرح ديوان الحماسة المرزوقي، مصدر سابق ، ج ١ص ٣٣٧

(٤) المفصل فى تاريخ العرب ، جواد على ، مصدر سابق ، ج٤ ص٣٦٧

بأكملها دفاعاً عن هذا الفرد أصلاً ، وهذا الاندماج بين الفرد والقبيلة ، قد أثر فى جمع شمل القبيلة ، وحافظ لها على وحدتها وتماسك كيانها . والمتصفح لمفردات القصيدة الجاهلية ، يكتشف هذا التوجه القبلى كثيرا ، وهذه أمثلة للتدليل والاسترشاد ؛ قال دريد بن الصمة [١]:

وهل أنا إلا من غَزِيَّة إن غوتْ غويتُ وإن تَرشُد غزية أرشد

فهو ارتباط الجزء بالكل ؛ وذوبان الفرد في المجتمع ، فهو يتحرك بحركتها ويخلد بسكونها ، فإن الفرد يدعو « إلى نصرة عصبته والتآلب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين ، وليس له أنْ يتساءل : أهو ظالم أم مظلوم » [٥] ومعاوية بن مالك العامري يعتز بأمجاد قبيلته يقول [٦]:

إنّي امرؤ منْ عُصبةٍ مشْهُورةٍ حُشُدٍ لَهُمْ مَجْدٌ أَشَمُّ تَليدُ

ألْفَــوا أبــاهُمْ سَيّداً وأعانَــهُمْ كَرَمٌ وأعمامٌ لَهُمْ وَجُدودُ

فهم فى مجموعهم عصبة لا يستهان بها ، ورثت مجدا ، أكسبها حسن السمعة ، وعلو الصيت ، وهم على مستوى الأفراد توارثوا السيادة والسؤدد.

ومن مظاهر الانتماء القبلى التآزر والتناصر في مواجهة الأخطار، فنصرة بعضهم بعضاً مفخرة يُعتز بها ، من ذلك أن بني سُليم أرادوا أن يغزو بني لحيان من هذيل ، فلما علمت بنو سهم وهم من هذيل كذلك ، جمع معقل بن خويلد السهمي لبني لحيان ألف رجل من بني سهم ، وكانت بنو سهم قد وادعت بنى سليم ، فقالت بنو سليم لمعقل: أتريد أن تنصر بني لحيان علينا، وبيننا وبينكم ما قد علمتم ؟ فقال لهم معقل: وهل يُسلم القومُ بني عمّهم؟ إنْ تقصِروا عنهم فنحن على ماكُنا عليــه ، وإن تقاتِلوهم لا نخذلهم ، فانصرف القوم عنهم ، وقال في ذلك معقل [٢]:

تقول سليمٌ سالمونا وحاربوا هذيلاً ولم تطمعْ ذلك مطمعــا

فأمّا بنو لحيانَ فاعلمْ بأنّهُمْ بنوعَمّنا من يَرْمِهِمْ يَرْمِنا معــا

بنوعَمّنا جاءوا فَحلّوا جنابنا فمنْ ساءَه فسيء أنْ نتجمعــا

---

(١) أشعار العامريين الجاهليين ،مصدر سابق . ص٥٥

(٢) -شرح أشعار الهذليين : ، السكّري ، حققه عبد الستار أحمد فراج، مكتبة دار العروبة، القاهرة/٣٧٥-٣٧٦.

وأقرع: تامّ. يقوم: إذا أمددتهم بألف، فذلك خذلان مني حتى أزيد. والأجرع: الرمل. يريد: يتركه ضائعا.

وإنّ خُذُوليهم على أنْ أمِدَّهُمْ بألفٍ إذا ما حاولوا النصرَ أقْرعَا

أخـــوا ومَنْ أخاهُ مُحَارِباً يـــذَرْهُ لمرِّ الحادثاتِ بِأَجْرَعَـــا

وأنيف النبهاني الطائي يصدح بانتمائه لطيء فى مواجهة أعدائه الذين انتسبوا لنزار [١]

دَعَوْا لِنِزارٍ وانْتمينا لِطَيِّئٍ كأُسْدِ الشَّرَى إقْدَامُها وَنِزَالُها

وهوانتماء يكسبه المنعة، ويوقع فى قلوبهم الرهبة ، وكأنه يحتمى فى ظلال قبيلته .

أما جابر بن حُني التغلبي ، فيعير طريف بن تميم العنبريّ بأنهم انتسبوا لأبيهم ، فلم يصمدوا ، ولم يقدروا هذا الانتساب ،فرجعوا يحملون العار والشنار[٢]:

ولَقيتَ حَيّاً في الحروب مَحَلّهُمْ والجَيْشُ باسْمِ أَبيهِمُ يُسْتَهْزَمُ

فَإذا دَعَوا بِأَبي رَبيعَةَ أَقبَلـــوا بِكَتائِبٍ دونَ النِساءِ تَلَمَّموا

سَلَبوكَ دِرعَكَ وَالأَغَرَّ كِلَيهِما وَبَنو أُسَيِّدَ أَسلَموكَ وَخَضَّمُ

فقوة القبيلة عز لأبنائها ، وضعفها عار يلاحقهم ، ومن هنا فقد افتخروا بقوة قبائلهم لأن فيها منعتهم وعزهم ، فدريد بن الصمة وقد أوعده بنو عامر أن يأخذوا إبله يشكك فى قدرتهم على ذلك لأنه بين قومه وهم أصحاب منعة وقوة [٣]:

أَوْعَدْتُمُ إبلي كَلاًّ سيمنَعُها بَنُو غَزِيَّةَ لا مِيلٌ ولا عُورُ

وبشربن أبي خازم ، يحتمى بقومه من بنى أسد ، حين توعده أوس بن حارثة الطائي[٤]:

---

(١)–شرح ديوان الحماسة المرزوقي ، مصدر سابق ، ج ١ص١٧١و أنيف بن حكيم الطائي النبهاني. شاعر إسلامي، من الشعراء المغمورين، اختلف في اسم أبيه كثيراً، فهو حكم مرة، وحكيم أخرى عند المرزوقي، وهو زيان عند ابن حني.له شعر مطبوع في قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب.

(٢)– جابر بن حني بن حارثة بن عمرو، من بني تغلب. ؟ – ٦٠ ق. هـ / ؟ – ٥٦٤ كان شاعراً نصرانياً مقدما وهو من أهل اليمن، طاف أنحاء نجد وبادية العراق، وأشار في بعض شعره إلى منازلها.وصحب امرأ القيس حين خرج إلى القسطنطينية مستنجداً بقيصر

(٣) – الأصمعيات ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر١٩٦٤م، ص١١٦

(٤) الأفوَه الأودِيّ؟ – ٥٤ ق. هـ / ؟ – ٥٧٠ م صَلاءة بن عمرو بن مالك، أبو ربيعة، من بني أود، من مذحج.

أتُوعِدُني بِقومِكَ يا بْنَ سُعْدى وَذَلكَ مِن مُلِمّاتِ الخُطُوبِ

وحولي مِنْ بَني أَسَدٍ حُلولٌ مُبِنٌّ بَيْنَ شُبانٍ وشِيبِ

وحاتم الطائي فى قبيلته فى منعة ، فهو لا يعطي الملوك ظلامه- وأحرِ به ألاّ يعطي غيرهم، كيف لا ؟ وعدى حوله بقضها وقضيضها ، وهى تقوم على أمر جميع أبنائها لاتفرق بينهم ، يقول [١]:

وأَقْسَمْتُ لا أُعْطِي مَليكاً ظُلامَةً وَحَوْلِي عَدِيٌّ: كَهْلُها وغريرُها

أَبَتْ لِيَ ذا كَمْ أُسْرَةٌ ثُعَلِيَّةٌ كَريمٌ غناها، مُسْتَعِفٌّ فَقيرُها

والأفوه الأودي واثق من نصرة قومه له ، وأن عَشيرته لن تخذله ، بل ستخفّ لنجدته لو دعاها، يقول[٢]:

وَسَعْدٌ لَو دَعوْتَهُمُ لَثَابُوا إليّ حَفَيفَ غابٍ نَوىً بِأُسْدِ

وهم يتواصون بالدفاع عن العشيرة ، ويمدحون من يخف إلى نجدة عصبته ، فيعينهم ويشاركهم تحمّل المسؤوليات. فلا جانى ولامتسبب ، ولايسأل من أشعلها لما أشعلتها ، لكن على الجميع أن يخفوا للظاها، يقول سويد المراثد الحارثى [٣]:

أَشَارتْ لَهُ الحربُ العَوَانُ فَجَاءَها يُقَعْقِعُ في الأَقْرابِ أوّلَ مَنْ أتَى

ولَمْ يَجْنِها لكنْ جَنَاها وَلِيّهُ فَآدَى وآسَاهُ ، فكانَ كمنْ جَنَى

فيفزعون إلى النجدة دون تراخ ، حالهم حال صاحبها ، ومشعل فتيلها .

وعبد هند بن زيد التغلبي يحمل نفسه مسؤولية الدفاع عن قبيلته حتى آخر رمق ، ولذا ستكون

شاعر يماني جاهلي، لقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الأسنان.كان سيد قومه وقائدهم في حروبهم وهو أحد الحكماء والشعراء في عصره ، ديوان الأفوه الأودي: الطرائف الأدبية، صححه وخرّجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيّله عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١١.

(١) ديوان شعر حاتم ، مصدر سابق ، ص٢٣٤.

(٢) شرح أشعار الهذليين ٢، مصدر سابق ، /٧٠٥-٧٠٦. والأقراب: الخواصر. وإنما أراد قعقعة السلاح. وآدى: أعان.

(٣) الطائي ، علّق عليه وحققه عبد العزيز الميمني، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٧م ص١٩

فجيعتهم فيه إن مات كبيرة ، فمن يحمي زمارهم بعده ؟. يقول [١]:

ألا لَيْتَ شعري مِنْ بَني الجَوْنِ مَالِكٍ إذا متُّ مَنْ يَحْمِي ذِمارَهُمُ بَعْدي

سَأَحْمِيْهُمُ ما دُمت حَيّاً وإنْ أَمُـــتْ يَقُومُوا على قَبْرِ امرئٍ فاجِعِ الفَقْدِ

ومن مظاهرالتناصر أن البطون والأفخاذ تدفع عن أصولها القبلية الكبرى ، وتتحمـــل أعبـــاء الدفاع عن القبيلة كلّها إن اقتضى الموقف ، وبذلك فخر عمرو بن شأس الأسدي برهطه بني سعد بن ثعلبة حين دافعوا عن قبيلتهم أسد ، يقول [٢] :

بني أسَدٍ هل تعلونَ بلاءَنـــا إذا كان يومٌ ذا كواكبَ أشنعا

إذا كانتِ الحُوُّ الطِوالُ كأنّما كساها السّلاحُ الأُرجُوانَ المُصَلّعا

نَذُودُ الملوكَ عنكمُ وتَذُودُنـــا إلىالموتِ حتى تَضبَعُوا ثم نَضبَعَا

وَغَسّانَ حَتّى أسلمتْ سَرواتُنا عَدِيّاً وكانَ الموتُ في حيثُ أوْقَعا

وكائـــن رَدَدْنا عنكمُ منْ مُتوَّجٍ يجيءُ أمام الألـــفِ يَرْدي مقَنعَا

ضرَبْنا يديهِ بالسُيوفِ ورأسَهُ غَدَاةَ الوغَى في النَّقْعِ حتى تكنّعَا

وكان الشعراء ينصرون قائلهم بسيوفهم وألسنتهم ، ومن ذلك قول بشامة بن الغدير مفتخراً بأنه غضب لِنَسْلَي مضر: خندف وقيس [٣] :

---

(١) عبد هند بن زيد التغلبي ، من ثعلبة غطفان. شاعر جاهلي من ذبيان روى له أبو تمام في الحماسة الصغرى (الوحشيات) شعراً، وقـــد ورد اسمه فيها مصحفاً بـــ (التغلبي) وكذلك نقله صاحب الأعلام والصحيح هو التعلبي.- الوحشيات ، أبو تمام.

(٢) شعر عمرو بن شأس ص٣٦-٣٨. ويوم ذو كواكب: إذا وصف بالشدة، كأنه أظلم بما فيه من الشدائد حتى رئيت كواكب الـــسماء. والحوّ الطوال: الخيل السود. وتضبعوا: من الضبع، وهو العضد. يريد تمدّون أضباعكم إلينا للحرب أو للصلح فنمد أضباعنا إلـــيكم. وعديّ: هو ابن أخي الحارث بن أبي شمر الغسانيّ. ويردي: يمشي الرديان. وهو ضرب من المشي، فيه تبختر. وتكنـــع: خـــضع ولان. وانظر مثل ذلك فيه ص٣٠-٣١، وعند المرزباني، معجم الشعراء، ، مصدر سابق ، ص٢٧٥.

(٣) شرح ديوان الحماسة ٣٩٣/١-٣٩٤. وقال خذالها ولم يقل نصارها لأنه وصفهم بما آل إليه أمرهم. ولديّ في أمثالها أمثالها: يريد لـــديّ في أمثال هذه النصرة أمثال هذه القصيدة. وأسم القصائد: أغلمها بما يصير كالسّمة عليها، حتى لا تنسب إلى غيري. وشرها أغفالهـــا: يريد شر القصائد مالا ميسم لقائله. بشامة بن الغدير العُذري أبو بشامة بن عمرو بن معاوية بن الغدير بن هلال المـــري. ؟ - ١٤ ق. هـــ / ؟ - ٦٠٨ م من شعراء المفضليات أورد الخطيب التبريزي نسبته هذين الوجهين، والأول عن أبي عكرمة.وسماه الجمحي بـــشامة ابن الغدير المري. وعده من الإسلاميين، مع أن المشهور كما في السمط أنه خال زهير أو أبي زهير وفيه النص على أنه جاهلي (فـــشلي) وكان كثير المال حتى فقأ عين بعير ومن عادتهم إذا ملك الرجل ألف بعير فقأ عين فحلها.

وَلَقَدْ غَضِبْتُ لِخِنْدِفٍ وَلِقَيْسِهَا لَمّاوَنَى عَنْ نَصْرِها خُذْالُها

دَافَعْتُ عَنْ أَعْراضِها فَمَنَعْتُها ولَدَيَّ في أمثالِهـــا أمثالُها

إنّي امرؤٌ أسِمُ القصائدَ للعِدَى إنّ القَصَائِدَ شَرُّها أَغْفَالُها

أما بشربن أبي خازم فيظهر شدّة إحساسه بالمسؤولية تجاه نصرة قبيلته ، ويخشى أن تأتيه منيتـــه قبل أن يشفي غليله من أعدائها يصور هذا الإحساس في قوله[1]

فَعَزّ عَليّ أنْ عَجِلَ المنايا ولما ألقْ كعباً أو كِلاَبـــــا

ولما ألْقَ خَيْلاً من نُمَيـــرٍ تَضبُّ لثَاتَها تَرْجو النّهَابـــا

ولّما تلتبسْ خيلٌ بِخَيْـــلٍ فَيَطْعَنُوا ويَطرِبُوا اضْطرابَا

ومن مظاهر التناصر أن يتغاضى الجاهلي عن خلافاته مع أبناء قبيلته ، فإذا لم يحدث التدارك ، ووقع المحظور، وأدرك المتورط ؛ بعد فوات الأوان أنه إن كان قد شفى غل قلبه إلا أنه قـــد قطـــع عضده وساعده ، يقول قيس بن زهير[2]:

قتلتُ بإخوتي ساداتِ قوْمي وهُمْ كانوا الأمانَ على الزمان

فإنْ أكُ قد شَفَيْتُ بذاك قلبي فـــلـــم أقـــطعْ بهمْ إلاّ بنـــاني

ولعمق معنى التناصر في نفوسهم كان وقع خذلان أبناء القبيلة بعضهم لبعض أمر معيب شائن ؛ ولذا نرى طرفة قد استاء من قومه حين أسلموه لعمرو بن هند ، بدل أن يخفوا لنصرته ، يقول [3]:

أَسْلَمَني قومي وَلَمْ يَغْضَبُوا لِسَوْءَةٍ حَلّتْ بِهِمْ فادِحَهْ

فهو يراها حماقة ارتكبها قومه ، تورث العار ، وتعرى سوءة القبيلة .

---

(١) ديوان بشر، مصدر سابق ، ص٢٨-٢٩. وتضب لثاتها: وصف للخيل لشدة شهوقها للقاء، وهو يريد أصحابها.

(٢) قيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسي. ؟ - ١٠ هـــ / ؟ - ٦٣١ م ، كان فارساً شاعراً داهية يضرب به المثل (فيقال: أدهى من قيس) وهو أمير عبس وأحد السادة القادة في عرب العراق كان يلقب بقـــيس الـــرأي لجودة رأيه وله شعر جيد فحل زهد في أواخر عمره فرحل إلى عُمان وما زال إلى أن مات فيها.

معجم الشعراء ، مصدر سابق ، ص١٩٨. وانظر شرح ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، ٢٠٣/١.

(٣) ديوان طرفة ، مصدر سابق ، - ص١١٨.

كما كانت نفس الجاهلي تفيض بالأسى إن ظلمه أبناء عشيرته، لأن الظلم حين يقع من القريب يكن وقعه أشد وألمه أفدح ،وفي ذلك يقول طرفة [١]:

وظُلْمُ ذَوي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً على المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهَنْدِ

.فمن الرتجى للدفاع عنى ، إذا وقع الظلممن هو منوط به دفعه .

وتحكم قريط بن أنيف العنبري ، حين استباح بنو ذهل بن شيبان إبله ، فلم يخف قومه لنصرته ، فراح يبكتهم موازنا بين جبنهم واستسلامهم ، وبين عصبية وإقدام بني مازن، يقول تبكيتـا لهـم وتقريعا[٢]:

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبِح إبلـي بنواللقيطة من ذُهل بن شيبانـا

إذاً لقام بنصري معشرٌ خُشُـنٌ عند الحفيظة أنْ ذو لوثةٍ لانـا

قومٌ إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهـمْ لم يرهبوه زرافاتٍ ووحدانـا

لايسألون أخاهُم حين يندبُهـمْ في النائبات علَى ماقال بُرهانـا

لكن قومي وإن كانوا ذوي عـددٍ ليسوا من الشرِّ في شيء وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرةً ومن إساءة أهل السوء إحسانـا

كأن ربَّكَ لم يخلق لخشيتـه سواهمُ من جميع الناسِ إنسانـا

وعلى الرغم من أنهم أبناء عمومة ؛ فشتان بين الجبان الذى لا يذب عن حماه ، وبين الشجاع الذى يقتحم الأهوال دفاعا عن ذويه ومحارمه ، فليته كان من الفرع الثانى ولم ينتـسب إلى فـرع الجبناء ، ساعتها كان يجد من يقف معه منافحا عن إبله وربما لم يعترض طريق إبله أحد لأنهم يعلمون أنه من فصيل لايرضى بالظلم أو يقبل الضيم .

ومن مظاهر الانتماء القبلى أنهم يحملون هم القبيلة ، ويتخوفون من أن يصيب القبيلة ، ما يفت فى عضدها ، وينال من وحدتها ، ويتناصحون بما يحفظ وحدتها ، ويبقى هيبتها ومن ذلك التخـوف

(١) –ديوان طرفة، مصدر سابق ، ص٤٠.

(٢) –شرح ديوان الحماسة ١ ، مصدر سابق ، /٢٣-٣١. ولوثة: شدّة. وزرافات: جماعات. ووحدانا: جمع واحد.

قول قيس بن الخطيم مخاطبا ابنته [١]:

فَقُلْتُ لها: قَوْمي أخافُ عَلَيْهِـــمُ تَبَاغِيَهُمْ، لأيْهِكُمْ ما أحاذِرُ

فلا أَعْرِفَنْكُمْ بَعــْدَ عِــزٍّ وثَرْوةٍ يُقالُ: ألا تِلْكَ النّبيتُ عَسَاكرُ

فلا تَجْعَلُوا حَرْباتِكُمْ ي نُحورِكُمْ كما شَدَّ ألواحَ الرّتاجِ المَسَامِرِ

إنه يخشى عليهم من التناحرفيما بينهم فالفعل الطائش يفرّق جماعتهم ، ويضعف قواهم ، بما يحـول عـزهم وثراءهم إلى فقر وذل ، فهم يوجهون الطعنات إلى أنفسم وهى للأسف طعانات نافذة قاتلة .

والأعشى يتوجه لأبناء عمومته بألا يشعلوا فتيل المعارك فيما بينهم ، قائلا [٢]:

بَني عَمِّنا لا تَبعَثوا الحَربَ بَيــــنَنا كَرَدِّ رَجيعِ الرَفضِ وَارِموا إلى السلمِ

وَكونوا كَما كُنّا نَكونُ وَحافِظوا عَلَينا كَما كُنّا نُحافِظُ عَن رُهــــمِ

نِساءِ مَوالينا البَواكي وَأنتــــمُ مَدَدتُم بِأيدينا حِــلافَ بَني غَــــنمِ

فَلا تَكسِروا أَرماحَهُم في صدورِكُم فَتَغشِمَكُم إنّ الرِماحَ منَ الغَشــــمِ

فهو ينصحهم باختيار طريق السلم بديلا عن إشعال فتيل الحروب ، وأن يحافظ كل جانب على الجانب الأخر، وألا يوجهوا رماحهم إلى صدور بعضهم البعض ، حفاظا على شمل القبيلة ورعايـة لمصالحها ، لعله يوقف دموع الثكالى والأرامل .

ومن مظاهر الانتماء القبلى ؛ التكافل في مواجهة مصاعب الحياة ، فقد حظي المحتاجون برعاية الأغنياء ؛ وكفالتهم رعاية لحقوق القبيلة ؛ و لايجدالمحتاج غضاضة فى مساعدتهم له ، بل يفخربذلك ؛ إذا أعانه قومه على مواجهة المصاعب الجليلة ، وتحمل الأعباء العظيمة ، يقول معاوية بن مالـك العامري مفتخراً بفضل عطاء قومه له[٣]:

وكنتُ إذا العظَيمةُ أَفْظَعَتْهُمْ نَهَضْتُ ولا أدبُّ لها دِبَابا

---

(١) –ديوان قيس ، مصدر سابق ، ص٢٠٨–٢٠٩. وبيهكم: يفسد أمركم. والرتاج: الباب. والمسامر: المسامير، أراد: وكونوا كما شدّ ألواح الرتاج المسامير، فحذف وقدّر.

(٢) –شرح ديوان الأعشى ، مصدر سابق ، ص٣٤٤.

(٣) –أشعار العامريين الجاهليين ، مصدر سابق ، ص٥٤.

بحمدِ الله، ثُمَّ عطـــاءِ قَوْمٍ يَفُكـــــونَ الغَنَائِمَ والرِّقَابا

وتمتد مظلة التكافل إلى أن تعم الأهل والجار، وإلاّ تعرّض أفراد القبيلة للذم ، ومن ذلك قول الأعشى يذم رجلاً[١]:

أَتَرُمُ للأكْفاءِ ما أنتَ أَهْلُهُ وتَخْتَالُ إذ جَارُ ابْنِ عَمِّكَ مُرْهَقُ

لا ترفع عقيرتك مفتخرا ، أو تدل على غيرك ، فلو كان فيك خير لمددت يد المعونة لابن عمك ، إذلوأنك كفلته لامتد مظلة كفالته إلى هذا الجار، القحط قد عم ، فلو كان ابن عمه فى سعة ما لحق الجار ضيق وعوز ، ، ومن هنا فلا مجال لاحتقارغيره أولدله وتكبر على سواه.

وقد يتصدى بعض أبناء القبيلة للقيام بأعباء المعاش التى تهم القبيلة كلها فبنو أسد بن خزيمة قـــاموا بأعبـــاء امتلاك المراعي، نيابة عن كنانة بن خزيمة كلها ، وبذلك فخر بشر بن أبي خازم الأسدي [٢]:

فَأَبْلِغْ إنْ عَرَضْتَ بِهِمْ رَسُولاً كِنَانَةَ قَوْمَنَا في حَيْثُ صارُوا

كَفَيْنا مَنْ تَغَيَّبَ واسْتَبَحْنـــــا سَنامَ الأرضِ إذْ قَحطَ القِطَارُ

ومن مظاهر الانتماء القبلى الحرص على الأمجاد المتوارثة ، وهي قيم يفخرون بها ، ويحرصـــون على انتقالها من جيل إلى آخر، فيرون أنه لا(بد أنْ توَرّث الناشئة تراث القبيلة وروحها ، فتورثهم أيامها ومعارفها وأخلاقها وتقاليدها وعلومها وفنونها سواء كان ذلك التوريث عن طريق التقليد أو التعليم أو التلقين)[٣] لأنهم يريدون لهذا المد القبلى أن يتواصل بزخمه القيمى ، ليتحقـــق تواصـــل الأجيال ، فتراث الأباء والأجداد يشعرون فى ظلاله بآصالتهم ، فهو عنوان الانتماء .

فعمروبن كلثوم يفخر بأن الأمجاد فيهم ميراث، يدافعون عنه لأنه مجدهم [٤]:

ورِثْنا المْجدَ قدْ عَلِمَتْ مَعَدّ نُطاعِنُ دُونَهُ حتّى يَبِيْنَا

---

(١) –شرح ديوان الأعشى ، مصدر سابق ، ص٢٣٥.

(٢) ديوان بشر ، مصدر سابق ، ص٧٣. والرسول: بمعنى الرسالة هاهنا. وسنام الأرض: أرفع بلاد نجد. والقطار: جمع قطرة. يريد الموطر.

(٣) قصة الحضارة، مرجع سابق ، ٧/١.

(٤) ديوان عمرو بن كلثوم ، مصدر سابق ، ص٨٤.

وبنو أسد توارثوا عن أبائهم القوة والنجابة الموصلة إلى الأمجاد ، فهم كالجبال الشم حصنا يأوي إليهم المستجير والضعيف ، وهم لازالوا على عهد الأباء ، لايغدرون ذمة ، ولاينكثون عهدا ، يقول بشر بن أبي خازم الأسدي[١]:

شَوازباً كالقَنَا قُوداً أَضَرُّها شُمُّ العرانينِ أبْطالٌ هُمُ خَلَفُوا

آباهُمُ ثُمّ ما زالوا على مُثُلٍ لا يَنْكُلُونَ،ولا هُمُ في الوغَى كُشُفُ

وفخر الأعشى بأنه من قبيلة بنى أمجادها أمواتها وأحياؤها، وذلك في قوله مخاطبا شيبان بن شهاب الجحدريّ[٢]:

أبا مِسْمَعٍ إنّي امْرؤٌ مِنْ قبيلَةٍ بَنَى لِيَ مَجْداً موتُها وحَيَاتُها

وهكذا كانت عصبيتهم لقبائلهم كبيرة ، وكانت فى معظمها عصبية إيجابية؛ فارتباط الفرد بالقبيلة لازم من لوازم الحياة ؛ لأن ذلك يعني لهم الارتباط بالحياة ، ولا شيء أقدس عندهم من الدفاع عنها ، لأن فيه إعلاء لكرامة الأفراد جميعاً... وبلغ أثر ذلك في نفوسهم أن صار من لوازمها أن استقرت أعراف العرب فى الجاهلية فكان الوفاء بالعهد ، وإقراء الضيف ، وإغاثة الملهوف... والتحلى بالشجاعة والاعتداد بالذاتّ يعلى من قدرالعفاف ، ويحسن المعاشرة والجوار، فحريته من حرية قبيلته ، يثور لأجلها ،ويحافظ على هيبتها وكرامتها .

ثالثا :الانتماء المكاني : ــ

قيل لأعرابي : أتشتاق إلى وطنك ؟ قال : كيف لا أشتاق إلى رملة كنت جنين آكامها وحبة من ركامها ، وقال الجاحظ في رسالة الحنين إلىالأوطان : "وكانت العرب إذا غزت وسافرت حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه عند نزلة أوزكام أو صداع" ، "وقيل لأعرابي: كيف تصنع في البادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظله ؟ قال : وهل العيش إلا ذاك؟![٣].

تلك تقدمة فى صدر حديثى أردت أن أبرز من خلالها ، مدى تعلق العربي بأرضه ، وقدر انتمائه

---

(١) ديوان بشر . مصدر سابق ، ص ١٤١. وشوازب:الطوال النجباء.وينكلون : ينكصون

(٢) شرح ديوان الأعشى ، مصدر سابق ، ص٧٩.

(٣) رسائل الجاحظ ، تحقيق :عبد السلام هارون ، ــ مكتبة الخانجي ــ القاهرة ــ... من رسالة الحنين إلى الوطن ، ص٢٨٧ . ،ص٢٨٨

لمكانه ووطنه، فكما أنه انتسب إلى آبائه وفاخر بالانتساب إليهم انتسب إلى مكانه وفاخربنسبته إليه ، وغدا الانتساب إلى المكان ، باعثا على الفخار، خاصة ؛ إذا ما ارتبط المكان بأمجاد قاطنيه .

ومن مظاهر الانتماء إلى المكان الانتساب إليه بوصفه وسيلة من وسائل التعريف فهذا تهامى ، وذاك نجدى ، وأنا حضرمى..الخ ، وعزيت بعض القبائل إلى المكان الذي نزلت فيه ، فسميت باسمه ، فالأزديون هم بنو عمرو بن عامر ، والغساسنة نسبة إلى ماء غسان [١]، ومثل ذلك نسبة بعض القبائل إلى المَزُون ، وهي مدينة عُمَان [٢] ، وإلى بارق ، وهو جبل بالشراة [٣] ، وإلى نجد [٤] ...الخ

وقد حملت لنا القصيدة العربية فى الجاهلية صورا لهذا الانتساب إلى المكان نذكر منها، قول بجير بن عبد الله القشيرى [٥]:

ذريني أصطبح يا بكر إني رأيت الموت نقب عن هشام

تخيره ولم تعدل ســـــواه ونعم المرء من رجل تهامى

فالموت قد تخير هشام بن المغيرة بعد تنقيب وبحث عن الأخيار، فلم يجد خيرا مـــن هـــذا الرجل التهامى ، نسبة إلى تهامة ، والنسبة لتهامة تتكرر، فى قول ابن الأحمر [٦]:

وكُنَّا وهُمْ كابْنَي سُبات تَفَرَّقا سِوىً ثم كانَا مُنْجِداً وتِهاميا

فأَلقى التِهامي مِنهُما بِلَطانِهِ وأَحْلَطَ هذا لا أَرِيمُ مَكانِيا

(١) انظر معجم البلدان ، ياقوت الحموي،طبع دار إحياء التراث العربي بيروت.بيروت١٩٧٧م ،: (غسان).

(٢) انظر شرح ديوان كعب ، مصدر سابق ، ص٣٣.

(٣) انظر معجم البلدان: ، مصدر سابق ، (بارق).

(٤) انظر المصدر السابق :(صحار).

(٥) (بجير بن عبد الله بن سلمة بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة قتله قنعب بن عتاب اليربوعي يوم المروت وهو يوم لبني العَنبر بن عمرو بن تميم علي بنى قشير ، وهشام المرد هو : هشام بن المغيرة، كان ســـيِّداً مطعاماً. قال أبو حاتم: عن أبي عبيدة قال:لّما هلك هشام بن المغيرة نادى منادٍ بمكّة: اشهدوا جنازةَ ربِّكم. نقّب، أي تخلّلَ وتفحّص ، والمروت: موضع من بلاد بنى قشير ــ أشعار العامريين الجاهليين ، مصدر سابق ص٧٤

(٦) عمرو بن أحمر الباهلي ؟ - ٧٥ هـــ / ؟ - ٦٩٤ م شاعر جاهلي مخضرم، ولد ونشأ في نجد ، أدرك الإسلام وأسلم وشـــارك في الفتوحات ويروى أنه شارك في الفتوحات مع خالد بن الوليد وكذلك في مغازي الـــروم .واختلـــف في تـــاريخ وفاتـــه والأرجح أنها ،سنة ٧٥ هـــ ، الأغانى ، مصدر سابق ، ج٨ص٢٤١، والبيتان فى اللسان ، مادة حلط ، أَحْلَـــطَ الرجـــل في اليمين ، إذا اجتهد ، لَطانُهُ: ثِقْلُهُ والسُباتُ: الدهر،الاختلاطُ: الغضبُ والضجرُ.

يقول: قد صارا على طرفي نقيض ، ومن كانت هذه حالتهما فلا يجتمعانِ أبداً.

وقول لبيد [١]:

كعَقْرِ الهاجريِّ إذا بَناهُ بأشباهٍ حُذينَ على مِثالِ

ولبيد يشبه فى الأول، فرسه بجذع الهاجرى ، ويشبه فى الثانى ناقته بقصر الهـاجرى نـسبة إلى هجر، وهكذا انتمى العربى إلى مكانه وانتسب إليه ، وارتباط العرب بالأرض التي يعيشون عليها تابع لطبيعة المكان ، وما يسهله من وسائل العيش ، فمظاهر الانتماء إلى المكان عند سكان البوادي يختلف عن غيرهم ، فهؤلاء اشتهروا بكثرة النقلة والترحال ، طلبا للمرعى وبحثا عن الماء والكلأ ، وكانوا لا يجدون غضاضة فى ذلك ، فيستوطنون هذه الأماكن ما دامت الإقامة ممكنة ، فإن تعذرت الإقامـة ، تركوا المكان وحملوا ذكرياته ، فإن عادوا إليه ، عاودهم الحنين فبكوا أطلاله ، وتلك هي حياة البداة الجاهليين .

فبنو ضبيعة ، قد تفرقوا بين مُقيمٍ وظاعنٍ ، يقول المتلمس الضبعي: [٢]

تَفَرَّقَ أَهْلي مِنْ مُقيمٍ وظَاعنٍ فَلِلّهِ دَرِّي أيَّ أَهْلَى أَتْبَعُ

أقـام الذين لا أبالي فراقهم وشط الذين بينهم أتوقع

فأهله قد تفرقوا ، فرحل الذين يعاش فى أكنافهم ، وبقى من لا يبالى بفراقهم ، فعظمت مصيبته

وعند ارتحال الأفراد والإقامة في غير موطنهم ، تعظم قيمة الوطن ، ويعلو قدر الانتماء ، ينقل لنـا الأعشى تجربته فى هذا المقام وقد ارتحل كثيراً، وتعدّدت أماكن إقامته ، يصور حـال الغريـب المفتقـد لوطنه ، المقيم بعيدا عنهم ، حيث يفتقد رعاية الأهل وحمايتهم ، فى مواجهة تجهم الغرباء وحيفهم [٣]:

---

(١) الشعر والشعراء ، مصدر سابق ، ج١ ص ١٩١ والعَقْرُ، بالفتح: القَصْرُ، وكلُّ بناءٍ مرتفع.

(٢) المتلمس الضبعي؟ - ٤٣ ق. هـ / ؟ - ٥٨٠ جرير بن عبد العزى، أو عبد المسيح، من بني ضُبيعة، من ربيعة.اعر.

(٣) جاهلي، من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد.كان ينادم عمرو بن هند ملك العراق، ثم هجاه فأراد عمرو قتله ففرَّ إلى الشام ولحق بآل جفنة، ومات ببصرى، من أعمال حوران في سورية.. ـــ الأغانى ـــ مـصدر سـابق ـــ ج٢٤ص ٢١٦ – والبيتان فى ديوان شعر المتلمس ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، مطابع الشركة المصرية للطباعـة والنشر ١٩٧٠م ر. ص ١٥٤

(٣) شرح ديوان الأعشى، مصدر سابق ، ص ٤٠. ومحراً ومسحباً: مصدران ميميان من جَرَّ وسَحَب. وكبكب: جبل.

مَتَى يَغترِبْ عنْ قومِهِ لا يجد لَهُ عَلَى مَنْ لَهُ رَهْطٌ حَوالَيهِ مُغْضَبَا

وَيُحْطَمْ بِظُلْمٍ لا يزالُ يَرى لَهُ مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجَرّاً وَمَسْحَبَا

وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصّالحاتُ وإنْ يُسِيءْ يَكُنْ ما أساءَ النارَ في رأسِ كَبْكَبَا

وليس مُجيراً إن أَتَى الحيَّ خائفٌ ولا قائلاً إلاّ هو المُتَعيِّبَا

إنّ الاغتراب يبعث في نفس المغترب القلق والاضطراب ، ويحيي مشاعر الشوق والحنين، وإحساس المغترب بالانتماء يفسره شدّة التعلّق بالمكان الذي يَسْتَقِرّ به أولئك الأهل و آلام الغربة عَبّر عنها طرفة بن العبد ، في قوله[1]:

وليسَ امرُؤٌ أَفْنَى الشبابَ مُجاوِراً سِوى حَيِّهِ إلاّ كآخَرَ هَالِكِ

أَلاَ رُبَّ يَوْمٍ لو سَقِمْتُ لَعَادَنِي نِساءٌ كِرامٌ مِنْ حُيَيٍّ ومَالِكِ

فهويرى فى فراق أهله وموطنه الهلاك ، فمن يرافقه فى عافيته ؟ ، ومن يعوده فى سقمه ؛ فالاغترابْ موت ، ويعمق الإحساس بالاغتراب إذا دنت منية المغترب بعيداً عن أهله ووطنه؟ ، حينئذ يكون قد أضاف إلى غربته عن أهله غربته الكلية عن دنياهم ، انظر إلى قول بشر بن أبي خازم التالى [2]:

فَمَنْ يكُ سائلاً عن بَيْتِ بِشْرٍ فإنّ له بِجَنْبِ الرَّدْهِ بابَا

ثَوَى في مُلْحَدٍ لا بُدَّ مِنْهُ كَفَى بالموتِ نَأْياً واغترابَا

أما وقد أزفت الآزفة ؛ فقد استبدل البيت بالبرزخ ، وتأكد له استحالة اللقاء. والحنين إلى الوطن لا تبعثه متاعب الاغتراب ، فقد يكون المغترب معزّزاً مُكرّماً لكن ذلك لا يطفىء للشوق غلة ، ولا يبل للفراق أواما، فالأعشى مقيم بين سادة نجران، مُنَعّماً، لكن ذلك لا يمنع حدة الشوق ، أويقلل التوق ، يقول الأعشى [3]:

---

(١) ديوان طرفة ص ٨٧. ، مصدر سابق ، وحُيّ ومالك بطنان من قبيلته.

(٢) ديوان بشر، مصدر سابق ، ص ٢٦-٢٧. والردة: موضع في بلاد قيس دفن فيه بشر. وأراد بالبيت القبر، ولما جعله بيتا استجاز أن له باباً.

(٣) شرح ديوان الأعشى ، مصدر سابق ، ص ٢٢٨.

واضعاً في سَرَاة نَجْرانَ رَحْلي ناعِماً غَيْرَ أَنَّني مُشْتَاقُ

في مطايا أَرْبَابُهُنَّ عِجَـــــالٌ عَنْ ثَوَاءٍ وَهَمُّهُنَّ العِراقُ

فنفسه مشتاقة ، ليس لها همّ إلاّ الوصول إلى العراق.

وحاتم الطائي في الحيرة يتساءل ماذا فعل الزمان بأرض بلاده ؟، فيجيبه جَبَلي طيّئ كلها مشتاقة لك ، تسأل عنك[١]:

فَقُلْتُ: ألا كيفَ الزّمانُ عَلَيْكُما فقالا: بِخَيْرٍ، كلُّ أَرْضِكَ سائِلُ

فعدم توافر عامل الاستقرار عند البداة الجاهليين ، عزز إحساسهم بقيمة الـوطن ؛ وعمـق انتمـاءهم إلى المكان ، فبكوا أطلاله ، ورثوا لأثاره الدارسة ، وتغنوا بأيام كانت لهم فيه .

أما القبائل التى عَرفت الانتقال من مكان إلى آخر، ضمن منطقة مُحَدَّدة بمعالم متعارف عليها ، لها حدود معروفة ، وتضاريس مقدرة ، عاشت حالة متوسطة بين القرار بالمكـان والارتحال (أحرزت دوراً ومياها لم يكن للعرب مثلـها ، ولم تـبرح أوطانهـا ، ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها ، إلا أن ينتجع بعضها في البرحاء ، وعام الجدب ، وذلك قليل منهم) [٢] وهذا أدى إلى وجود قبائل شبه مستقرّة ، ، وقد سجلت القـصيدة الجاهليـة امتلاك غطفان منازل بمحل حجر بين قلهى والحجون ، متصلة بأطراف دومة الجندل ، حتى الحجون ، أعلاها حصون توضح معالمها ، وبينها أودية غناء برياضها ومزارعها ، يقول زهير بن أبي سلمى مخاطبا بنى تميم وقد عزموا على غزوهم [٣]:

ألا أَبْلِغْ لديكَ بني تَميـمٍ وقد يأتيكَ بالخَبَرِ الظَّنُـونُ

بأنّ بُيوتنا بِمَحَلّ حَجْـرٍ بكُلّ قَرارةٍ ، منها نكـونُ

إلى قَلَهَى تكونُ الدارُ مِنّا إلى أُكْنافِ دُومةَ فالحَجُونُ

---

(١) –ديوان شعر حاتم، مصدر سابق ، ص ٢٧٠.

(٢) و من عرفوا بالأرحاء من أهل الوبر بشير صاحب العقد أنهم كانوا أكثر من ست قبائل ، نذكر منها طـيء ، وغطفان ، وفزارة ، وبنى تميم ، وبنى أسد بن خزيمة ، العقد الفريد، مصدر سابق ج٣/٣٣٥ص.

(٣) شعر زهير، مصدر سابق ، ص١٤٩-١٥٠.

بأوديةٍ أَسَافِلُهُـــنَّ رَوضٌ وأعلاها إذا خِفْنا حُصُـــونُ

غير أن ذلك لا يعني أنهم أقاموا مجتمعات مستقرة لها صفة الديمومة ، بل كانوا بين حل وترحال ، يقول أوس بن حجر(١):

أُقِيمُ بدارِ الحَزْمِ ما دامَ حَزْمُها وَأَحْرِ إذا حالتْ بأن أَتَحَولا

ولا يعني الحل والترحال أن الوطن لم يكن يمثل لهم قيمة ، بل العكس ، فقد جعلوا من دواعي فخرهم التمسك بالإقامة في ديارهم ، وذمّوا من ارتحل عن دياره طلبا للمرعَى ، يقول الحادرة (٢):

وَنُقيمُ في دارِ الحِفاظِ بُيوتنا زَمَناً، وَيَظْعَنُ غَيْرُنا للأمرَعِ

فهم يصبرون فيها على ندرة المطر ، وشح المرعى ، يقول عمرو بن شأس(٣):

نقيم بدار الحزمِ ليس مُزيلَنا مُقَاسَاتُنا فيها الشَّصائصَ والأَزْلاَ

وكعب بن زهير، متعلق بموطنه من أرض غطفان ، لا يغادره ، ،على الرغم من بداوته ، وقسوة مناخه ، وندرة مياهه (٤):

تَقُولُ ابْنَتى أَلْهَى أبي حُبُّ أرْضِهِ وأَعْجَبَهُ إلْفُ لها وَلُزُومُهـــا

بَلَ الْهَى أباها أنهُ في عَصَـــابةٍ بِرَهْمَانَ أَمْسَى لا يُعَادُ سَقِيمُها

تَسَاقَوا بماءٍ من بلادٍ كأنَـــــهُ دِمَاءُ الأفاعي لا يُبِلُّ سَليمُهـــا

---

(١) ديوان أوس ، مصدر سابق ، ص٨٣.

(٢) الحادِرَة ؟ - ٥ هـ / ؟ - ٦٢٦ م ،قطبة بن أوس بن محصن بن جرول المازني الفزاري الغطفاني. شاعر جاهلي مخضرم مقل، يلقب بالحادرة أي الضخم أو الحويدرة، جمع محمد بن العباس اليزيدي ما بقي من شعره في ديوان. ديوان شعر الحادرة تحقيـق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٧٣. والبيت المستشهد به ص ٥٣ من الديوان.

(٣) شعر عمرو بن شأس مصدر سابق ، ص٤٦. والشصائص: الشدائد .والأزل: الضيق الحبس

(٤)كعب بن زهير بن أبي سلمى، المازني، مخضرم ، هجا النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية والمسلمين فأهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم وأنشده لاميته المشهورة فعفا عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وخلع عليه بردته الأغاني مصدر سابق ، ج١٧ص٨٧ وما بعدها . شرح ديوان كعب بن زهير، صـــنعه أبي سعيد السكري، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة١٩٥٠م ، ص٢٣١-٢٣٢. ورهمـــان: وادٍ في ديـــار غطفان. لا يُعاد سقيمها: لا ينجو.

ومع هذا اجتهدوا لتهيئة المكان ؛ ليتناسب مع حاجتهم للاستقرار، فتغلبوا على ندرة المياه بحفر الآبار، كل ذلك فى محاولة للانتصار على عوائق الإقامة ، والتخلص من بعض قيود المكان التي تعوق الاستقرار، وهذا يعني أن الجاهلي تفاعل مع المكان تفاعلاً يحرره من قيود القحط ، طلبا لاســتقرار يحفظ له البقاء ، ويُيَسِّر له سبل العيش[١] .

أما القرى العربية ، كمكة ويثرب والطائف والحيرة ، وغيرها التى نعمت الاستقرار المكاني في المجتمع الجاهلي ، وكونت تجمّعات سكانيّة عرفت الإقامة الدائمة ، وأصبح من مفاخرهم غــنى موطنهم ، وتوفيره لوسائل عيشهم ، فالخنساء حمى قومها خصيب ، ورغد العيش فيــه موفــور ، فديارهم واحة غناء بأناسيهاومراعيها[٢]:

إذْ نحنُ بالأُثْمِ تَرْعَاهُ ويُعْجِبُنا جَوْنٌ خَصِيبٌ به تَسْتأنِسُ السُّرَبُ

، و كعب بن الأشرف يتغنى بجمال وطنه ، ووفرة مائه ، وظلال نخيله ، وطيب ثماره[٣]:

ولنا بئر رَوَاءُ جَمَّــــــةٌ مَنْ يَرِدْها بِإناءٍ يغتــــــــرفْ

ونخيلٌ في تلاعٍ جَمَّــــــةٍ تُخرِجُ التمرَ كأمثال الأكــــــف

وصريرٍ في محال خلتــــــهُ آخرَ الليلِ أهازيــــــــجَ بِلُــف

تُدْلِجُ الجُوْنُ على أكنافِــــها بدِلاءٍ ذاتِ أمراسٍ صُــــــدُفْ

---

(١) الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه- محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ٢٤٦/١

(٢)الخنساء « تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرياحية السُلمية من بني سُليم من قيس عيلان من مضر. » : مخضرة ، أدركت الإسلام فأسلمت ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية ، الأغانى ــ مصدر سابق ــج١٥ ص٧٢

ديوان الخنساء دار صادر ،بيروت، د . ت . ص١٧٧. وجونٌ: تريد مرعي خصيباً، يضرب لون نباته إلى السواد من شــدة الخضرة والسُرب: الجماعات من الناس والخيل والإبل تذكر خصبَ الأثْمِ ، وهو قُرَيّات ثلاث أو أربع.

(٣) كعب بن الأشرف النضري.، أحد بني نبهان الطائيين، وأمه يهودية من بني النضير، كان شاعراً فارســاً قــوي الشكيمة، وكان ذا نفوذ كبير في قومه ، وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، أخذ يحرض قومــه وكفار قريش على المسلمين، ويعادي النبي بشعره ويشبب بنــساء النبي والمسلمين حتى آذاهم ونال منهم، فخرج إليه محمد بن مسلمة في نفر من الأوس فقتلوه. الأغاني مصدر سابق ٢٢/ص١٣٧وما بعــدها والأبيــات ص ١٣٥. ورواء : غزيرة. والجون :الإبل السوداء. وأكنافها: نواحيها وصُدُف: تظهرُ وتختفي.

و من مظاهر الانتماء إلى المكان ، أنهم كانوا يفتخرون بطول الإقامة فيه دون تركه أو تبديله ، لأن فى ذلك دليل على تعلّقهم به ، وقدرتهم على الذود عنه ، ومن الشعر الدال على ذلك قـــول عبيد بن الأبرص يفخر بتوارث الأجيال لدار العز والسؤدد [١]:

ولنا دارُ وَرِثْنا عِزَّها الـــ أَقْـــدَمَ القُـــدْمُوسَ عَـــنْ عَـــمٍّ وخَـــالِ

مَنْزِلُ دَمَّنَهُ آباؤُنـــا الـــــ مُورِثُونَ المْجدَ في أُوْلَى الليالي

ففيها مآثرهم ، وشهدت مناقبهم ، فهى دليل على أصالة المجد فيهم ، فهو قديم ومتـــوارث ، وهذا خُراشة بن عمرو العَبْسي ، يفخر بقدم التوطن فى ديارهم ، حتى التقـــت الآمـــال بالآمـــال والأحلام بالأحلام ، فصنعت التاريخ المشترك ، يقول [٢]

فلا قوم إلا نحن خير سياسة وخير بقيـــــــات بقين وأولا

وأطول فى دار الحفاظ إقامة وأربط أحلاما إذا البقل أجهلا

والتضحيات دفاعاً عن المكان ، تخلق التاريخ المشترك الذى يصبح مدعاة الفخر كذلك ، كما في قول قيس بن الخطيم [٣]:

فَمَا الأسْدُ باللابِيّ الغَرِيفُ مَقِيلُها ولكنَّ أُسْدَ الغابِ حافَةَ ذي الجَدْرِ

بُنو خطْمَةَ الأبطالُ إنّهُمُ بها غُذُوا، وعليها يَنْشَأونَ يَدَ الدَّهْرَ

إن رهطه ، سكان ذي الجدر، وهو موضع قرب يثرب ، لهم تاريخ مشترك في ذلك المكان، إنهم منه غذوا، وعليه نشئوا ، وسيستمر وجودهم به أبداً.

وأدرك الجاهليون أن التجاور فى المكان الواحد لأبناء العرق الواحد أو القبيلـــة الواحـــدة عامل مهم فى تقوية الرابطتين العرقية والقبلية ، حتى تتوحد القوى، ويقوى الانتماء ، وفي ذلك يقول

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ، مصدر سابق ، ص١١٨. والقدموس: القديم. ودَمَّنَهُ آباؤنا: أثّروا فيه.

(٢)خُراشَة بن عمرو العَبسي.شاعر جاهلي من الفرسان، حضر يوم شعب جبلة الذي قتل فيه لقيط بن زراة، وقـــال في ذلك اليوم قصيدة من المفضليات (١٤ بيتاً) ، انظر شرح اختيارات المفضل ، مصدر سابق ،٦٣٣/٣.

(٣) ديوان قيس بن الخطيم ، مصدر سابق ، ص٢٣١. والغريف: الأجمة، والشجر الملتفّ.

المَثلم بن رِيَاح المرّي مظهراً غبطته باجتماع قومه[١]:

لَفَفْنا البيوتِ بالبيوت فَأَصبحُوا بني عمِّنا، مَنْ يَرْمِنَا يَرْمِنَا مَعَا

تجاوروا فى الإقامة حتى صارت البيوت بالبيوت ، فزادت الألفة والأنس ، وغابت الوحشة ، وصاروا صفا واحدا ، فمن رمى واحدا منهم فكأنما رمى الجميع ، والقرب يحقق سرعة التلبية لنداء أقربائه عند طلب النجدة أو النصرة ، وهذا ما عناه عمرو بن شأس الأسدى ، بقوله[٢]:

ولنا فوارس يركبون لنا فى الروع لاميل ولاعزل

متقارب أطناب دورهم زهر إذا ماصرحت كحل

والتباعد المكاني ، يخلق الجفاء ، ويفتت الوحدة ، ويصعب النصرة ، ويثقل التبعة ، ويبعد الشقة ، وفي ذلك يقول حُجْر بن خالد الضُّبعي مخاطبا أبناء عمومته [٣]:

فَلَوْ أَنَا شَهِدْناكُمْ نَصَرْنَا بذي لَجَبٍ أَزَبَّ مِنَ العَوَالِي

وَلكِنا نَأَينا ، واكْتَفَيْتُمْ ولا يَنْأى الخَفِيُّ عَنِ السُّؤَالِ

والقرب المكاني ، يسهم فى صياغة جديدة للبنيات المتجاورة بما يحدث بينهم من تفاعل ، بالمجاملة ثم المشاركة ، وقد تحدث المصاهرة ، وبالتقادم الزمنى تتخلق رابطة تاريخية مشتركة .

وقد أسلم التباعد المكاني إلى تداعي الروابط بين أبناء العرق الواحد ، وقد أدرك الحارث بن ظالم المري ذلك حين رفضت قريش جواره ؛ رغم رابطة الدم التى تصنفهم أبناء عمومة ، وما ذلك إلا للتباعد المكاني. فقال [٤]:

ألا لَسْتُمُ مِنّا ولا نحنُ منكـــمُ بَرِئنا إليكمْ مِنْ لُؤَيّ بن غالـــبِ

غَدَوْنا على نَشْزِ الحجازِ وَأَنْتُمُ بِمُنْشَعِبِ البطْحَاءِ بينَ الأَخَاشِبِ

فبنو مرّة مقيمون على نشز الحجاز، وقومه بنو لؤي بمنشعب البطحاء بمكة ، فالتباعد المكـــانى

(١) المصدر السابق ٣٨٤/١.

(٢) شعر عمرو بن شأس ، مصدر سابق ، ص٤٢.

(٣) شرح ديوان الحماسة، مصدر سابق ، ٥١٩/٢. وذو جلب أزبّ من العوالي: جيش له صوت أزبّ (كثير) من كثرة الرماح فيه.

(٤) العقد الفريد ، مصدر سابق ،١٤٩/٥.

أضعف رابطة الدم ، فرفضوا مجاورة الحارث لهم ، فأثار حفيظته ، فأعلن براءة بني مُرّة من الانتساب إلى لؤي بن غالب نكاية فى القرشيين .

ومن مظاهر الانتماء للمكان الدفاع عنه حين يتعرض للغزو، وقد عمرت القصيدة الجاهليـــة بالفخر بحماية الأوطان ، والدفاع عنها ، والفخر بتجهيز المكان وتحصينه ، ضد غارات المغيرين ، و أطماع الطامعين ، فها هو ذا النابغة يبين أهمية المكان الحصين في الحفاظ على النفـــوس والكرامـــة والأعراض في قوله[١]:

وَحَلّـــتْ بُيُوتِي في يَفَاعٍ مُمَنّعٍ تَخَالُ به رَاعِي الحمُولة طائرا

تزلُّ الوُعُول العُصْمُ عَنْ قُذُفاتِهِ وتُضحي ذُرَاهُ بالسَّحابِ كَوَافِرا

حِذَاراً على أَنْ لا تُنَالَ مَقَادِتِي وَلا نِسْوَتِي حَتى يَمُتْنَ حَرائِرا

فبيوته فى حصن منيع ، يحبط تطلعات المتطلعين ، وأحلام الطامعين ، فيؤمن النفس والعرض ، والآطام هي التي درأت الخطر عن النساء في قول قيس بن الخطيم يخاطب الخزرج ، معيرهم بجبنهم حين هربوا من وجه الأعداء ، فمنعتهم الحصون ، من هتك أعراضهم ، وسبى نسائهم [٢] :

فَلَوْلاَ ذُرَى الآطامِ قَدْ تَعْلَمُونهُ وَتَرْكُ الفضا، شُورِكتمُ في الكواعبِ

والسموءل يفخر بالحصن الذى أقامه جده، والعين التى حفرها فقد هيأ له سبل الإقامة بهما [٣]:

بنى لي عَادِيا حِصناً حصيناً وَعَيْنا كُلما شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

طِمِرّاً تَزْلَقُ العِقْبَـــانُ عَنْهُ إذا ما ضامَنِي شَيءٌ أَبَيْتُ

أما الأفوه الأودي فيفخر بقومه الذين تَصَدّوا للأجدع الحِميريّ ، وحافظوا علـــى اســـتقلال

---

(١) ديوان النابغة ، مصدر سابق ،ص١٣٣-١٣٤.

(٢) ديوان قيس بن الخطيم ، ، مصدر سابق ، ص٩٣.

(٣) ديوان السموءل، رواية نفطوية، نشرة الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بـــيروت، ص١٥. والطمـــر : المشرف المرتفع. السموأل بن عريض بن عاديا بن حباء ذكر ذلك أبو خليفة عن محمد بن سلام والسكري عن الطوسي وابن حبيب وذكر أن الناس يدرجون عريضا في النسب وينسبونه إلى عاديا جده يضرب به المثـــل في الوفاء وقد قيل إن أمه كانت من غسان وكلهم قالوا إنه كان صاحب الحصن المعروف بالأبلق بتيماء. الأغـــانى مصدر سابق ج٢٢ ص١٢٢

مدينتهم (رِئام)، في قوله[١]:

إنّا بنو أَوْدَ الذي بلوائِهِ مُنِعَتْ رِئامُ ، وقدغزاها الأَجْدَعُ

إن الانتماء للمكان يوجب الدفاع عنه ، ولقد امتدح النابغة الذبياني بني عذرة لأنهم منعوا نخل قراهم من أعدائهم ، ودافعوا عن حماهم ، يقول النابغة [٢]:

هُمُ مَنَعُوا نَخْلَ القُرَى مِنْ عَدُوِّهِمْ بجمعٍ شديدٍ كيْدهُ للمكاثـــــــرِ

هُمْ طرَّفُوا عَنْها بَلِيّاً فَأَصْبَحَتْ بَلِيٌّ بِوَادٍ من تِهامَةَ غائـــــــرِ

وَهُمْ مَنَعُوها من قُضَاعَةَ كُلِّها وَمِنْ مُضَرَالحَمْرِاءِ ذَاتِ التَّغاوُر

وتكاثروا على أعدائم حتى ردوهم على أعقابهم ، وأثنى الحطيئة على بني سعد الطائيين الـــذين زادوا عن حمى قومهم فقال [٣]:

أحمت رماحُ بني سعدٍ لقومهمُ مراعيَ الحُمْرِ والظِّلمانِ والعينِ

وبلغة حازمة واثقة ، يؤكد بشر ابن أبي خازم على حماية بلده مهما كان حجم الأعداء [٤]:

سَنَمْنَعُها وإنْ كانَتْ بلاداً بها تَرْبُو الخواصِرُ والسَّنَامُ

وأوس بن حجر ، وأضحت أرضهم مطمعا للقبائل ، التي ترصدت قومه من كلّ جانب ، ولكن قومه صمدوا للطامعين، يقول [٥]:

تَكَنَّفَنا الأعداءُ مِنْ كلّ جانبٍ لِيَنْتَزِعُوا عَرْقَاتِنَا ثُمَّ يَرْتَعُوا

فما جَبُنُوا أنّا نسُدُّ عَلَيْهِـــمُ ولكِنْ لَقُوا ناراً تَحَسُّ وتَسْفَعُ

والدفاع عن المكان ليس مكان التوطن والسكن فقط ، ولكنها لحماية الذمار، والذمارهو المجال

---

(١) ديوان الأفوه الأودي: الطرائف الأدبية، صححه وخرّجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيّله عبد العزيز الميمني، دار الكتـــب العلمية، بيروت. ص ١٩. وانظر معجم البلدان، مصدر سابق ، (رئام) واللسان ، مصدر سابق ، (رأم).

(٢) ديوان النابغة، مصدر سابق ، ص ١٤٥-١٤٦. وطرّفوا عنها: ردّوا عن النخيل.

(٣) ديوان الحطيئة. مصدر سابق ، ص٢٩٦. والظلمان: جمع ظليم، وهو ذكر النعام. والعينُ: بقر الوحش.

(٤)- ديوان بشر، مصدر سابق ، ص ٢٠٧-٢٠٨.

(٥) ديوان أوس بن حجر ، ، مصدر سابق ، ص٥٧. العرقاة: أصل كلّ شيء. وتُحَسُّ: تستأصل. وتُسْفَعُ: تُلفح وجوههم.

المحيط ببلدهم ، والدفاع عنه ليس دفاعا عن الأرواح والأموال فحسب بل دفاع عن الكرامة ، وقد افتخر عمرو بن كلثوم بذلك :(١)

ونوجدُ نَحنُ أمنعَهُم ذِمَاراً وأوفاهم إذا عقدو يمينا

ومن ثم فمن يحمي ذماره ، ويدافع عن حوضه ، ويزود عن عرينه ، يكون موته بطولة (٢):

ونحن أناس لا نرى القتل سبة على كل من يحمي الذمار ويمنع

وفي مقابل تعظيم الدفاع عن الأوطان نلحظ ذمَّ المتخاذلين عن حماية مواطنهم، ومـــن الـــشعر الدالّ على ذلك ، قول لبيد يُبَكّتُ بعض بني عامر (٣):

أَجِدَّكُمُ لم تَمْنَعُوا الدَّهْرَ تَلْعَةً كما مَنَعَتْ عُرْضَ الحِجَازِ مُبَشِّرُ

ولعل الجانب السلبي فى ذلك كذلك ، هو أنه فى الوقت التى يمنع حماه ، يستبيح حِمَى الآخرين ، وعن ذلك يقول أوس بن حجر مفتخراً (٤):

نُبيح حِمَى ذِي العِزّ حينَ نُريدُهُ وَنَحْمِي حِمَانا بالوَشِيجِ المُقَوَّمِ

يفتخر بقوته التى ينتهك بها حمى الآخرين ، ويحمى حماه بالسهام المثقبة ، وعلى هذا النحو يأتى قول شريح بن الحارث اليربوعي التميمي(٥):

حِمَانا حِمَى الأَسْدِ التي لشُبُولِها تَجُرُّ مِنَ الأَقْرانِ لَحْماً عَلَى لَحْمِ

وَنَرْعَى حِمَى الأَقْوامِ غيرَ مُحَرَّمٍ عَلَينا ولايُرْعَى حِمَانا الذي نَحْمِي

حماهم عرين الأسد ، يحذره كل شجاع ، وهم ينتهكون بقوتهم ، حمى الآخرين ..

وهكذا مثل الانتماء إلى المكان لدى الإنسان الجاهلي قيمة مهمة فى حياته ، نقلتها القـــصيدة الجاهلية وهى تعبر عنه لتعلن عما كان له من أثر في مشاعره وحياته ، وكيف تاق إلى استقرار يحميه

---

(١) انظر ديوان عمرو بن كلثوم، مصدر سابق ، ص ٩٢.

(٢) انظر ديوان كعب بن مالك ، مصدر سابق ، ص ٢٢٧.

(٣) شرح ديوان ليد، مصدر سابق ، ص ٢٢٥. وفيه ص ٢٢٦ "ومن أمثال العرب: فلان لا يمنع ذنب تلعة، أي هو ذليل حقير".

(٤) ديوان أوس بن حجر، مصدر سابق ، ص١٢٤. ونسب البيت إلى حسان (ديوان حسان ص ١٨٣). والوشيج: الرمح.

(٥) انظر قصائد جاهلية نادرة ، مصدر سابق ، ص ١٣٤

من مجابهة عوائق الارتحال عن المكان الذى ارتبط به .....

رابعا :الانتماء الاجتماعي والسياسي

سعى الإنسان الجاهلي بإراداته إلى تجاوز دائرة الانتماء النسبي الضيق ؛ بإضافة انتماءات أخرى تطور الانتمـاء العرقـى والجغرافى ، وهذه الانتماءات لا تلغىالانتماءات الأخرى ، بل تدعمها ، وأحيانا تقلصها ، وهذه الانتماءات أوجدتها ظـروف اجتماعية أو اقتصادية كما هو الحال فى (الجوار) ، أو مثلت لونا من الانتماء السياسى اقتـضته المـصالح المـشتركة والمنـافع المتبادلة ، كما هو الحال فى تكوين الأحلاف .

(أ)- الجوار:

الجوار: المجاورة ، والجار الذى يجاورك ، وجاوره أى ساكنه ، واستجار طلـب أن يُجـار، وأجاره أنقذه ، وأعاذه ولفظة (الجار) لها معان كثيرة منها: الحليف والناصر والشريك ... والجوار: (أنْ تُعطي الرجل ذمةً ، فيكون بها جارك ، فتجيره....) [١] واللغة لا تبعد عن الاصطلاح ، فالمجاورة رابط يجمع بين المتجاورين ، وهوعقد اجتماعي غير مكتوب أو مشروط أقرته الأعراف الجاهلية، يجيء بناء على طلب المجار؛ إلى من تُرجى نصرته ، فيصبح الجوار أمانة وعهدا ، يكتسب به المجـار المنعة والحماية ، وهو قيمة اجتماعية عليا تبلغ درجة القداسة أحياناً[٢] ، لأن العرب كانت ترى ذلك دينا تدعو إليه ، وحقا واجبا تحافظ عليه ، ويجله الإنسان الجاهلي ، فقد كان أبو سفيان بن حرب إذا نزل به جار قال يا هذا إنك اخترتني جار، أواخترت داري دارا ، فجناية يدك على دونك ، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله[٣] ، وعلىهذا السنن يقول معاوية بن مالك [٤]:

بل لا نقولُ إذا تبوَّأ جيـــرةً إنَّ المَحَلةَ شِعْبُها مكـــدودُ

إذ بَعْضُهمْ يَحمي مراصِدَ بيتِه عنْ جارِه، وسبيلُنا مَوْرودُ

فهم لا يمتنعون عن إجارة من استجارهم ، ولا يعتذرون له بالعدم أو العوز، وهم أقوياء شجعان ؛ فلا يخافون توابع هذه الإجارة ، ومن أخذ عقد الأمان منهم ، يروح ويغدو فى حمايتهم ، يقول أبو

(١)انظر اللسان: مصدر سابق (جور). وقد ينعت الحليف بالجار.

والقاموس: مصدر سابق (الجور).

(٢) قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي – وهب رومية ، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م ص٣٤- ٣٥).

(٣)المستطرف فى كل فن مستظرف ، : شهاب الدين الأبشيهى : مكتبة الحياة ،ج١ ص٢٩٩

(٤) هو معاوية بن مالك بن جعفر بن كلاب ، أشعار العامريين الجاهليين ، مصدر سابق ص٥٥.

دؤاد مفتخراً بقومه[١]:

تَرَى جَارَنَا آمناً وَسْطَنا يَرُوحُ بِعَقْدٍ وَثِيقِ السَّـبَبْ

إِذَا ما عَقَدنا له ذِمَّـــةً شَدَدْنا العِنَاجَ وعَقْدَ الكَرَبْ

وذلك لأن عهدهم متين لاتنفصم عراه ، وفى هذا الإطار يمدح الحطيئة[٢] قوماً عقدوا لجـارهم عهداً فَوَفَوْا به ولم يخْفِرُوه:

قَوْمٌ، إذا عَقَدُوا عَقْداً لجارِهِم شَدُّوا العِناجَ، وشَدُّوا فَوْقَه لكَرَبا

وعلى مجيره أن يتحمل تبعات الجوار، يقول حاتم الطائي[٣]:

أمَاويَّ، إنّي ربَّ واحدِ أمّهِ أَجَرْتُ فلا قَتْلٌ عليهِ ولا أَسْرُ

فمن دخل فى حمايته ، لابأس عليه من قتل أو أسر، والحماية لا تقتصر على الأنفس بل تتعداها إلى الأموال، فقد حظي الجار بالحماية والرعاية لنفسه ولأمواله ، ومن الشعر الدال على ذلك قـول امرىء القيس يحمد جوار بني ثُعل الطائيين[٤]:

أَبَتْ أجأٌ أنْ تُسلِمَ العامَ جارَها فمنْ شاءَ فَلْيَنْهَضْ لها من مُقَاتِلِ

تبيتُ لبوني بالقُرَيَّة أُمَّنـــاً وأسْرَحُها غِباً بِأَكْنافِ حائـــلِ

---

(١).أبو دؤاد الإيادي: اختلفوا في اسمه، فقال بعضهم: هو جارية ابن الحجاج ، وقال الأصمعي: هو حنظلـة بـن الشرقي، وكان في عصر كعب بن مامة الإيادي، الذي آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري فمات عطشاً، فضرب به المثل في الجود، وبلغه عنه شيءٌ ، الشعر والشعراء ، مصدر سابق ص٢٣٣

والعِنَاجُ: خَيْط أو سَيْر يُشدّ في أَسفل الدلو ثم يُشَدُّ في عُرْوتها أو عَرْقُوَتِها، قال: وربماشد في إحدى آذانها. وقيـل: عِنَاجُ الدلو عُرْوَة في أسفل الغَرْب من باطن تشدُّ بوثاق إلى أعلى الكَرَب، فإذا انقطع الحبل أمسك العِنَاجُ الدلو أن يقع في البئر، انظر اللسان: مصدر سابق (عنج)

(٢) الحُطَيْئَة ؟ – ٤٥ هـ / ؟ – ٦٦٥ م ، جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو ملكية. شـاعر مخـضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجاءاً عنيفاً، لم يكد يسلم من لسانه أحد ، وهجا أمه وأباه ونفسه. ، ديوان الحطيئـة برواية وشرح ابن السكّيت ، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة١٩٨٧م،ص٧٨.

(٣) انظر شعر حاتم ، مصدر سابق ، ص٢٠١.

(٤) ديوان امرىء القيس ، مصدر سابق ، ص٩٥– ٩٦. وأجأ: أحد جبلي طيىء. والغبّ: أن ترسل في المرعى يوماً، وتترك يوماً، ثم تراح في اليوم الثاني .

بنو ثُعَلٍ جيرانُها وحَمَاتُهـــا وتُمْنَعُ منْ رُماةِ سَعْدٍ ونائـــلِ

فأموال الجار تحظى بالرعاية والحماية ، فهى تبيت فى مـأمن ، وترعـى ماشـاءت ، دون أن يعترضها معترض ، ولذا فهى فتنمو ، وتكثر. ويصف زهير إكرام بني عُليم الكلبيين لمن يجـاورهم ، بقوله[١] :

وَجارٍ سارَ مُعتَمِداً إلَيكـُم أَجاءَتهُ المَخافَـةُ وَالرَجـاءُ

فَجاوَرَ مُكرَماً حَتّى إذا ما دَعاهُ الصَيفُ وَانقَطَعَ الشِتاءُ

ضَمَنْتُمْ مَالَهُ، وغَدا جَميعاً عليكُمْ نَقْصُهُ، وَلَهُ النَّمـــاءُ

يأتيهم الجار خائفا راجيا ، فيلقى الإكرام لا فى أوقات السعة فحسب ، بل فى أوقات القحـط والشدة ، وأكثر من هذا فهم يضمنون ماله ، ويتحملون مايلحقه من نقص . وقد بالغ بعض المجيرين في إكرام جيرانهم ، حتى يغدو الجار كأنه واحد من أهل المجير، ومن الأشعار الدالة على ذلك قـول يزيد بن حمانَ السكوني يمدح بني شيبان[٢] :

ومن تكَرمِهم في المَحلِ أنَّهُمُ لا يَعْلَمُ الجارُ فيهِم أنَّهُ الجَارُ

فكثرة إكرام بني شيبان لجارهم في أوقات المحل لا تجعل أحدا يشكّ حين يراه أنه ليس واحـدا منهم ؛ لشدة عدم التمييز بين الجار، وبين الأهل أصحاب المحلة.

و حاتم الطائي الذي يمثل النموذج العربى فى الكرم يقول[٣]:

إذا كانَ لي شيئانِ يا أمَّ مـــالكٍ فإنَّ لجاري مِنْهمُا ما تَخَيّرا

وفي واحدٍ إنْ لم يَكُنْ غَيْرُ واحدٍ أراهُ لَهُ أهْلاً إذا كانَ مُقتـرا

إنّه يشارك الجار فيما يملك ، فلو أن له شيئين ، يترك له حرية اختيارالأفضل فيهما ، مؤثرا له على نفسه . ولا يعد العرب هذا تفضلا ، لأن إكرام الجار واجب على المجير وحقّ للمجار، يقـول

---

(١) شعر زهير ، مصدر سابق ، ص١٣٦.

(٢)والصحيح أنه عدي بن يزيد بن حمار من بني السكون وهو شاعر جاهلي وكان نازلا في بني شيبان ويوم ذي قار كان لبني شيبان على كسرى إبرويز وهو أول يوم كان للعرب على العجم ، شرح ديوان الحماسة ٣٠١/١.

(٣) ديوان شعر. حاتم مصدر سابق ، ص٢٥٧.

المثقب العبديّ[١]:

أُكرمُ الجارَ، وأرْعَى حَقَّهُ إنّ عِرفَانَ الفَتَى الحَقَّ كرمْ

فإكرام الجار حقّ ، وعرفان حق الجار، دليل على طيب النجار، وكرم أخلاق الجوار، ومـــن قداسة الجوار ، أن يحافظ على شرف جاراته ، فلا يُرمين من قبله بسوء ، ولطالما افتخـــر الـــشعراء بالحفاظ على شرف الجارة ، وحصانتها ، يقول عروة بن الورد [٢]:

وإنْ جاريَ ألوتْ رياحٌ ببيتها تغافلتُ حتى يسترَ البيتَ جانبُهْ

فإن كشفت الرياح ستر البيت ، تغافل عن النظر ، حتى يعود البيت أدراجه ، ويقول زهير[٣]:

وجاريْ ليس يَخْشَى أنْ أُرَيِّي حَلِيلَتهُ بسرٍّ أو عِلانِ

لايخشى جاره على حليلته ، وإن نظر إليها بسر أو علن ، لعلمه مدى رعايته للحرمات ، فللجارة حـــصانة ترقى إلى مستوى حصانة نسائه ، ونساء أقاربه، والحرص على شرف الجارات وحـــصانتهن ذوحرمـــة مؤبـــدة ، لاتستحل إلا بالنكاح هذا مايقرره الأعشى ، على مافيه من مجون ، يقول[٤]:

ولا تَقْرَبنْ جارةً إنّ سِرَّها عليكَ حرامٌ ، فانكِحَنْ أو تَأَبَّدا

فالجارة محرّمة ، وعلى الراغب فيها أن يتزوجها ، بل قد اشترط الأعشى للزواج بالجـــارة ألا يكون بهدف استغلالها ، فيسعون إلى الزواج منها إن كانت غنية ، وفى ذلك يقول لسلامة ذى فائش الحميرى مادحا [٥]:

---

(١) المثقب العبدي ، ٧١ - ٣٦ ق. هـ / ٥٥٣ - ٥٨٧ م واسمه عائذ بن محصن بن ثعلبة بن وائلة بن عدي بن حرب بن دهن بن عذرة بن منبّه بن نكرة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس، من ربيعة. شاعر جاهلي، من أهل البحرين، اتصل بالملك عمرو ابن هند وله فيه مدائح ومدح النعمان بن المنذر،في شعره حكمة ورقة.. ديوان المثقب العبدي ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ، الشركة المصرية للطباعة والنشر. ، ١٩٧١م، ، ص٢٢٩.

(٢) ديوان عروة ، مصدر سابق ، ص٣٠.

(٣) شعر زهير، مصدر سابق ، ص٢٨٤. وأريّي حليلته: أديم النظر إليها.

(٤) شرح ديوان الأعشى ، مصدر سابق ، ص١٠٣. وسرّها: فرجها، وتأبد: ابق عازباً طوال العمر.

(٥) ذو فائش : هو سلامة بن يزيد بن سلامة من ولد يحصب بن مالك الملك الحميرى ، وكان ذو فائش يحب اصطناع سادات العرب ويقربمجالسهم ويقضى حوائجهم ، وكان النابغة متصلاً به قبل اتصاله بالنعمان وله فيه مدائح كثيرة مذكورة في ديوانه وفائش مشتق من المفايشة وهي المفاخرة شرح ديوان الأعشى ، مصدر سابق ، ص١٢٨. والأنضاد: الفراش والأرائك.

وَقَوْمُكَ إنْ يَضْمَنوا جَارةً يَكُونوا بِمَوْضِعِ أنْضَادها

فَلَنْ يطلُبـــوا سِرَّها للغَنَى ولن يُسلمُوها لإزْهَادِها

فقوم سلامة إذا جاورهم امرأة يقومون مقام أهلها ، ولا يطمعون في مالها ، ولا يضيقون بها إن كانت فقيرة .

والمجاورة ، رابطة بين غير المتكافئين ، فالمجار غالبا إما ضعيف أومطارد والمجاورة قد تكون بـــين الأفراد ، كما تكون بين القبائل نتيجة لدوافع اجتماعية وظروف اقتصادية قاسية ، فالمستجير مـــن الأفراد ؛ إما طريداً ، أو مطلوباً دمه، أوفقيراً معدما ألجأه الفقر والجدب إلى الجوار ، يقول راشد بن شهاب اليشكري يفخر بقصر بناه في اليمامة [١]:

ويأوي إليه المُسْتَجيرُ مِنَ الرَّدى ويأى إليه المستعيض من العدم

وقد استجار بعض سادة القبائل ببعض؛ ومن هؤلاء حاتم الطائي الذي جاور بني بدر الفزاريين، في الحرب التى عرفت ب(حرب الفساد) [٢]، وقال يمدحهم [٣]

جاورتُهُمْ زمنَ الفسادِ فنعْـــــ ـــــمَ الحيُّ في العوصاءِ واليُسرِ

فسقيت بالماء النميرولـــــــم أترك الأطم حمأة الجفـــــــــــر

و كان قيس بن زهير سيد بني عبس جاراً لعوف بن الأحوص الكلابي العامري فى (حرب الفجار) [٤]

وأما جوار القبائل فيكون في حالتين: الحاجة إلى المراعي ؛ فمن الأولى مايحدث به شعرا الطفيل الغنوى [٥]:

جَزَى اللّهُ عَوْفاً من مَوَالٍي جَنَابةٍ وَنُكراءَ خَيْراً، كلُّ جَارٍ مـــوَدَّعُ

---

(١) راشد اليَشكُري هو : راشد بن شهاب اليَشكُري الشيباني. شاعر جاهلي له في المفضليات قصيدتان: إحداهما على الميم والثانية على الراء، ـــ شرح اختيارات المفضل ، مصدر سابق ، ٣٢٣/٣.

(٢) وهى الحرب ، التي احتدمت داخل طيىء آثر بعض السادة اعتزال تلك الحرب، فتركوا قبائلهم، وجاوروا في غيرها الأغانى ، مصدر سابق ، ج١٣ ص١٢

(٣) ديوان شعر حاتم ص٢٠٤.زمن الفساد : إشارة إلى ايام الحرب المشار إليها ، والعوصاء الشدة ، والجفر البئر ليست بمطوية.

(٤) التى كانت بين كنانة وقيس ، الأغانى ، مصدر سابق ، ج٢٢ ص٥٨.

(٥) ديوان الطفيل، مصدر سابق ، ص٨٥. ونكراء: من غير معرفة. والعهاد الحوّ: أن تصيب المطرة أرضاً، ثم تصيبها أخرى فتخضرّ. والحوّ: الخضر. ونشق العهاد: نرعاها، ولم يرعها أحد قبلنا.

أباحوا لنا قوّاً، فرمّلَة عالـــــــجٍ وَخَبْتاً، وَهَلْ خَبْتٌ لنا مُتَرَبَّـــعُ؟

نَشُقُّ العِهَادَ الحُوَّ لم ترعَ قَبْلَنـــا كما شُقَّ بالمُوْسَى السَّنامُ المُقَلَّعُ

الطفيل الغنوي يمدح بني سعد بن عوف ؛ لأنهم قبلوا إجارة قومه ، فسمحوا لهم بـــالرعى فى مرابعهم الخصيبة ، وفى هذا إنقاذ لهم من شدة القحط .

ومن الثانية : حاجتها إلى جوار أقوياء ترتجى نصرتهم ؛ لمجابهة عدو عات ، فيكونون قادرين على الإعانة ، وقد مدح النابغة الذبياني جوار الغساسنة ، لأنهم يجيرون من يلجأ إليهم ومن يرغبون بقربه منهم فقال [١]:

لا يُبْعِدُ اللهُ جيراناً تَرَكْتُهمُ مِثْلَ المَصَابيحِ تَجْلو لَيْلَةَ الظُّلمِ

وقد تجتمع في جوار واحد الحالين ؛ فبنوفهم احتاجوا إلى موادعة أعدائهم بـــني صـــاهلة ، وإلى الرعـــي في أراضيهم ، فقبل بنو صاهلة إجارتهم، وقالوا: (قد أجرناكم، فارعوا في أرضنا حيث شئتم) [٢].

ورابطة الجوار انتماء مؤقت ، فالجوار قد يطول وقد يقصر، فكانوا يتجاورون في الشدة ، فإذا صفا الزمان ، رجع كل الجار إلى أهله ومحضره ، يقول الحطيئة [٣]

وإنّ الجارَ مِثْلُ الضَّيْفِ يَغْدُو لوجْهَتِه، وإنْ طالَ الثَّواءُ

كما أنه من حقّ المجيرأن يتحلل من إجارته إذاكان وراء الجار جريرة قد تفضى إلى حرب لا ناقة له فيها ولاجمل ، فالحارث بن ظالم لما منعته غطفان لحق بحاجب بن زرارة ، فأجاره ووعده أن يمنعه من بني عامر، فلما خشى تجديد العداوة مع بنى عامر، تحلل من إجارته ، ودافع عن نفسه قائلا [٤]:

لَعَمْرُ أبيكَ الخَيْرِ يا حارِ إنَّني لأمْنَعُ جاراً من كليبِ بن وائلِ

ولكنَّني لا أَبْعَثُ الحربَ ظالماً ولو هِجْتُها لَمْ أُلفَ شحْمَةَ آكلِ

ولكن أمان المجير للمجار لا ينقطع ساعة الإذن بالارتحال ؛ بل يُمهل الجار ثلاثة ليالٍ وهي خفرة

(١) ديوان النابغة، مصدر سابق ، ص١٢٧.

(٢) شرح أشعار الهذليين ، مصدر سابق ، ٨٥٧/٢.

(٣) ديوان الحطيئة، مصدر سابق ، ص٨٧.

(٤) الأغاني ، مصدر سابق ، ١٠٥/١١- ١٠٦.

الجار، وبعدها يحقّ لقوم المجير أن يلحقوا الشرّ بالمجار إن كان لهم عنده ثأر أو كانوا يخشون أن ينالهم مكروه من قبله[١].

والمجارصاحب حقّ ، يطالب مجيريه بحقوقه إن قصروا بها، يقول العباس بن مـــرداس الـــسلمي ناصحاً من يريد مجاورة غير قومه[٢]:

فإنْ بوَّءوُك مَنْزِلاً غيرَ طائلٍ غليظاً، فلا تَنْزِلْ به وتَحَوَّلِ

والجوار لا يلغي الانتماء العرقي ؛ بل يضاف إليه ، فقد كانت صلة المجاور بأهله لا تنقطـــع ، ولوطالت مدة الجوار ، فهو يشتاق إليهم ، ويتوق إلى لقائهم فالصلة بين المجاور وبين انتمائه النسبي ، لاتنفصم عراها أوتنقطع ؛ فحين فخر مزرد بن ضرار الذبياني بأنّ قومه أحلّوا كعب بن زهـــير في ديارهم ، غضب كعب ، وانتسب إلى قومه، قائلاً [٣] :

هُمُ الأصْلُ مني حيثُ كنتُ وإنني مِنْ المُزَنِّيين المُصَفَّيْنَ بالكَرَمْ

فانتماء الجوارحلقة تضاف إلى الانتماء العرقي أو القبلي ، فنلمس إمكانية تواصل الجماعـــات النسبية المتباعدة ، في ظل علاقات آمنة ، فيعمق ارتباطه بهم ، ولا تتعارض انتماءاته إليهما ، وقـــد يكون الجوار سبباً في المصاهرة ، فقد جاور عبد الله بن عتمة الضَّبيّ في بني شيبان وتزوج منهم [٤] . إن المصاهرة بين المتجاورين تسهم في تواصل الجماعات ، وتعانق الانتماءات ، ، وتغدو رابطة الجوار انتماء يضاف إلى انتماءات الإنسان الجاهلي النسبية والمكانية وغيرها ، كما أسهم الجوار في ، تهذيب الانتماء النسبي، والحدّ من غلواء العصبية القبلية ، وإقامة رابطة جديدة لا تعتمد على العرق كأساس للتواصل بين الجماعات العرقية المختلفة ، ولكنه قيمة جاهلية عليا، أقرتها غالبية أفـــراد المجتمـــع، وتواصت باحترامها، والأخذ بها. فغدت رابطة الجوار انتماء يضاف إلى انتماءات الإنسان الجـــاهلي النسبية والمكانية وغيرها.

(ب): الأحلاف

(١) انظر ا لعقد الفريد، مصدر سابق ، ١٥٣/٥، وقد تكون خفرة الجار في حالات خاصة غير ما ذكر(انظر الأغاني ، مصدر سابق ، ١٢١/١١

(٢) ديوان العباس، مصدر سابق ، ص٩٨. وغير طائل: لا غناء فيه، ولا مزية.

(٣) المصدر السابق ص٦٧. وانظر مثل ذلك في ديوان شعر المتلمس ص١٥٩.

(٤) انظر شعر اختيارات المفضل ، مصدر سابق ، ١٥٤٠/٣. وانظر مثل ذلك في العقد الفريد ٦ ، مصدر سابق ، /٨٥.

والأحلاف:((جمع حلف ،والحلف القسم..(وأصل الحلف المعاقدة والمعاهدة علـى التعاضـد والتساعد والاتفاق وحالفه أى :عاهده ، وتحالفوا أى : تعاهدوا)[١]. ويكون الحلف بين الجماعات كما يكون بين الأفراد ، والتحالفات تبرز وجود كيانات موحدة ، دفعتها الضرورات إلى تكـوين الأحلاف ، وعقد الأحلاف لا تلغي الانتماء العرقى ، بل تضيف إليه انتماء تقتضيه المصالح المشتركة ، لا الأصول النسبية المشتركة فقط.

ومن الحلف ؛ تحالف بطن من قبيلة مع بطن من قبيلة أخرى كتحالف بني ليـث بـني بكـر الكنانيين مع بني عمرو بن عامر العامريين، يقول عبد الله بن ثور العامريّ [٢]:

ألا تلكمو ليثٌ وعمرو بن عامرٍ حَليفانِ رَاضُوا أمرُهمْ فتحلفوا

أو تحالف قبيلة عدا بطن منها مع قبيلة أخرى، يقول حاتم الطائي [٣]:

تحالفتْ طيءٌ من دوننا حلفاً والله يعلمُ ما كنا لها خذُلا

أو تحالف عدة بطون من عدة قبائل ، ومنها البطون التي ضمها اسم تنوخ[٤]، أو تحالف قبيلـة مع مملكة، كتحالف طيء مع عمرو بن هند [٥]، أو تحالف قبيلة مع أخرى كتحالف أسد مع غطفان [٦]، أو تحالف عدة قبائل كتحالف أسد وغطفان وطيء [٧]، أو تحالف قبيلة مـع حلـف معقـود، كتحالف قريش مع الأحابيش[٨] ، (للمحافظة على الأمن، وللدفاع عن مصالحها المشتركة) [٩].

وكانت القبائل الأكثر تعصباً لنسبها لا تحالف أحداً، ولا تدخل أحداً معها، وهم جمرات العرب.

---

(١) اللسان: ، مصدر سابق ، (حلف).

(٢) قصائد جاهلية نادرة، مصدر سابق ، ص١٥٧.

(٣) ديوان شعر حاتم ص١٩٤.

(٤) انظر تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر. ١٩٦١م، ٦٠٩/١- ٦١٠.ويشبه ذلك حلف الأحابيش .

(٥) انظر النقائض (نقائض جرير والفرزدق)، دار الكتاب العربي، (مصورة عن طبعة ليدن)، بيروت. ١٠٨١/٢.

(٦) انظر، العصبية القبيلة وأثرها في الشعر الأموي د. إحسان عباس، ، المطبعة التعاونية اللبنانية، ١٩٦٣م. ص١٤٥.

(٧) انظر العقد الفريد، مصدر سابق ، ٢٤٨/٥، والعصبية القبلية، مصدر سابق ، ص١٤٥.

(٨) انظر نسب قريش المصعب الزبيري، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥م.٩ ص .

(٩) المفصل في تاريخ العرب ، مصدر سابق ، ٣٧٣/٤.

وقد (أطفئت جمرتان من جمرات العرب: بنو ضبّة، لأنها صارت إلى الرباب فحالفتها، وبنو الحارث لأنها صـــارت إلى مذحج فحالفتها) [١]، وقد مدح سلمة بن الخرشُب الأنماريّ بني ذبيان بأنهم كثـــر يتزلـــون مياهـــاً مختلفـــة ، ولكنهم متواصلون ، لا ينقطع بعضه عن بعض بغرباء أو حلفاء، يقول سلمة [٢]:

وأمْسَوا حلالاً ما يُفرّق بينهُمْ عَلَى كلّ ماءٍ بين فَيْدَ وساجِرِ

وقد أوجدت الأحلاف علاقات إنسانية متينة ومتطورة بين المتحالفين، وأظهـــرت القـــصيدة العربية ذلك فامتدحوا الوفاء للحلف ، وافتخروا به ، وذموا الغدر بالحليف ، والتخلي عنه ، انظر إلى قول عبد الله بن ثور العامري في تحالف قومه مع بني ليث الكنانيين:

فكُنا كَمَنْ آسَى أخاهُ بنفسهِ نعيش معاً أو يتلفَونَ ونتلَفُ

صارت حياتهم مرتبطة معا إلى حد فناء كل منهما فى الزود عن صاحبه ، واكتسب بنو بجلة من سُليم العز والمنعة ؛ حين أتوا بني عقيل وحالفوهم ، وفيهم يقول العباس بن مرادس السُّلمي:

يا لهفتا منْ بعد بجلةَ أصبحوا موالِيَ عزٍّ، ليس فيهم مُرغّمُ

وكانوا لا يجدون غضاضة فى أن يمدح بعضهم بعضاً كقول النابغة يمدح بني أسد حلفاء بني ذبيان [٣]:

ليهنئْ بني ذُبيانَ أنّ بلادهُمْ خلتْ لهمُ من كلّ مولىً وتابـــعِ
سوى أسدٍ يحموها كلّ شارقٍ بألفي مُدلٍّ ذي ســـلاحٍ ودارعِ
فدعْ عنكَ قوماً لا عتابَ عليهمُ وهمْ ألحقوا عبساً بأرضِ القعاقعِ
ولولا بنو دُود انَ كانت بلاقعاً بلادُ بني ذُبيانَ يومَ التدافُـــــعِ

إنّه يمدح حلفاءه بني أسد، لأنهم نصروا بني ذبيان ، وبوءوهم منازلهم ، وأجلوا بني عبس عنها. وللنابغة قصيدة يتصدى فيها لعيينة بن حصن سيد بني ذبيان حين أراد أن ينـــصر أبنـــاء عمومتـــه

---

(١) العقد الفريد، مصدر سابق ، ٣٦٧/٣.

(٢) شرح اختيارات المفضل –، مصدر سابق ، ١٦٨/١. والحلال: جمع حلة، والحلة مائة بيت ومائتا بيت. وفيد وساجر: موضعان.

(٣) ديوان النابغة ، مصدر سابق ، ص١٨٨– ١٨٩. وأرض القعاقع: من بلاد بني باهلة. ودع عنك: خطاب لزرعة بن عمرو العامريّ (كان بنو عامر حلفاء لبني عبس) الذي أراد إغراء النابغة بنقض حلف ذبيان لبني أسد.

العبسيين على أحلافه الأسديين، ومنها قول النابغة يخاطب عيينة[١]:

إذا حَاولتَ في أَسَدٍ فُجوراً فإنيَ لَسْتُ مِنكَ ولستَ مني

همُ درعي التي استلأمتُ فيها إلى يَوْمِ التَسارِ وَهمْ مجني

وهمْ وردوا الجفارَ على تُميمٍ وهمْ أصْحابُ يومِ عُكاظَ إنّي

شهدتُ لهمْ مواطِنَ صادقاتٍ أتينهُمُ بنُصحِ الصدرِ مني

ثم ذكر قتل بني أسد لملك كندة ، وزحفهم على الغساسنة ، ثم خاطب عيينة بقوله:

وَلوْ أنّي أُطِيعكَ في أُمورٍ عَضَضْتُ أناملي وَقَرَعْتُ سِنّي

فالنابغة يرى الغدر بالحليف فجوراً، وقد علّل ذلك بأن لبني أسد تاريخاً مشتركاً مع بني ذبيان ، فقد حاربوا معاً في عدّة مواقع ، وفضلاً على ذلك كان لبني أسد تاريخ حربي مجيد ، يدل على قوتهم وشجاعتهم ؛ فهم حلفاء أقوياء ، عظم بهم شأن بني ذبيان، وفي نقض حلفهم خسارة كبيرة ، وندامة شديدة.

و الأحلاف لم تعقد كلها لأهداف التآزر فى المنازعات والحروب ، بل أحدثت قريش نظام الإيلاف ، فتعاقدت مع بعض القبائل عقوداً ضمنت بها سلامة القوافل التجارية الذاهبة من مكة والقادمة إليها ، وتحققت بها مصالح مادية نعم بها الداخلون في نظام الإيلاف جميعاً ، ومن أهمها (حلف الفضول) ، وهو حلف تنادى إلى إقامته عدد من سادات قريش بمكة ، حين كثرت المظالم فيها ، وراح بعض المتجبرين والسفهاء من سكانها يظلمون التجار الذين يؤمون مكة ، باغتصاب أموالهم [٢] ، وانتهاك أعراضهم [٣]، واجتمع لذلك رؤساء بني هاشم وبني المطلب وبني زهرة، وبني تيم (فاحتلفوا إلاّ يدعوا أحداً يظلم بمكة أحداً إلا نصروا المظلوم على الظالم وأخذوا له بحقهُ) [٤] وقد استطاع حلف الفضول أن يحقق الغاية التي عقد لأجلها، ويرد الظلامات التى وقعت بعده ، فلميس

(١) المصدر السابق ص١٩٩- ٢٠٠.ويوم التسار:لأسد وغطفان وطيء وضبة على عامر وتميم، ويوم الجفار: لأسد وغطفان على تميم.

(٢) انظر بعض الأخبار والأشعار الدالة على ذلك في الأغاني ، مصدر سابق ، ١٧/٢٢٨- ٢٩٠.

(٣) انظر خبر رجل من خثعم، غلبه نبيه بن الحجاج السهمي على ابنته، وذلك بعد عقد الحلف، في الأغاني ، مصدر سابق ، ١٧/٢٨٥.

(٤) انظر تفضيلاً لذلك في الأغاني، مصدر سابق ، ١٧/٢٩١- ٢٩٣.

بن سعد البارقي قدم مكّة، فظلمه أبي بن خلف ، فأخذ له حلف الفضول حقه من أبيّ، فقال[١]:

أيأخذني في بطن مكة ظالـــــما أبي ولا قومي لدي ولا صحـــــبي

وناديتُ قومي بارقاً لتـــــجيبني وَكَمْ دونَ قوْمي مِنْ فَيافٍ ومن سهبِ

سيأبى لكم حِلفُ الفُضُول ظُلامتي بني خلفٍ والحقُّ يُؤْخذُ بالعضـــــبِ

فتغنى الرجل ، بقدرة حلف الفضول على رد مظلمته ..

ورجل من خثعم قدم مكة تاجرا ومعه ابنة له يقال لها القتول أوضأ نساء العالمين وجها فعلقها نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم ، فلم يبرح حتى نقلها إليه وغلب أباها عليها ، فشكا ذلك إلي حلف الفضول فأتوا نبيه بن الحجاج فأرغموه على إخراجها إليهم ، فأعطوها أباهـــا وركبوا وركب معهم الخثعمي،وفى ذلك يقول نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن ســـعد بـــن سهم[٢]

راح صحبي ولم أحي القتولا لم أودعهم وداعا جمـــــيلا

إذ أجد الفضول أن يمنعوها قد أراني ولا أخاف الفضولا

و يقول أيضا: [٣]

لولا الفضول وأنه لا أمن من عدوانها

لدنوت من أبياتها ولطفت حول خبائها

ولجئتها أمشي بلا هاد لدى ظلمائـــها

فشربت فضلة ريقها ولبت في أحشائـــها

فهاهم يحمون العرض ، بعد أن حموا التجارة والأموال ، وأضاع الحلف المنطق الجاهلى لقولهم (انصر أخاك ظالما أومظلوما) والقصيدة تسجل على ابن الحجاج غيه ، وتسجل للحلف قيامه بمهامه ، إن انعقاد حلف الفضول يدلّ على مستوى رفيع من الوعي عند أولئك الـــسادة حـــين قـــدموا

(١) معجم الشعراء ، مصدر سابق ، ص٢٥٤. انظر مثل ذلك في الأغاني ١٧/٢٩٧- ٢٩٨.

(٢)نبيه بن الحجاج بن عامر بن حذيفة بن سعد بن سهم الأغاني . مصدر سابق ، ١٧/٢٩١- ٢٩٦.

(٣)الأغاني ، مصدر سابق ، ١٧/٢٩١- ٢٩٧.

انتماءهم للحق والواجب على الانتماء النسبيّ أو المكاني ، إنهم ينصرون المظلوم في مكّة غير آبهـين بنسبه أو موطنه أو حلفه أو جواره ، وهذا الحلف ضمن لهم ، حسن الجوار، وحسن الـصلات ، ورواج التجارة ، وبقي بعد كل هذا التفوق الإنساني لانتماء لا يشرع للقوة بل للحق .

ومن مظاهر الانتماء التي حققها التحالف الخروج من دائرة الانتماء القبلي إلى منظور أوسـع حين سلمت القيادة في الحلف إلى رجل من الحلفاء ، بغض النظر عن تباعد العرق أو قربه ، فحصن بن حذيفة الفزاريّ الغطفاني كان قائد الحليفين أسد وغطفان ، على الرغم من تباعـد نـسبيهما ، ليوحدا صفوفهما وكلمتهما ، وليستطيعا الوقوف في وجه النعمان ، يقول زهير بن أبي سلمى[١]:

أَبى الضَيمَ وَالنُعمانُ يَحرِقُ نابُهُ عَلَيهِ فَأَفضى وَالسُيوفُ مَعاقِلُه

عَزيزٌ إِذا حَلَّ الحَليفانِ حَولَـهُ بِذي لَجَبٍ لَجّاتُهُ وَصَواهِلُـه

إنّ انقياد حلف من الأحلاف إلى رئيس واحد دليل على الانتماء ،ومظهر من مظاهر تلاحم الأحلاف .

ومن مظاهر الانتماء التي حققها التحالف أيضاً أن يصبح الحلف علماً للقبائل المتحالفة ، يدل كل منها على مجموعات نسبية متحالفة [٢]، (ويلاحظ أن الأحلاف إذا طالت وتماسـكت أحـدثت اندماجاً بين قبائل الحلف ، قد يتحول إلى نسب) [٣].

ومن مظاهر الانتماء التي حققها التحالف أن أدى إلى تغـيير في الخريطـة الـسكانية فهـذه التحالفات بعضها متقاربة في الدار والنسب (منها المطيبون والأحلاف بمكة)، وبعضها متباعـدة في النسب متقاربة في الدار (منها أسد وذبيان وطيء)، وبعضها متباعدة في الدار والنسب، فكان الحلف

---

(١)انظر شعر زهير، مصدر سابق ، ص٥٦- ٥٧. .

(٢) فالمطيبون: عبد مناف، وزهرة، وأسد بن عبد العزى، وتيم، والحارث بن فهر، وعبد قصي. سموا أولئك المطيبين لخلوق صنعته لهم أم حكيم فغمسوا أيديهم فيه. ..الأحلاف: مخزوم، وعدي، وسهم، وجمح، وعبد الدار وسموا أحلافاً لجزور نحروه، فدافوا دمه في جفنة فمسوه بأيديهم ولعقوا منه، وسموا " الأحلاف" و" لعقة الدم". والأحابيش: حلفاء قريش.هم بنو المصطلق، والحياء بن سعد بن عمرو وبنو الهون بن خزيمة: اجتمعوا بذنب حبشي وهو جبل بأسفل مكة فتحالفوا بالله إنا ليد على غيرنا ما سجى ليل وأوضحو نهار، وما أرسى حبشي مكانه سموا بذلك لاجتماعهم، والتحابش: هو التجمع ، العمدة لابن رشيق ، مصدر سابق ،

(٣)المفصل في تاريخ العرب ، مصدر سابق ، ٣٨٥/٤. ومن الأحلاف التي تحوّلت إلى نسب (تنوخ).

سبباً في انتقال جماعة إلى منازل أخرى، يقول سحيم عبد بني الحسحاس[١]:

بني عَمّنا من تَجْعَلُونَ مَكَانَنـــــا إذا نَحْنُ سِرْنا نَبْتَغي منْ نُحالـــفُ

وصرْنا إلى السَّعْدَيَن سعد بن مالكٍ وسعد بني الأحْلافِ تلكَ العَجَارفُ

وقلنا لهمْ والخيلُ تُرْدي بنا مَعـــاً نُحارِبُ منْ حاربتمُ ونُحـــــــالِفُ

فتبديل الجماعة لمنازلها إلى منازل جديدة ، أملتها ظروف التحالف مظهر من مظاهرالتواصل، تتجاوز دائرة الانتماء النسبي.

وقد حققت أحلاف الجماعات للمنتمين إليها بإرادتهم ووعيهم حمايةً وأمناً خارج دائرة الانتماء النسبي ، دون أن تلغي مهمته، ومن الشعر المعبر بإيجاز عن ذلك قول حاجز بن عوف ، وكان قومه بنو سلامان حلفاء لبني مخزوم القرشيين، مفتخراً[٢]:

قَومْي سَلامانُ إمَّا كُنْت سائلةً وفي قريشٍ كريمُ الحلفِ والحسب

إنّه يفخر بقومه (بالانتماء النسبيّ) ثم بحلفائه (بالانتماء الحلفيّ)، فالانتماء الثاني لم يلغ الأول بل أضاف إليه إمكانات جديدة أسهمت في تطور المتحالفين الذين اكتشفوا بالخبرة العمليـــة الطاقـــات الكبيرة الكامنة في تقارب الجماعات ووحدتها ، بناء على أسس تعاقدية تحقـــق مـــصالح مـــشتركة للمتحالفين غالباً، ولغير المتحالفين أحياناً.

ونحن نعدد المظاهر الإيجابية في تلك الأحلاف فإننا لايمكن أن نغفل المظاهر السلبية التى نتجت عنه ، حين تغير الهدف والتوجه وأصبح غاية المتحالفين البطش بغيرهم ، والنيل من سواهم ، وأمثال ذلك حلف أسد وذبيان. الذى أثمر معارك قبلية طاحنة ، أثخنت المجتمع الجاهلي بالجراح ..

لكن هذا لا يجعلنا نقلل من أهمية التحالف بوصف لونا من ألوان الانتماء فهي دليل ماديّ على أن المصالح المشتركة أسهمت في تقارب الجماعات المتباعدة نسباً، وأن الإنسان الجـــاهلي لم يظـــل

---

(١) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، صنعة نفطويه، تحقيق عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. ، ١٩٦٥م، ص٥١. والعجارف: الجفاة. وروي في العقد الفريد ١٦٢/٥ أن بني جسر خرجوا عن قومهم بني محارب، وحالفوا بني عامر بن صعصعة

(٢) قصائد جاهلية نادرة . مصدر سابق ، ص٨٠.

حبيس قوقعة الانتماء النسبي ، بل خرج منه خروجاً إرادياً واعياً ، وتواصل مع التجمعات القبليـــة الأخرى ، دون النظر إلى كونها متقاربة نسباً، أو متباعدة ، تواصلاً يحقق مصالحه على نحو أفـــضل ثعقد الأحلاف، وحافظ عليها.

وهكذا تنوعت انتماءات الانسان العربى نظرا للتفاعلات الإنسانية، وتنوعها في العصر الجاهلي ، فأنتجت عدة انتماءات سياسية اجتماعية أضيفت إلى النسب والمكان ، وأصبحت ملاذات- غـــير النسب- يحتمي بها الإنسان ويلجأ إليها ، فيجد فيها التعاضد والتأ زر والعون والرعايـــة. وهكـــذا تعددت انتماءات الإنسان الجاهلي ، واتسع نطاقها إذ عُرف الانتماء السياسى، والاجتماعى، (الحلف والجوار وشبههما)، تلبية لحاجاتٍ قد لا تحققها دائرة الانتماء العرقى والقبلى.

خامسا:المظاهرالفنية للانتماء فى القصيدة الجاهلية

_وقفنا ـــ فيما سبق من استشهادات شعرية ـــ على مظاهر الانتماء فى القصيدة الجاهلية ، من الوجهة الفكرية ، ورأينا كيف تعددت صور الانتماء المبثوثة في ثنايا القصيدة الجاهلية ، فـــأبرزت مظاهر الانتماء عند الجاهليين ، وإن لم يكن الانتماء غرضا مقصوداً لذاته ، بل إن أشكال التعـــبير، وطرق الأداء الفنى ، ترضخ لروافد التكوين الفكري ، فيتعاضد الشكل مع المضمون لإبراز ظاهرة الانتماء التى نطرحها.

وأول ما يبده المتلقي من هذه الظواهر (القاموس الشعرى فى القصيدة الجاهلية) والذى عمـــر بمفردات المكان الذى عاش فيه الجاهلى وانتمى إليه ، فقلما تجد قصيدة جاهلية أغفلت الحديث عن المكان ليس الحديث العابر ، وإنماالحديث الذى يبرز الارتباط النفسى والعاطفى والروحى تجاه هذه البقاع ، فذكرالأماكن في القصيدة الجاهلية ذو دلالة واضحة على الالتصاق بهذه المواضع التي يصر العربي على ذكرها.... ولدينا من الشواهد مايكفى لإثبات فكرتنا . فهذه معلقة امرئ القيس: [١]:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومـــلِ

فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشمـــــأل

(١) ديوان امرئ القيس ، مصدر سابق ، ص ٦٠.

(٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري ، مصدر سابق ، . ص ٢٠٥،

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وإن شفائي عبرة مهراقة وهل عند رسم دارس من معول

فالدخول وحومل وتوضحَ والمقراة ، مواضع مابين إمرة إلى أسود العين ، وسقط اللوى منقطعه ، واللوى أرض تكون بين الحزن والرمل ، فصل بينها ، هذه الأماكن التي أوردها أمرؤالقيس في معلقته ، لم يكن ذكرها أو تذكرها عرضا عارضا ، أوتعدادا أجوفا لايحمل دلالة ، بل تكشف عن مدى الارتباط النفسي والوجداني بينهما ، يؤكد ذلك تفاعله مع ماأحدثته عوادي الدهر بها، وما ألحقته جيوش الطبيعةعلى معالمها ، فأخفت محاسنها ، وشوهت مفاتنها ، مما أ فاض عبراته ، وأهاج ذكرياته ، وأحوجه إلى من يأسو جراحه ، ويدعوه إلى التجمل والجلد . و شاهد أخر من شعر لبيد بن ربيعة [٢]:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبّدَ غولها فرجامها

فمدافع الريان عري رسمها خلقاً كما ضمن الوحيّ سِلامُها

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صماً خوالد ما يبين كلامها؟

فمنى موضع في بلاد عام ، وليس منى مكة ، والغول والرجام جبلان بالحمى ، والريان وادي أهل الحجاز ، وذكر المكان ليس ذكرا أعجميا ، بل ذكر يفصح عن العلاقة والحميمية بين المكان والشاعر ، فالمكان توحش ، ومجرى الماء هجر ، وانكشفت عورة صخوره ، وصارت صماء ، لتنطق بما فعلته عوامل الهجر فيها ، وتحفر في النفس أخدودا شاقا من الذكريات .

ومن المظاهر اللافتة للانتباه أنّ الشاعر في القصيدة الجاهلية قد كسر التعبير عن«الأنا » الذي يحمل نبرة الفردية ، إلى التعبير عن « الجماعة » وتحولت القصيدة إلى نشيد جماعي يتحدث فيه الشاعر عن قيم القبيلة ومكتسباتها في صراعها مع القبائل الأخرى ، « تجسيما للوعي الجماعي ، أو تعبيراً عن النظام الذي تقوم عليه حياة الجماعة ، وبذلك جردوا البطولة من كل معنى ذاتي، وأصبح البطل تعبيراً عن الجماعة ، أو عن وظيفة اجتماعية[١] » ويلتحم معها التحاماً حميماً ، ولعل الصورة تكون أكثر وضوحا مع شاعر التحم مع قبيلته ، وقادها، ودافع عنها ، وعبر عن ملاحمها وبطولاتها في معلقته ، ذلك هو عمرو بن كلثوم ، فإنّ قصيدته تمثل نشيداً جماعياً للقبيلة وليس

(١) ــ البطل في الأدب والأساطير، شكري عياد، القاهرة: دار المعرفة، ١٩٥٩؛ ط٢ ١٩٧١... ص ٧ ــ ٨

(٢) ــ ديوان :عمرو بن كلثوم .مصدر سابق .ص٨٠ ومابعدها

نزعة ذاتية يعبر فيها الشاعر عن انفعالاته الخاصة ، وما دامت كذلك فإن القصيدة تميل إلى التعبير عن العام لا الخاص ، ولعل من أبرز ملامح التعبير عن العام استخدام ضمائر الجماعة ، وتفشي ظاهرة التكرار في القصيدة ، ولقد تكررت « انا » و « نا » و« نحن »

في الأبيات التالية[١]:

بأنّا نُوردُ الراياتِ بيضاً ونُصدِرُهُنَّ حُمراً قد رَوِينا

وَنَحْنُ الحابِسُونَ بذي أراطَى تَسَفُّ الجِلةُ الخورُ الدَّرِينا[٣]

وَنَحْنُ الحاكمونَ إذا أُطعنا وَنَحْنُ العازمونَ إذا عُصينا

وَنَحْنُ التاركونَ لما سَخِطنا وَنَحْنُ الآخذونَ لما رَضِينا

وكُنا الأيمنينَ إذا التقينا وكانَ الأيسرين بَنو أبينا

فَصَالُوا صولةً فيمن يَليهم وصُلْنا صولةً فيمن يَلينا

فآبوا بالنِهابِ وبالسبايا وأبنا بالمُلُوكِ مُصَفَّدينا

وَنَحْنُ الحاكمونَ إذا أُطعنا وَنَحْنُ العازمونَ إذا عُصينا

وَنَحْنُ التاركونَ لما سَخِطنا وَنَحْنُ الآخذون لما رَضِينا

قد يقول قائل إنه من باب تعظيم الذات ؛ لكنها الذات غير المفصولة عن الكل ، تؤكدهاالجموع للأشياء المصاحبة للضمير(الرايات ، الحابسون ، والتاركون ، والعازمون ، والآخذون ، وبنو أبينا) ، لعلك رأيت الشاعر القبيلة ، أو القبيلة الشاعرفى النموذج السابق ، حيث تكون « أنا الشاعر ... متحدة عضويا مع نحن القبيلة، بل إنها ذائبة فيها ، فوعي الشاعر غير منفصل عن وعي الجماعة ــ الكل» ، فالقصيدة تكاد تخلو من التعبير الذاتي ، وتستغرق في التعبير عن الجماعة ، والشاعر تسيطر عليه النزعة الخطابية التي تعبر بروح ملحمية عن الجماعة ، لأن القصيدة نشيد جماعي يعبر تعبيرا تقريريا خطابيا ؛ ولذلك فهي تقترب من الخطبة الحماسية ، يتجلى

(٣) تسف : تأكل يابسا، الجلة : الكبار من الابل، الخور: الكثيرة الألبان، الدرين: ما اسود من النبت وقدم .
النهاب : الغنائم، الأوب : الرجوع، التصفيد : التقييد

ذلك من خلال موسيقى صاخبة تتمثل في سرعة الإيقاع وتتابعه ، يحاكي روح المعركة من ناحية ، ويؤدي أدوار النشيد الجماعي من ناحية أخرى ، وكأننا أمام أصوات مقاتلين في معركة يرددون نشيداً، ونلتقي بالبطولة الجماعية التي يعبر فيها الشاعر عن القبيلة ، وقد صار الشاعر لسانا ينطق بمشاعر الجماعة ، ويصوغ هذه المشاعر قصائد تنشدها جماعته، فتجد هذه الجماعة مشاعرها مصوغة في شعر الشاعر لأنه هو اللسان الناطق عنها ومعها و بها ، يقول السموأل بن عاديا :(١)

تُعَيرنا أنّا قَليلٌ عَديدُنا (٢) فَقلتُ لها إنّ الكِرامَ قَليلُ

وما قَلّ من كَانتْ بَقَايَاهُ مِثلَنَا شَبَابٌ تَسَامى للعُلى وكُهُولُ

ومَا ضَرّنا أنّا قَليلٌ وجَارُنَا عَزيزٌ وجَارُ الأكثرينَ ذَليلُ

لَنا جَبَلٌ يَحتلُه مَنْ نُجيرُهُ مَنيعٌ يَردُّ الطّرْفَ وهو كَليلُ

رَسَا أَصْلُهُ تَحتَ الثّرى وَسَمَا به الى النجمِ فَرعٌ لا يُنالُ طَويلُ[

وإنا لقومٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبّةً إذا ما رأتهُ عامرٌ وسَلول

يُقرّبُ حُبُّ الموتِ آجالَنَا لنا وتَكرهُهُ آجالُهُم فَتَطولُ

تَسيلُ على حَدِ الظُباتِ نفوسُنا وليستْ على غَيرِ الظُباتِ تَسيلُ[

فضمير الجمع (نا) يسيطر على لغة القصيدة ، فلا تكاد تجد الصوت الفردى المعبر عن الشاعر داخله (تعيرنا ، مثلنا ، ضرنا لنا ، نجيره ...) وهذا مما يؤكد عمق الانتماء لدى الفرد العربى الذى تكشفه القصيدة الجاهلية فى جلاء ، فالقصيدة نشيد جماعي حماسى ، والشاعر واحد من أفراد الكورس ، وليس نغما منفردا ، فجاء حديثه بصيغة الجمع وبضمائر الجماعة ، وعلى هذا النحو تأتى

---

(١) ديوان السموال، مصدر سابق ، ص٣٤ . – أنبه إلى أن هناك من ينسب الأبيات للسموأل " وهي من لاميته ، وإن كان قد ذكر كبار رواة الأدب كابن طباطبا وأبي بكر الصولي وابن الأعرابي والمرزوقي والتبريزي أنها لعبد الملك بن عبدالرحيم الحارثي ونسبت إلى السموأل خطأ توفي بعد سنة ٢٢٥ هـ ، انظر ،

(٢) نجير : نحمي، منيع : حصين، الطرف : البصر، كليل : تعب الثرى : التراب، سما : ارتفع .السبة : العار، عامر وسلول : قبيلتان عربيتان . آجال : جمع أجل أي عمر الانسان الذي يعيشه . الظبات : جمع ظبة وهي حد السيف سرنا : أي أصلنا الطيب .

قصيدة الفند الزماني التي مطلعها[١]:

عَجّــلا اليَومَ صاحِبيَّ رواحَا واسْقِيَاني قَبْلَ التروحِ رَاحَا

يقول فيها :

وَنَهَينا عَنْ حَرْبِنا تَغلبَ العشـــ وفَمَا عَافتِ البَلاءَ المُتَاحَـــا
دُونَ أَنْ أبصرتْ خُيولاً لِبَكر وَسُيوفاً هِندِيةً وَرِمَاحَـــا
فَقَتَلنَا بِوَارِدات رِجَـــالاً إذ بدَا كَاتِمُ الضَميرِ قَبَاحَـــا
وَلَقَى القَـــومُ بِالـــذَنَائبِ مَنّا إذْ كَشَفنَا الخُلودَ مَوتاً ذباحا
وَأَسرنا عَديّها واصطَفَيـــنَا بيد لو أَثَابَ منـــا نَجَاحَـــا
سَفّهُوا حلمَنَا فَلمَا أَثـــاروا لِلقَاءِ الكُمَاةِ طَاحوا طياحَـــا

ويقول أيضا [٢] :

نَحنُ لِلناسِ سرَاجٌ سَاطِـــعٌ وَضِرامٌ يُتَّقَي مَنْهُ الشَـــرارُ
فَاسأَلوا عَنَّا الرَّدَى ثُمَّ الظُبَى يومَ قَحطان ضباعٌ لا تُجارُ
إذْ قَتَلْنَا بالحِمى سَاداتِـــكم وأَجَرنَاكمْ وفي ذاك اعتبَارُ
يَـــومَ فِيكم ذِلـــةٌ عن عِزةٍ وَلَنا منكُم سبـــاءٌ وإســـارُ

لهينا، قتلنا، أسرنا، كشفنا، أجرنا، لنا، ، نحن ... ».:

والأمر لايقف عند قصيدة الحماسة أو الفخر ، وإنما يتعداه إلى أغراض أخرى ، فمن المعروف لدينا أن بيئة البادية- شحيحة بالخير، ولهذا كثيراً ما تنزل بها نازلة الجدب والقحط لانحباس المطر ،

(٣) عشرة شعراء مقلون ، حاتم الضامن ، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٠ ، ص ١٣، والفند لقب غلب عليه شبه بالفند من الجبل وهو القطعة العظيمة لعظم خلقه ، واسمه شهل بن شيبان بن ربيعة بن زمان بن مالك بن صعب بن علي ابن بكر بن وائل وكان أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين وشهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة السنة فأبلى بلاء حسنا وكان مشهده في يوم التحالق الأغاني . مصدر سابق ، ج٢٤ ص٨٥

(١) عشرة شعراء مقلون، حاتم الضامن، المصدر السابق ، ص ١٥. السباء : الأسر، وسبيت العدو أسرته

وجفاف الماء والمرعى، وفي هذه الحال تقفر البادية ، ويموت فيها كل شيء ، ويجوع الناس ويـــشتد عليهم الزمان ، هذه الأزمة العصيبة تصورها القصيدة الجاهلية ، فتصف حالة المجتمع الجاهلي

ونزوعه إلى التباري في الجود بما لديهم ، والتباهي بالقيام بواجبات الضيافة ، وقيام الأغنيـــاء وذوى اليسار بإطعام الفقراء والمحتاجين وإيوائهم ، ويفخرون بذلك فخراً عريضاً ، ولعل من أبـــرز هذه الشواهد قصيدة طرفة بن العبد البكري الرائية الشهيرة صورت لنا ذلك أصدق تصوير[١]:

نحن في المشتاة ندعوالجَفَلى ... لا ترى الآدب فينا يَنتَقِـــــر

بجفانٍ تعتري ناديـنـــــــا ... من سديف حين هاج الصِّنَّبر

كالجوابي لا تني مترعـــــة ... لِقرى الأضياف أو للمحتضر

ثم لا يحزن فينا لحمهـــــا ... إنما يحزن لحم المدَّخـــــر

وبتحليل القصيدة ، تجد صيغة الجمع هى السائدة (نحن ، ندعو ،فينا ، نادينا ، فينا ..) ، وهو استعمال له دلالة خاصة ، إذ يؤكد أن فخره ناتج عن انتمائه إلى هؤلاء الأجاود ، فهو جزء من هذا الكل لاينتزع ولاينفصم ، ومن الشواهد كذلك قول ربيعة بن مقروم الضبي في مفضلية له في الفخر بقومه [٢] :

وقومي فإن أنت كذبتني ... بقولي فاسأل بقومي عليمـــــا

أليسوا الذين إذا أزمة ... ألحت على الناس تنسي الحلوما

يهينون في الحق أموالهم ... إذا اللزبات التحين المسيمـــا

وهو فى أدائه الفنى لجأ إلى ضمير الملكية (قومى) والاتكاء عليه بالتكرار ؛ لتأكيد الفكرة التى سيسوقها والتدليل على أهميتها، وهى أنه واحد من هؤلاء الموكول إليهم حل أزمـــات المـــأزومين ، وفك كرب المكروبين ، وإن تغير طريق الأداء ، لكن الجامع بين الشاهدين تأكيد كل منهما علـــى الانتماء إلى هذه الجماعة أو تلك .

---

(١) – شرح ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، ٥٢٩/٢.

(٢) شرح المفضليات ، مصدر سابق ،: ١٨٣.

ومن الظواهر الفنية فى القصيدة الجاهلية ، التى تعكس مظهرا من مظاهر الانتمـــاء (المقدمـــة الطللية) التى غلبت على مطالع القصائد الجاهلية ، وصارت عنوانا فنيا لها ، عنـــد جـــلّ شـــعراء الجاهلية –إن لم نقل كلهم– استهلوا بها قصائدهم ، فوقفوا عند الديار الدارسة ، والدمن والأثافى ، وبعر الآرام ، وعرصات الدار، فوصفوها وحّددوا معالمها ، وافْتَنُّوا في تحديد مواضعها والإشارة إلى ملامحها الماضية ، وما ارتبطت به من علاقة حميمة بذكرياتهم مع الحبيبة، وأبرزها ذكريات العـــشق والهوى ولواعج الصبابة ، وها هم عادوا إلي مرابعها ، وقد دَرَسَتْ ديارها وذهبت معالمها ، وما بقى منها غيرالذكريات التي تأخذ صفة الإلحاح على عقل الشاعر ، فليس أمامه غيراسترجاعها ، والبكاء على أطلالها .

وهذا الجانب جعل من المقدمة الطللية مظهرا من مظاهر الانتماء في القصيدة الجاهلية ، فهـــي صورة توحي بإخلاص العربى لماضيه ، وتؤكد الانتماء الشعوري الي المكان والذكريات ، وتعبر عن صلة الماضي بالحاضر، و سلطان الانتماء للماضى بشقيه الزمانى والمكانى ، وسيطرته علـــى فكـــر الإنسان الجاهلى ووجدانه ، بحيث تأخذ دهشة التذكر مساحة واسعة في ذاكرته الشعرية ، وهكذا فقد كان الشاعر حين يشير إلى مخلفات الأطلال إنما يشير – في الواقع– إلى كل مااختزنته ذاكرته ، وما ظل خامدا في شعوره الباطني ، ومن ثم فهو يصور أحاسيس صادقة وعواطف جياشة ، لاسيما أن الديار تمثل الوطن المهجور ، إنه حين يقف عند الطلل لايعبر عن أساه وحزنه لفراق الحبيبة فحسب ؛ بل يتجاوز ذلك إلى الحنين للوطن ، ومايحويه هذا الوطن من أحبّة وصحب وأهل في الزمن الغابر، ومايثيره كل ذلك في نفسه من لهو وفرح ، وعذاب وضنى .

ومن جانب أخر فقد أصبح النزوع إلى الماضى ظاهرة جماعية وليست فردية ، وأضحت عـــادة مشتركة بين جميع الشعراء ، فعندما يقف الشاعر عند الأطلال ويبكيها فهو لا يقدم تجربة شخصية بل يقدم تجربة جماعية تمثلها الرؤيا الجماعية لهذا الشاعر أو ذاك ، وغدت المقدمات الطللية مرسوما فنيا جماعيا ، يمثل الأخذ به صورة الانتماء الفكرى والفنى ، فهي ليست سنّة طللية فحـــسب بـــل كانت سنّة فنية ونفسية ، تلونت بتلونات النفس الإنسانية في تعاملها مع ملابـــسات الحيـــاة ، ثم أسقطت كلها على الأطلال ، وهكذا صارت المقدمات الطللية في القصائد الجاهلية ظاهرة تصور الانتماء من أكثر من وجه .

وما يشد الانتباه إليه أن المقدمة الطللية متهمة بأنها ، أصبحت تقليداً فنياً متبعاً يسير على منواله

الجميع على أنه النموذج أو المثال المحتذى ، ومع هذا فهى ليست نصاً شعرياً مكروراً بتكرارالسياق العام الذي تدور حوله معاني المقدمة وتراكيبها ؛ لأنها تعطينا خصائص شعرية متميزة ، تدل علـــى فردية كل شاعر، وعلى شخصيته الشعرية ، فعلى الرغم من أحادية الموضوع وتشابه المواقف ، فقد حفلت المقدمة الطللية بقدر من الخصوصية التى مثلها اختلاف الأماكن التى كانت تمـــد الـــشاعر بروافد طللية ، وتنوع التجارب والذكريات التي جعلت أصحابها يقدمون تجـــارب متنوعـــة فيهـــا خصوبة وابتكار، تعترف بخصوصية أصحابها الذين اعتمدوا في صياغتهم الفنية على الطاقات الـــتي تفتقها خبايا النفس وتجارب الذات الشاعرة ، ومن هنا كانت رمزية الطلل تختزن هذه المعالم النفسية وتعمق من تجربتها ، وبالاستقراء نقف على تنوع أنماط المقدمة الطللية :

النمط الأول : يبدو وكأن الشاعر يرصد حالات الدمارالتى ألت إليها الديار ، فينقـــل هـــذه الصورة مجردة من المرأة التي هي المحرك الأول للبكاء على الأطلال في أحايين كثيرة ، وتسيطر صور الخراب الماثلة أمام عينيه

نرى ذلك في مطلع معلقة امرئ القيس:: (١)

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشمـــأل

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمـــلى

وإن شفائى عبرة مهـــــــراقة وهل عند رسم دارس من معول

ومطلع معلقة لبيد بن ربيعة (٢):

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبّدَ غولها فرجامهـــا

فمدافع الريان عري رسمها خلقاً كما ضمن الوحيَّ سِلامُها

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صماً خوالد ما يبين كلامـــها؟

و نشير إلى هذا المثال من شعر زهير بن أبي سلمى (١):

---

(١) ديوان امرئ القيس ، مصدر سابق ، ص ٦٠.

(٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري– ، مصدر سابق ، ص ٢٠٥،

عفا من آل فاطمة الجواء فيمن فالقوادم فالحساء

فذو هاش فميْثُ عُرَيْتنات عفتها الريح بعدك والسماء

فذَروة فالجناب كأن خنس ال نعاج الطاويات بها الملاء

تحمَّل أهلها عنها فبانوا على آثار مَن ذهب العفاء

. ولا ضير من مثال آخر يسوقه لنا عبد الله بن سلمة الغامدي: (٢)

لمن الديار بتولعٍ فيوسِ فبياض ريطة غير ذات أنيس

أمست بمستن الرياح مفيلةً كالوشم رجِّع في اليد المنكوس

وكأنما جروُّ الروامسِ ذيلَها في صحنِها المعفوِّ ذيلُ عروس

فالرياح أتت على الديار عفتها ، وعلى الرسوم محتها ، وغدت قفرا خرابا من أهلها ، مما أحدث للنفس صدمة ، ولم تعد يشفى سقمها عبرة ، تلك هى الصورة العامة فى هذا النمط من المقدمات ، صورة صامتة موحشة ، ماتت فيها الحياة ، بعد أن غاب عنها الأحباب .

وفى النمط الثاني : نجد أن الأطلال انتقلت إلى خلق حالة أخرى من حالات القلق والتوتر الفنى حين تطل مرائى الطلل من مخزون الذاكرة ، فى صورتبدو حية نابضة ، وتتداخل مع البديل لواقع الطلل ، وهى صورصامتة جامدة ، تستدعي ما يمكن تسميته الحالة التوافقية للشعور المتناقض عند الشاعر ، وقد يخفف الشاعر من غلواء التناقض الماثل ببعث الحياة على الطلل الصامت من خلال مناجاته ، أو الحديث إليه ، وكأنما عودة لحياة جديدة تستدعيها حالته الشعورية، ومن أمثلته هذا المطلع لزهير بن أبي سلمى (٣) :

أمن طلل برامة لايريم عفا وخلا له حقب قديم

تحمل أهله منه فبانوا وفىعرصاته منهم رسوم

---

(١) ديوان زهير بن أبي سلمى ، مصدر سابق ، ص ٥٦-٥٨(الجواء جمع جو، وهي أرض. يمن والقوادم في بلاد غطفان...)

(٢) المفضليات: ، مصدر سابق . ص ١٠٥ ق ١٩ (تولع ويبوس وبياض وريطة: مواضع. المستن: موضع الاستنان أي الجري. المفيلة: المطموسة)..

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى ، مصدر سابق ، ص٩١

يلحن كأنهن يد فتـــــــاة ترجع فى معاصمها الوشوم

عفا من أل ليلى بطن ساق فأكثبة العجالز فالقصيـــــم

تطالعنا خيالات لسلمـــــى كما يتطلع الدين الغريـــــم

ومنه قول النابغة الذبيانى[١]:

يادار مية بالعلياء فالســـند أقوت وطال عليها سالف الأمـــد

وقفت فيها أصيلانا أسائلها أعيت جوابا وما بالربع من أحـــد

إلا الأوارى لأيا ما أبينهـــا والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

ردت عليه أقاصيه ولبـــده ضرب الوليدة بالمسحاة فالثـــأد

خلت سبيل أتى كان يحبسه ورفعته إلى السفجين فالنضـــــد

فالشاعر يناجى الدارالتى ارتفعت مكان ومقاما ، يناديها أسفا عليها ، وتشوقا إلى أهلها ، وقد أقفرت وخوت ، فلا مجيب ومع هذا يقف مواصلا زمنا يسائلها وهى تعجز عن الرد ،

بعد أن خلت إلا من محابس الخيل التى لايتبينها إلا بجهد جهيد ، والحفيرة التى حول البيت كأنما حفرت لتتجمع فيه مياه السيول والأمطار، وقدلبدت امرأة ناصيته ، ونحت أتى السيل عنه ، ورفعته حتى يحجز مياه السيول خارجه .....إلى أن يأتى إلى قمة توتره النفسى فى الصورة التالية :

أمست خلاء وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد

أما النمط الثالث : ويبدأ الشعراء فيه بمقدمة النسيب المرتبطة بالمقدمة الطللية ، حتى غدت قسماً منها ، فالذكريات مع الحبيبة التي يتوجه إليها بالحديث ، كما لو أنها حاضرة بالفعل ، فيبدأ بوصفها ، وتذكرحالها أو أيامها ، وكأنه تعويض أو خروج من حالة الدمار النفسى الذى يقف خلف أطلالها إلى حالة من التوازن فى معايشة الماضى قبل أن تمتد إليه عوادى الزمن . ولعل مطلع قصيدة الأعشى خير مثال لذلك .يقول [٢]:

---

(١) ديوان النابغة الذبياني: ، مصدر سابق ، ص ٣٠. أخنى عليها: غيّـرها وأفسدها» .لبد»: زعموا أنّه نسر كان للقمان بن عاد عمّر طويلاً

(٢) –شرح المعلقات السبع، الزوزني ، دار الحكمة، دمشق، ١٩٨٠، ص١٨٣، ١٨٤.

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل

كأن مشيتها منبيت جارتها مرالسحابة لاريث ولا عجل

تسمع للحلي وسواسا إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل

فالشاعر يستغرق فى وصف الحبيبة ، هربا مما تستدعيه الأطلال من ذكريات مؤلمة . وفى كافة الأنماط تكشف المقدمة الطللية فى القصيدة الجاهلية عن علاقة الانتماء عند العربي بالمكان الدارس ، وبالزمان حين تحدث المفارقة بين الماضى والحاضر ، بل غدت المقدمة الغزلية مظهرا من مظاهر الانتماء في القصيدة الجاهلية ، حين تعانق شوق الحبيبة بشوق لمكان الهوى وملاعب الصبابة ، فيتغلف حب الإنسان بعشق موطنه والانتماء إليه ، فهذه أسماء المرية وقد غلفت حبها لصاحبها عامر بحب الوطن والشوق إليه، فقالت [١] :

أيا جبلَيْ وادي عُرَيْعرة التي نأت عن ثوى قومي وحق قدومها

ألا خليًا مجرى الجنوب لعله يداوي فؤادي من جواه نسيمها

وقولاً لركبان تميمية غدت إلى البيت ترجو أن تحط جرومها

بأن بأكناف الرغام غريبة مولهة ثكلى طويلاً نئيمها

لم يتوقف الجاهلى بإحساسه الفطري السليم عند الأطلال ليحملها تجربته ، بل

عبرعن روح الار تباط بالأرض من خلا اختيار مرموز أخر هو الحيوان ، ولا سيما الخيل والإبل . فناقة المثقب العبدي ، تتأوه شوقا لموطنها تأوه المكلوم ، وتنظر فى حسرة وقلق حين يجهزها مزمعا الرحيل ، مظهرة حزنها على مفارقة وطنها فتبثه همومها ومواجدها ، يقول [٢]:

إذا ما قمت أرْحَلُها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

(١) الأمالي: لأبىعلى القالي ، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الكتاب العربي بيروت – ج ٢ ص ١٩٧. (الجروم جمع جرم: الجسم. الرغام: التراب. النئيم: الصوت). (الجروم جمع جرم: الجسم. الرغام: التراب. النئيم: الصوت).

(٢) شرح المفضليات ، مصدر سابق ، ص ٢٩١. (الوضين: الحزام. درأته: مددته وشددت به رحلها. الدين: الدأب والعادة)

تقول إذا درّأتُ لها وَضِـــــيني : أهذا دينه أبداً ودينـــــــــــي

أما ناقة عبيد بن الأبرص، فتحن هياما، وقيم شوقاللعودة الوطن، وتتلهف لرؤية جباله ، وتتشوف لعفرته وترابه ، فتجدها تغذ السير إليه مع أنه يكره الوطن الذي لا يجد فيه حباً وإخلاصاً- قال [١] :

دنا منكِ تجواب الفلاة فقلّصي بما قد طباك رِعْية وخفوض

فهل المفارقة بينه وبين الناقة هو حديث النفس والقلب ، وهل بغض بعد هند الوطن إليه أم أنه يريدهما معا لا يطيق رؤية أحدهما دون الأخر، ربما.....:

وذكر الراعي النميري ، فثمة تلاقى بين نزوع الإبل إلى أوطانها ، ونزوعه إلى ديـــار أحبابـــه ، فالأحبة بانوا ، فليس من بد أن نقصد الأرض التى قصدوها ، وشرد الفكر فى صـــحراء مترامـــة الأطراف ، وأهاجت الهيف اليمانية الرغبات الكامنة ، والتقت المنازع بينه وبين بعيره ، كل إلى هواها انطلق يقول [٢]:

بان الأحبة بالعهد الذي عهدوا فلا تَمالُكَ عن أرضٍ لها عمدوا

وراد طرفك في صحراء ضاحية فيها لعـــينيك والأظعانَ مَطرد

واستقبلت سربهم هيف يمانية هاجت نزاعاً وحاد خلفهم غرد

ويصور طفيل الغنوي نزوع فرسه الكميت الأحمر، الذى نشأ منعما ، لم يكابد صولات الأفراس ومعاركها ، شده الشوق إلى الوطن والحنين إليه، فترع نزوعا إلى وديانه وجباله ، يقذف فى سيره بلهفة المشتاق. قال [٣]:

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ، مصدر سابق ، ص ٨٨-٨٩. (القلوص: الناقة. الوهن من الليل: بعد منتصفه. قلصي: شمري للسفر. طباك: دعاك. الرعية: المرعى. الخفوض: الدعة والسكون).

(٢) ديوان الراعي النميري ، جمعه وحققه راينهرت فايبرت بيروت : المعهد الالماني للابحاث الشرقيه ; فيسبادن : فرانتس شتاينر، ١٩٨٠م مصدر سابق ، ص ٥٤-٥٥.

(٣) ديوان طفيل الغنوي ، مصدر سابق ، ص ٢٣. ويقال: كُمَيْتٌ مُدَمّىً؛ يقول: تضرب حُمْرَتُها إلى الكُلْفة ليست بشديدة الحمرة. قال أبو عُبيدَةَ: كُمَيْتٌ مُدَمّىً إذا كان سوادُه شديدَ الحُمرة إلى مَراقّه.. والمُدَمّى من السِّهام:أي قد أُغْفِيَتْ. حتى حَمَلَتِ الشَّحْمَ على سَرَواتها.وقال الليث: إذا أَعْطَى الرجلُ فأكثرَ، قيل: قد أَسْهَبَ.ومكانٌ مُسْهِبٌ: لا يَمْنَع الماءَ

وكمتاً مدماة كأن متونهـــا جرى فوقها واستشعرت لون مذهب

نزائع مقذوفاً على سرواتها بما لم تخالسها الغزاة وتسهـــــــب

فصورة الانتماء موجودة في الحيوان كما فىالإنسان، فلدى الخيل والإبل النزوع إلى الـــوطن وهو نزوع فريد وعجيب. قال الأصمعي معبراً عن نزوع الإنسان والحيوان إلى الـــوطن: النَّـــزوع "الذي يطرب إلى بلاده فيزع إليها، واسم ذلك النزاع [١].

وهكذا ترسم لنا القصيدة الجاهلية علاقة الانتماء كظاهرة ؛ يتجلى فىالمظهر والجوهر فى البناء والمضمون.. مما حدا بالأستاذ احمد أمين إلى القول: " تشعر حين تقرأ الشّعر الجاهلي أن شخـــصية الشاعر اندمجت في قبيلته ، حتى كأنه لم يشعر لنفسه بوجود خاص ، وقلّ أن تعثر على شـــعر قـــد ظهرتْ فيه شخصيةُ الشاعر ، ووصف ما يشعر به وجدانُه ، وأظهر فيه أنه يحس لنفـــسه بوجـــود مستقل عن قبيلته [٢] ".ولعلّ هذا ما دفع غيره إلى أن يذهب أبعد من هذا وهو أن: " تطغى شخصية القبيلة من حيث المعاني، فلا يكون للفرد في القصيدة إلا هذه الصياغةُ الفنيةُ التي تعدّ مظهر براعته في الأسلوب [٣] وقد رأينا أن امتلاء نفس الجاهلي بعشيرته وقبيلته ، ملأعليه دنياه ، وظهر انتمـــاؤه فىلفظه ومعناه ....

(١) الكنز اللغوي : الأصمعي ، بيروت –المطبعة الكاثوليكية ، ص ٩٦.

(٢) ". فجر الإسلام:أحمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦ ص٥٩

(٣)– الأدب العربي في الجاهلية والإسلام :"رضا كحالة، المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٢... ٧٥.

المبحث الثالث

مظاهر التمـرد

فى الشعر الجاهلى

على الرغم من مظاهر الانتماء التى استعرضناها ، فيما سبق ؛ إلا أنها لم تكن الصورة الكليـــة لخريطة التوجه لدى العربى فى الجاهلية ، فقد حملت لنا القصيدة الجاهلية وجوها أخرى ، ومظـــاهر مختلفة ، اقتضتها معطيات الواقع السياسى والاجتماعى ، وما لابستهما من ظروف وأحداث ، منها سطوة الملوك والجبابرة الذين حاولوا إخضاع الناس قهرا لظلمهم وجبروتهم ، فىمقابل نفس العربى التى تأبى الخضوع ، وترفض الخنوع ، فواجهت الجبروت بالتمرد ، ومنها كذلك تقاليـــد القبيلـــة الحاكمة التى قد تبدو جائرة أو متحيفة فى نظر المتمردين عليها ، ومنها الأعـــراف والتواضـــعات الاجتماعية التي رآها البعض ، غلا يكبل ، وحبلا يشنق ، يستدعى الخروج من دائرته ، و منها ماهو راجع إلى حالات فردية لبعض الأشخاص ذوى الميول الاستقلالية.....إلى غيرذلك [١]

وسوف نستعرض معا هذه الصور كما نطقت بها قوافى الشعراء فكانت سجلا علـــى مـــدى الدهرلنمط أخر من أنماط السلوك العربى فى الجاهلية .

أولا : التمرّدعلى الملوك والسادة

مثل الملوك وذووهم فى العصر الجاهلى طبقة سياسية واجتماعية ، ترنو إليها عيون العامـــة ، و تَتطَلّع أفئدتهم إلى نيل منزلتهم ، والانتماء إلى طبقتهم ، وأصبح رب الخورنق والسدير نموذجاً تهفوا إليه نفوسهم فى لحظات الانتشاء والسكر، طالما أنه لاسبيل إلى ذلك فى اليقظة والـــصحو ، وهـــذا مايفصح عنه قول المُنَخّل اليشكريّ [٢]:

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د /يوسف خليف ،مرجع سابق ، ص٣٣

(٢) – البيتان ص٩ من الأغانى ، الجزء العاشر مصدر سابق ، شرح ديوان الحماسة مصدر سابق ٥٢٩/٢ والمنخل بن عمرو ويقال ، المنخل بن مسعود بن أفلت بن عمرو بن كعب بن سواءة بن غنم بن حبيب بن يشكر بن بكر بن وائل وذكر أبو محلم النسابة أنه المنخل بن مسعود بن أفلت بن قطن بن سوءة بن مالك بن ثعلبة بن حبيب بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر وقال ابن الأعرابي هو المنخل بن الحارث بن قيس بن عمرو بن ثعلبة بن عدي بن جشم بن حبيب بن كعب بن يشكر اقمه النعمان بامرأته المتجردة فقتله شاعر مقل من شعراء الجاهلية ، الأغانى ، مصدر سابق ج١٠ ص٥

فإذا انتشيتُ فإنني رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسدير

وإذا صَحَوْتُ فإنني رَبُّ الشُّوَيهةِ والبعير

لكن هيهات أن تتحقق له هذه الأحلام البعيدة الجميلة ، فتوقظه لحظات الصحو لتوقفه أمـــام حقيقته ؛ فإذا هو هو، عريان تحت وهج الحقيقة لم يتغير شيء من واقعه ، أماحسان بـــن ثابـــت ، فلتحقق غفلة الخمر ماعجز عنه الواقع ، فيهرب إلى الخدر، ليبلغ منزلة الملوك ، أودرجة عالية مـــن الشجاعة تسمح له بالمرور إلى عالم الأقوياء ، عبرعن ذلك في قوله [١]:

وَنَشْرَبُها، فتتركُنا مُلُوكاً وَأُسْداً، ما يُنَهْنِهُنَا اللّقَاءُ

وهكذا لجأوا إلى الوهم يحتمون فيه ؛ ويسقطون من خلاله صورة هؤلاء الملوك الذين اتخذوا من الترهيب وسيلة للسيطرة على الناس ، وإجبارهم على دفع إتاوات مبالغ فيها ، يحس العربى فى دفعها بالخزى والمهانة ، وكانت نظرتهم المتعالية الممعنة في احتقار عامة الناس ، ومساواة السادة بالعبيـــد ، عوامل مهمة فى أن يصل السيل الزبى ، فلم يجدوا بدا أمامهم إلا التمرد على الملوك وذويهم ، وقد كان عمرو بن هند من أكثر ملوك الجاهلية ظلماً ، يقول عامر بن الطفيل واصفا ظلمه [٢]:

أَلَحَى علينا بَأَظفَارٍ فَطَوَّقَنَا طَوْقَ الحَمامِ بِاتْعَاسٍ وإرْغَامِ

فحلقات ظلمه ودوائرها قد سجنت الجميع داخلها مرغمين تعساء ، وآية ظلمه أنـــه جعـــل لنفسه يوم بؤس ، يركب فيه للصيد ، فيقتل أول من يلقاه ، ويوم نعمة ، يقف الناس فيـــه ببـــاب عمرو، فإن اشتهى حديث رجل أذن له ، وإلا فلا ، وقد وصف طرفة هذا بقوله [٣]:

قَسَمْتَ الدّهْرَ في زَمَنٍ رَخِيٍّ كَذاكَ الحُكْمُ يُقْصِدُ أو يَجُورُ

لَنَا يومٌ ولِلْكِرْوانِ يَـــــوْمٌ تَطيرُ، البائساتُ ، ولا نَطِيرُ

فَأمّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمُ نَحْـــــسٍ تُطَارِدُهُنَّ بالحَدَبِ الصُّقُـــورُ

---

(١) ديوان حسان ، مصدر سابق ، ص٧٣. وينهنه: يكُفّ

(٢) – ديوان عامر ، مصدر سابق ، ص ١٣٣

(٣) – ديوان طرفة، مصدر سابق ، ص١٠٢–١٠٣ والحدب: ما ارتفع من الأرض في غلظ. والركب الراكبون، وهم العشرة فما فوقها

وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَظَلُّ رَكْباً وُقُوفاً ما نَحُلُّ و ما نَسيرُ

ولذا كثر التمرد عليه . فشدّة التمرد على الملوك تناسبت مع شدّة ظلمهم ، الذى عبر عنها المتلمّس ، بقوله [١]:

والظَّلْم مَرْبُوطٌ بِأَفـ نِيَةِ البُيُوتِ أَغَرُّ أَبْلَقْ

فظلمه تغلغل بينهم ، وتخلل بيوتهم ، وصار مُساكنهم ، واضحا للعيان ، لاينكره منكر ، ولايستطيع دفعه دافع ...

والنعمان بن المنذرلم يكن أقل من عمر عسفا وجورا ، فقد ألحق بتميم الذلّ لامتناعهم عن دفع الإتاوة ، فوجه إليهم أخاه الريان بن المنذر وجل من معه من بكر بن وائل فاستاق النعم ، وسبى الذراري ، يصف عمرو بن المُشمرَج اليَشكريّ ذلك فيقول [٢]:

لما رَأَوْا راية النعمانِ مُقْبَلَةً قالوا أَلاَ لَيْتَ أَدْنى دارِنا عَدَنُ

ياليتَ أُمَّ تميمٍ لم تكنْ عَرَفَت مُرّاً وكانَتْ كَمَنْ أَوْدَى به الزَّمَنُ

فهذه الدرجة من المهانة والإذلال قد كسرت كبرياء التميميين ــ وهم ليسوا بدعا بين القبائل فالدائرة تدور ، كل يومه آت ، فنفرالجاهليون من عسف الملوك ، كيف لا وهم الذين يأنفون من الانقياد إلى بعضهم البعض ، وقد تمردوا فى وجه سادات قومهم ، حين يقع منهم الظلم ، ويأبون الرضوخ لأحكامهم ، فكيف بالملوك وقد تنكبوا سبل الرشاد ، وهذه الصورة من التمرد فى وجه الملوك مثلها أصحاب الأنفة ممن اعتزوا بقبائلهم وأنسابهم وقدراتهم ، فرفضوا الدخول تحت راية نظام يملكّهم ، أوالانتماء لحكم يسوسهم ، أوالإذعان لإرادة تغلبهم . وتجلّى التمرد على الملوك في صور متعددة منها ؛

امتناع القبائل عن دفع الإتاوات التى أثقلت كواهلهم ، وقد عَبّر عن ذلك جابر بن حُنَيّ التغلبي في قوله[٣]:

---

(١) ديوان شعر المتلمس، مصدر سابق ، ص٢٥٣. وأبلق: في لونه سواد وبياض.

(٢) راجع الكامل ، تأليف : أبي العباس محمد بن يزيد ، المبرد ، مؤسسة المعارف ، بيروت ج٢ص٢٦٧ ، أبو المشمرج.

(٣) اليشكري هو : عمرو بن المشمرج اليشكري ، شاعر جاهلي ، معجم الشعراء ، المرزباني ، مصدر سابق ، ص٢١ شرح اختيارات المفضل ٢ ، مصدر سابق ، /٩٥١. والمكس: الضريبة التي يأخذها الجابي من التجار.– وتستحي: لغة في تَستَحِي. والاستفهام في البيت الثاني للتقرير. وقوله: لايَبُؤ الدمُ بالدّم: بأن لقوم الشاعر فضل على الملوك جابر بن حُني التغلبي ؟ – ٦٠ ق. هـ / ؟ – ٥٦٤ م ، جابر بن حني بن حارثة بن عمرو، من بني تغلب.كان شاعراً نصرانياً ، من أهل اليمن،.. انظر ترجمته في معجم الشعراء للمرزباني. مصدر سابق ، ص ٢٠٦

وفي كُلِّ أَسْواقِ العِراقِ إتاوةٌ وفي كلِّ ماباعَ امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

أَلاَ تَسْتَحِي مِنّا مُلُوكٌ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنا، لاَيَبُؤُ الدَّمُ بالـــــــدَّمِ

فهو يصور كيف تعددت الإتاوات والمكوس ، بصورة فجة تستدعى صرخة استنكار، وصيحة تهديد لهؤلاء الملوك المستغلّين الذين لا يرعون عهدا ولا ذمة ؛ وهى فوق ذلك عـــار ، لايرتـــضيه الأحرار ، فيزيد بن خَذّاق الشّنّي يخاطب النعمان بن المنذر قائلا[١]

أكُلُّ لَئيمٍ منكُم وَمُعَلْهَـــــجٍ يَعُدُّ عَلَيْنَا غَارةً، فَخُبُوسَـــــــــا؟

أكابْنِ المُعَلّى خِلْتَنا وَ حَسِبْتَنا صَرارِيَّ، نُعْطِي الماكِسِينَ مُكُوسا؟

يرفض إعطاء الإتاوة بنظام القرصنة ، تحت قهر الجنود المرتزقة من اللئام والأدعياء .

ومنها : عصيان أوامرهم و إظهار التحدى لهم ، بل وهجاؤهم :

من ذلك أنه قد رغب ملك بِسَكابِ ، فرس عبيدة بن التميميّ ، فمنعه إياها ، وقال له[٢]::

أبيت اللعن إن سكاب ليست بعلق يستعار ولا يباع

سليلة سابقين تناجـــــلاها يضمهما إذا نسبا كراع

ولا تطمع أبيت اللعن فيها ومنعكها بوجه يستطاع

يقول إن فرسي متاع نفيس لا يعرض للبيع ولا يبذل للإعارة ، ويؤثر على العيال فتشبع ويجـــوع لأجلـــها العيال ، لأنها فرس حسبية نسبية ، فلا تحدث نفسك بتملكها ، فهى مصانة محمية ، لا مطمع لأحد فيها.

والمتلمس الضبعي يهدد عمرو بن هند ويتوعده ، بأنا رماحهم نافذة فى عنقه، يقول [٣]:

---

(١) شرح اختيارات المفضل ، مصدر سابق ، ٣/ ٢٨٧. والمعلهج: ليس بخالص نسباً. والخبوس: الأخذ والظلم. وابن المعلى: رجلٍ اهتضم حقّه، فرضي بالدّنية،. والصّراري: الملاحون. يقول "ولاتظنّنا ملاحين وأنباطاً يرضون بجور الجائر".ويزيد الشّنّي هو : يزيد بن الخَذّاق الشّنّي العبدي بن عبد العتيق.شاعر جاهلي كان معاصراً لعمرو بن هند.

(٢) هو: عبيدة بن ربيعة بن قحفان بن ناشرة بن سيارة بن رزام بن مازن ومن بني عمرو بن تميم.يقال

(٣) لفرسه: سكاب. وهو فارس سكاب ، راجع أسماء خيل العرب وفرسانها ،لابن الأعرابى ، تحقيق محمد على السلطانى ،مؤسسة الرسالة ــ دمشق ، ص١١ ، وأبيت اللعن تحية كانت تقال للملوك في الجاهلية وسكاب اسم فرس والعلق الشيء النفيس ٥ مفداة أي تفدى من كرمها وعتقها ٦ السليل والسليلة الولد وأصل الكراع في اللغة أنف يتقدم في الجبل فسمي به هذا الفحل لعظمه يقول ومنعكها بشيء يستطاع ديوان الحماسة ،ج١، مصدر سابق ، ص٦٧

فَلَنِنْ تَعِشْ، فَلَيَبْلُغَنْ أَرْمَاحُنا مِنْكَ المُخَنَّقْ

أما حاتم الطائي فهولا ينكسر لأى ظالم قوى تحت أى تهديد ولما لا ؛ وقد أعد للأمر عدته وجمع عديا قضها وقضيضها تحسبا لأى رد فعل [١]:

وأَقْسَمْتُ لا أُعْطِي مَلِيكاً ظُلاَمَةً وَ حَوْلِي عَدِيٌّ: كَهْلُها وغَرِيرُها

وبلغ تحديهم للملوك ذروته بالتعرض لهم بالهجاء كقول المتلمّس يهجو عمرو بن هند [٢]:

شَرُّ المُلُوكِ، وشَرُّها حَسَباً في النّاسِ مَنْ عَلِمُوا ومَنْ جَهِلُوا

الغَـــدْر والآفـــاتُ فالْهَمْ ، فَعُرقُوبٌ لَهُ مَثـــــلُ شيمَتـــهُ

وقد أقذع فى هجائه فوصفه بأنه أشر الناس قديما وحديثا ، لاعهد له ، ولا أمان له فالغدر شيمته ، والخلف ديدنه .

ومنها الفخربعصيان الملوك والتصدي لجيوشهم ، بل وقتلهم،

يسجل ذلك عمرو بن كلثوم [٣]:

وأَيّامٍ لنا غُرٍّ طِـــوالِ عَصَيْنا الملك فيها أنْ نَدينـــا،

وَسَيِّدِ مَعْشَرٍ قَدْ تَوَّجُـوهُ بتاجِ المُلْكِ يَحْمِي المُحْجَرِيْنا

تَرَكْنا الخَيْلَ عاكِفَةً عليهِ مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها صُفُونـــــا

هم أصحاب أيام ناصعة مجيدة ، رفضوا خلال عهود الرضوخ لظلم الملوك أو الأكاسرة ، بـــل دحروهم ، وردوهم على أعقابهم ، كما أعملوا فى بنى حجر ومليكهم سيوفهم .

---

(١) ديوان شعر المتلمس ، مصدر سابق ، ص٢٤٥

(١) ديوان شعر حاتم ، مصدر سابق ، ص ٢٣٤. .

(٢) انظر الأغاني ، مصدر سابق ،ج٢٤ ص٢٥١ ، ٢٥٢).

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم، مصدر سابق ، ص٨٢-٨٣. والمحجرين: الملجئين. وعاكفة : واقفة. والصُّفونا جمع صافن، صفة للدابة إذا وقفت على ثلاث وثنت سُنبُك يدها الرابع

ويقول بشامة بن الغدير، مفتخرا[١] :

قومي بنو الحرب العوان بجمعهم والمشرفية والقنا إشعالـــها

مازال معروفا لمرة في الوغـــى عل القنا وعليهم إنهالـــــها

من عهد عاد كان معروفا لـــنـــا أسر الملوك وقتلها وقتالها

يقول قومي شجعان فهم أرباب حرب ، وأصحاب تجربة ، وأهل خبرة بها ، فهم قد باشروها مرة بعد أخرى ، وليسوا حديثي عهد بها ،بل هم مسعروا الحرب وموقدوها . وهم موكلون بإثخان العدو والفتك به ، وقد توطنوا على قتال الملوك وقتلها ، منذ الأبد ، وهذا معروف مشهود

ولقد تسبب ظلم زهير في إقدام خالد بن جعفر الكلابي على قتله، وقوله يفخر على هوزان [٢]:

بَلْ كيف تَكْفُرني هَوازنُ بَعْدَما أعتقتُهم فتوالدو أحْـــــرارَا

وقتلتُ رَبَّهمُ زهيراً بَعْـــدمـــــا جَدَعَ الأنوفَ وأكثرَ الأوتارا

يتعجب ، كيف لهم أن يبخسوه حقه ، وقد خلصهم ممن يسترقهم ، بعدما أخضعهم وأذلهم ، وباتوا غير قادرين على النيل منه .

وهذا عبيد بن الأبرص يفخر بأن قومه من بنى أسد رفضوا الانقياد لملوك كندة وقتلوا ملكـــه (حجر) أبو امرىء القيس أنفةً [٣]:

أزعمت أنك سوف تأتى قيصرا فلتهلكن إذا وأنت شأمى

نأبى على الناس المقادة كلهـــم حتى نقودهم بغير زمام

فهم سادة يقودون ولا ينقادون ، فلا تسول لأحد نفسه أن يملكهم ، وإلا يكـــون قـــد أورد نفسه مورد الهلاك .

---

(١) الحرب العوان التي قوتل فيها مرة بعد مرة والمشرفية السيوف والقنا الرماح والإشعال الإضرام ، والعل من علة إذا سقاه ثانيا والإنهال من إنهله إذا سقاه أولا ، انظر/ شرح ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، ج١ ص٢٣٩. والحجاب: ما غلظ من الحَرة وارتفع. والموقر : السهل أسفل الجبل. تكون به وَقَرات: آثار.

(٢) العقد الفريد ، مصدر سابق ، ٥/٢١٤- ٢١٥. و الأغاني ، مصدر سابق ،ج ١١ص٩٤ ،٩٥.

(٣) – المصدر السابق ص١–من الوافر ديوان عبيد بن الأبرص دار دار بيروت ص١٢٩–١٣٠

وقوله [١]:

أَبَوا دِينَ المُلُوكِ فَهُمْ لقاح إذا نُدِبُوا إلى حَرْبٍ أَجابُوا

لأن الطاعة للملوك في عرف الجاهلين تساوي ذل السبي ، فهم يرونها انتهاك للكرامة ، وضياع للشرف.

وهكذا نرى أنّ التمرد على الملوك اتخذ صوراً متعددّة ، ورأينا رفض هؤلاء لسلطة الملـــوك ، وذلك راجع إلى اعتزازهم بذواتهم ، واعتدادهم بأنسابهم ، فرفضوا الإذعان لتعنت الملوك وجبروتهم ، والانقياد لسلطتهم وسلطانهم ..

ثانيا: التمرد على القبيلة:

أخذ التمرد على القبيلة صورتين رئيستين ، إحداها تتطور فيه العلاقة بين الفرد وقبيلته إلى الانفصام التـــام ، ويتبع ذلك الخروج ، والهجر، والترك ، ثم الهجوم القاسى والنقد اللازع ، وأحيانا العداوة الشديدة والخـــصام المبالغ فيه ، وهذا اللون يتحقق مظهره عند من عرفوا بالصعاليك ، وسيأتى الحديث عنهم ، وأما اللـــون الثـــانى فيكون التمرد فيه تمردا لدفع ظلم أو إثبات حق ، وهذا النوع من التمرد لا ينعتق فيه المتمرد من قبيلته كليـــة ، ولكنه يقف ليواجه دواعى اضطهاده أو ظلمه بين أهله وعشيرته ، فأقسى ما يلقاه المرء أن يجد الظلم من ذويـــه ، وذلك يمثل عبئا نفسيا ثقيلا لا يطاق ؛ فإن ازداد الظلم انقلب الانتماء إلى القبيلة حبلاً واهنـــاً ولعـــل أوس قـــد أحسن التعبير عن هذا بقوله[٢]:

أقيم بدار الحزم ما دام حزمها وأحر إذا حالت بأن أتحولا

وما قصة عنترة ؛ إلا مثالا للتمرد لرفع الظلم ، وليس للانسلاخ عن القبيلة ، فقد عانى مـــن الظلم الاجتماعي نتيجة فارق اللون الذي خلقه الله عليه ، وكان أمامه أن يذعن كما أذعـــن ألاف غيره ، أو أن يخرج على قبيلته ، ويتمرد على موقفها منه ؛ للوصول إلى حريته وإنهـــاء عبوديتـــه ، فبحث عن أسلحته التى وهبه الله إياها ، وهما فروسيته وشجاعته ، وقوة منطقه وحجته . وآثـــر أن يعتمد عليهما ، دون أن يشوه انتماءه إلى قبيلته ، فتمرده على اضطهاده يأتى من عمق انتمائه [٣]

(١) –جاء في اللسان: (لقح) :" قوم لَقاح، وحَيّ لَقاح: لم يدينو للملوك، ولم يُملكوا، ولم يصيبهم في الجاهلية سباء").

(٢) ـــ ديوان أوس ، مصدر سابق ، ص٨٣..

(٣) ـــ ديوان عنترة، ، مصدر سابق ، ص ٣٣٦

وأنا المجرَّب في المواطن كلها من آل عبس منصبي وفعالي

منهم أبي حقاً فهم لي والـــد والأم من حام فهم أخوالـــي

وينتهي لونه الأسود إلى الأصالة ، وأمه ليست عارا يطوقه ؛ بل قد جمع عنـــصرين مهمـــين فى الوجود هما العنصر السامى والعنصرالحامى ، ولا يجد فى أي منهما غضاضة ، يقول[١]:

فإن تك أمي غرابيـــة من أبناء حام بها عبتني

فإني لطيف بيض الظُّبا وسمر العوالي إذا جئتني

فتمرد عنترة يتحقق في قدرته على إثبات انتمائه مثله مثل بقية أفراد المجتمع ، وأنه سيحمي حقه بحد السيف ، ولن يترك لأحد- مهما يكن- أن يعيبه ، أويفسد عليه انتماءه قال[٢]:

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري، وأحمي سائري بالمنصل

فعمق الانتماء أوجد التمرد ، حتى انتزع الاعتراف من جميع أفراد عبس ، واعتمـــد علـــى معطيات المجتمع الجاهلي الذى يقدس القوة ، فابن السوداء الذي حمى الناس في أكثر من معركة[٣]، قد دفعته فروسيته وأنفته إلى تثبيت انتمائه بحد السيف ، وصار مثلا على التحدي للعنصرية.

وأما المثال الثانى فيمثله ، طرفة بن العبد الذى تمرد على ظلم القبيلة ؛ دون أن ينكر انتمـــاءه إليها. ويعلن صيحته عالية فيقول: إنه ينتمي بكل كيانه إلى قبيلته بكر إلا أن ظلم قومه له ولأخوته الصغار ولأمه جعله يعيد النظر فى هذا الانتماء [٤]:

فمالي أراني وابن عمي مالـــكاً متى أدن منه ينأ عني ويبعـــــد؟

يلوم وما أدري علام يلومـــني كما لامني في الحي قرط بن معبد؟

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهنـــد

فالظلم الذى وقع لطرفة أمضه وأثر في نفسه ، وهيج فيها الأحزان وفجر بركان الغضب وكأنه

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٣٧-٣٣٨

(٢) المصدر السابق: ص ٢٤٨

(٣) الأغاني : الأصفهاني ، مصدر سابق ، ج٨، ص ٢٤١. وديوان عنترة ، مصدر سابق ، ص ٤٢

(٤) ديوان طرفة بن العبد ، مصدر السابق ، ص ١١-١٢

الحد القاطع. فكيف به وقد امتد هذا الظلم إلى أمه (وردة)؟ فقد ترك أباه إرثاً اغتصبه أعمامه ، فجاروا على حقه وحق أمه وإخوته ، يقول[١]:

ما تنظرون بحق وردة فيكم؟ صغُرَ البنون ورهط وردة غيَّبُ

والظلم فرّق بين حيّي وائل بكر تساقيها المنايا تغلبُ

والإثم داءُ ليس يرجى برؤه والبر برء ليس فيه معطبُ

والصدق يألفه اللبيب المرتجى والكذب يألفه الدنيء الأخيبُ

أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم إن الكريم إذا يحرَّب يغضبُ

إن الأسى النازف من الأبيات ، ليعبر عن مدى الألم الذى يعانيه ، فقد ترك ظلم أعمامه ، وغمطهم لحقه وحق أمه وإخوته في صباه جرحا لايندمل ، وظلم القبيلة التى حامى من أجلها ، ونكرانها حقه فى نجدته فى اللحظات الحاسمة ، أدى إلى اختلال معادلة انتمائه الاجتماعي ، فقد عرض حياته للخطر من أجلهم ، ولكنهم خذلوه ، وتركوه بين قبضة الأعداء دون أن تثور بكر لاستنقاذه[٢]:

أسلمني قومي ولم يغضبوا لسوءةٍ حلّتْ بهم فادحه

كلُّ خليلٍ كنتُ خالَلْتُهُ لا تركَ اللهُ له واضِحَه

كلهمُ أروغ من ثعلبٍ ما أشبهَ الليلةَ بالبارحه

فخرج على تقاليد القبيلة ، وعاش حياته بطولها وعرضها ؛ بلا قيد أو رقيب يقول[٣]:

فلولا ثلاث هن من حاجة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تُعل بالماء تزبد

وكري إذا نادى المضاف محنّباً كسيد الغضا نبهْته المتورد

---

(١)-المصدر السابق ص٣٧- ٤٠

(٢)-المصدر السابق ص- ١٥

(٣)-المصدر السابق ص ٣٢-

وتقصير يوم الدجنِ والدجنُ معجب ببهكنة تحت الطراف الممـــدد

و نظرا لارتفاع نبرة التحدى لمفاهيم القبيلة ، تحامته العشيرة ، وقطعوا أواصر انتمائه حتى غدا كالجمل الأجرب [١]:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي

إلى أن تحامتني العشيرة كلهـا وأفردت إفراد البعير المعبَّـــد

فقد جعل من تحديه للمفاهيم الاجتماعية.، وكسره لما تواضعت عليه القبيلة ، شكلا من أشكال الرد أوالانتقام ، فلم يكن الغرض من تمرده البحث عن البديل ولكن أراد كسر طوق القبيلة انتقاما منها ، وقد نال طرفة في خروجه على المفاهيم الاجتماعية عقوبة الخلع ، وهذا أقـــسى مـــا يهـــدد الانتماء لدى العربي في الجاهلي فلاهوحقق معادلة الوجود داخل عشيرة تحميه ، ولاهو حقق حلـــم خلاصه الفردي ، غير أنه لم يرد الانخلاع ولكنه وجد نفسه مدفوعا إليه ، فركب ناقته لا يلوي على شيء :يقول[٢]:

وإني لأمضي الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدي

لها فخذان أكمِل النحض فيهـــما كأنهما بابا منيف ممـــــرد

لها مرفقان أفتلان كأنـــــــها تمر بسلْمَي دالج متشـــــــدد

كقنطرة الرومي أقسم ربـــــها لتُكتنفن حتى تشاد بقرمـــد

...ولكنه حين فصلت الصحراء بينه وبين قبيلته سرعان ما أحس بالحنين لبكـــر وأرضـــها.. وشعرأنه منبت على ظهر الأرض ، وبدأ يتخيل له وطناً وبيتاً لا يعبأ بـــالريح الهوجـــاء ، ويـــصمد للمكاره ، فيعوضه عن وطنه السابق ، ويتخفف من الأوجاع التي يحملها فوق كاهله ، وينام فيـــه قرير العين... ولكن هيهات بين ما يحلم به وبين ماتسلمه إليه رحلته ، فيتمكن اليأس من نفسه ، فلا يرى أمامه غير الموت ملاذا ، فيرثى نفسه ، ويستثيرمشاعر الذين يتوقع أن يذرفوا دمعة أسى لفراقه

(١) المصدر السابق ص ٣٢

(٢) المصدر السابق ص ٣٩

، وهو فى كل ذلك يحاول الدفاع عن نفسه ويقدم تبريرا لماأقدم عليه :[١]

فإن متُّ فانعيني بما أنا أهلُـــــهُ وشقّي عليَّ الجيب يا ابنةَ معبدِ

ولا تجعليني كامرئٍ ليس همُّـــهُ كهمِّي ولا يُغني غنائي ومشهدي

بطيءٍ عن الجلّى سريعٍ إلى الخنا ذلولٍ بإجماع الرجالِ ملهـــدِ

فلو كنتُ وغلاً في الرجاللضرّني عداوةُ ذي الأصحابِ والمتوحدِ

وهكذا أسلمه الخلع إلى اليأس ، فهو لايريد أن يتمرد على قبيلته بغية الانسلاخ عنها ، ولكن لاسترداد حقوقه فلما خلعته القبيلة ، لم يستطع العيش خارجها ، فصارت المنايا أمانيا ، وحسب الموت أن يكون أحب إليه من حياة لم تمنحه ما يستحق .

وهذه صورة من صور التمرد ، يكون المتمرد فيها ، عين علي حقوقه أو حريته وعين على قبيلتـه ، فهـو يسخر من قبيلته لأنها تحولت عنه ، أوأنكرت حقوقه ولكنه لاينكرانتماءه إليها ، ويحاول أن يصل مـا انقطـع ، ولكنه قد يخفق في عودة الانتماء ، وقد ينتصر بانضوائه تحت زمرة جماعته وقبيلته ...

ثالثا : الصعلكة :

إن الصعلكة ظاهرة تجمع بين الفقراء ؛ الذين عجزوا عن الخروج من دائرة الفقر المـدقع ، والخلعـاء [٢] ؛ الذين عجزوا عن تغيير البناء الطبقي فى القبيلة ، فتعرضوا للطرد الاجتماعي من البناء القبلي .

وكان أمام هؤلاء وأولائك أحد« أمرين : إما أنْ يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع ، في أطرافه البعيدة ، خلف أدبار البيوت ، يخدمون الأغنياء ، أو ينتظرون فضل ثرائهم ، أو يستجدونهم في ذل واستكانة ، وإما أنْ يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمـة أبيـة ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرموهم[٣]».

---

(١) وهم الذين خلعتهم قبائلهم وأعلنوا البراءة منهم ومن جرائرهم

(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د /يوسف خليف ،مرجع سابق ، ص٥٧ ،٥٨

(٣) ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت، حققه وأشرف على طبعه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٦م، ص٧٠- ٧٢. والمشاش: راس العظم اللين. ومُيسّر: غنيّ. والعريش: ما يستظل به، ويتخذ من الأغصان، أو سعف النخيل. والمجور: الساقط، المقوض. والطليح: المتعب. والبعير المحسر: الذي سر حتى انقطع سيره.

وقد تفاوتت مواقف الصعاليك تجاه مواجهة واقعهم ، فهناك فئة من الصعاليك استمرأت ذل السؤال حلا لمشكلة فقرها ؛ فالواحد من هذه الفئة همه أن يملأ بطنه طعاماً ، وإذا كانت همة الفقير هى أن يحصل على الطعام ليأكل ، فقد ارتضى لنفسه أن يكون في درجة دنيا من الهرم الاجتمـاعي الجاهلي ، وأن يكون غرضاً لسهام الهجاء والتقريع وهذا الصعلوك لا خير فيه ، يمثل ذلـك قـول عروة بن الورد :

لَعَى اللهُ صُعْلوكاً إذا جَنَّ لَيْلُهُ	مَضَى في المُشَاشِ آلفاً كُلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الغِنَى مِنْ نفسهِ كلَّ ليـلةٍ	أصابَ قراها مِنْ صديقٍ مُيَسَّـرِ
ينامُ عِشَاءً ثمَّ يصبحُ طاويـاً	يَحُثُّ الحَصَى عن جنبهِ المُتعفـرِ
قليلَ التماسِ الزادِ إلا لنفسـهِ	إذا هو أَمْسَى كالعريشِ المُجَـوَّرِ
يُعينُ نِسَاءَ الحيِّ ما يَستَعْنـهُ	ويُمْسي طَليحاً كالبعيرِ المُحَسَّـرِ

هذه الصورة المزرية التى رسمتها المقطوعة الشعرية ، لحال هذا الصعلوك ، يقتات الفـضلات ، وينتظر بواقى الولائم ، ويعيش حياة تقارب حياة الحيوان ، همه القوت الذى يسد رمقه ، مرة يجده ، وأخرى يبيت طاويا .

وهناك من كسر طوق الانتماء ، وغزا ليحمي وجوده ، ويحقق ذاته طالما أن الفقر طريق المذلة والهوان:

دعيني للغنَى أسعَى فإنَّـي	رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيـرُ
وأبعدُهم، وأهونُهم عليهـم	وإن أمسى لـه كرمٌ وخيرُ
ويقصِيهِ الدَّنِيُّ وتزْدَرِيـه	حليلتُهُ ، وينهرُهُ الصغـيرُ
ويلفى ذُو الغنى ولـهُ جَلالٌ	يكادُ فؤادُ صاحبِهِ يطيـرُ
قليلٌ ذنبُهُ والذنبُ جَـمٌّ	ولكن للغِنَى ربٌّ غفُـورُ

وقد لمس عروة بن الورد البعد الإنسانى والاجتماعى للفقر ، وهو أن الفقير يهون أمره على النـاس وإن كان صاحب فعال حميدة ، وتزدريه زوجه ، وينهره الصغار، وطالما أن الغنى يكسب الاحترام ، ويرفع عنهم ذلّ الفقر وهوانه. فلاريب أن تحضّ الأزواج على الغزو لتحقيقه ، يقول النمر بن تولب

على لسان زوجه:

خاطِرْ بنفسكَ كي تُصيبَ غَنيمةً إنَّ الجلوسَ مع العيالِ قَبيحُ

فالمال فيه تَجلّةٌ ومَهَابـــــةٌ والفقرُ فيه مَذَلّةٌ وقُبُـــوحُ

ومنهم من هو أقل طموحا فتمرد وغزا ليسدّ رمقه ، ويسكت جوع عياله ، وهو قد يـدفع حياته ثمنا لذلك . فهذا الفقير عانى من قلة ذات اليد ، حتى إنه لا يجد ما ينفقه علي بنيـه ، فاتجـه للغزو لتحصيل حاجاتهم ، فلقى حتفه دون ذلك ، يصفه أبو ذؤيب الهذلي بقوله[1]:

وأشعثَ بُوشيٍّ شَفينَا أُحَاحَهُ غَداتَئذٍ ذي جَرْدةٍ مُتَماحِـــــلِ

أَهَمَّ بينِه صَيْفُهُمْ وشِتَاؤُهُمْ فَقَالوا: تَعَدَّ، واغزُ وسْطَ الأَراجِلِ

إنه فقيرمعيل معدم ، حمل الإحن والضغينة والسلاح لتحقيق مأربه ، فكان جزاؤه مـا كـان. ولكن الفئة الأكثر وعياً بين المنتمين إلى طبقة الفقراء ، هي الفئة التي تمردت على واقعهـا المـؤلم ، فنظمت صفوفها . وحملت معها هموم الآخرين ، وطليعة هذه الفئة الشاعر الفارس عروة بن الورد ، الذى حمل هموم الفقراء من أبناء قبيلته، وحمّل ذاته مسؤولية مساعدتهم[2]:

أيَهْلِكُ مُعَتِّمٌ وزَيْدٌ ولم أُقِمْ على نَدَبٍ يوماً ولي نفسُ مُخْطِرِ

---

(١) المصدر السابق. ص / ١٥٨ عروة بن الورد بن زيد وقيل ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد وكان يلقب عروة الصعاليك . ،الأغاني ، مصدر سابق ،ج٣ص٧٢

(٢) شعرالنمر بن تولب، الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٩م. ص٤٩. و النمر بن تولب بن أقيش بن عبد كعب بن عوف بن الحارث بن عوف بن وائل بن قيس بن عكل واسم عكل عوف بن عبد مناف بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار شاعر مقل مخضرم أدرك الجاهلية وأسلم فحسن إسلامه ووفد إلى النبي وكتب له كتابا فكان في أيدي أهله وروى عنه حديثا سأذكره في موضعه وكان النمر أحد أجواد العرب المذكورين وفرسانهم سمي بالكيس لجودة شعره ، الأغاني ، مصدر سابق ، ج٢٢ ص٢٧٤

(٣) شرح أشعار الهذليين ١/١٦٠- ١٦١. والبوشيّ: كثير العيال. وأحاحه: ما يجد في صدره من الغمّ والغيظ. والجردة: البردة المنجردة ، الخلق. ومتماجل: طويل. وتعدَّ: انصرف عنّا. وأبو ذؤيب الهذلى وهو خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد ابن هذيل . طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام. مصدر سابق . ج١ ص ١٢٤

ومن الظاهر أن بني مُعَتِّم ، وبني زيد قد عضّهم الفقر بنابه ، وأن عروة قد هاله ذلك ، فأوجب على نفسه المخاطرة لإنقاذهم . وكان عروة يرى أن مساعدة المحتاجين حق واجب عليه ، يدفعه إلى المهالك للحصول على الأموال التي يقضي بها الحقوق ، يقول عروة [١]:

دعيني أُطَوِّفْ في البلادِ لَعَلّني ... أفِيْدُ غنىً فيه لذي الحقِّ مَحْمَلُ

أَلَيْسَ عظيماً أنْ تُلِمَّ مُلِمّـــــةٌ ... وليس علينا في الحقوقِ مُعَوَّلُ

وعروة لم يكتف بذلك ؛ بل حرض غيره على التمرد ، وتولى قيادة من أطـاعوه فى تمـرده ، والتقوا معا عند غاية واحدة ، مثلما فعل بوادي (ماوان) مع جماعة من الناس أجهـدهم الفقـر، فدعاهم إلى الغزو معه ، وقال لهم إن تغزوا معي[٢]:

تَنالوا الغنى أو تبلغو بنفوسكمْ ... إلى مستراحٍ مِن حِمامٍ مُبـــرِّحِ

ومن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومُقتِراً ... من المالِ يطّرِحْ نفسَهُ كلَّ مطْرَحِ

ليبلغَ عُذراً أو يُصيبَ رغيبةً ... ومُبلغُ نفسٍ عُذرها مثلُ منجـــحِ

فغزا بهم ، ونالوا مغانم تقاسموها فيما بينهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ، واسـتخلص امـرأة لنفسه ، فلم يرضوا بذلك ، حتى جعل المرأة ضمن القسمة ، فساءه ذلك ، فقال[٣]:

إلاَ إنَّ أصحابَ الكنيفِ وجدتُهم ... كما الناس لما أخْصَبُوا وتَمَوَّلوا

وإنّي لمدفوعٌ إليّ ولاؤُهُـــمْ ... بما وإنّ إذْ نمشي وإذْ نَتَمَلّـلُ

وعروة لم يكن حالة فريدة ؛ فالعصر الجاهلي زاخر بالرجال الذين عانوا الصعلكة ، وتمـرّدوا على الفقر وكان اختيارهم أن يعيشوا أو يموتوا كرماء شعاراً يرفعونه، ويعملـون بهديـه ، يقـول الصعلوك عمرو بن براقة الهمداني، وكان صاحباً لتأبط شرّاً[٤]:

---

(١) ديوان عروة، مصدر سابق ، ص٧٣. ومعتم وزيد: حيّان من عبس، قبيلة عروة. والتدبُ: الخطر ولي نفس مخطر: لي نفس أخاطر بها دونهم

(٢) المصدر السابق ص١٣١.

(٣) انظر المصدرالسابق ص١١٩. وكما للناس: كالناس. وما زائدة

(٤) قصائد جاهلية نادرة، مصدر سابق ، ص١٠١. وعمرو بن بَرّاقَة؟ - ١١ هـ / ؟ - ٦٣٢ م نحو : عمرو بن الحارث بن عمرو بن منبه النهمي من همدان، ويعرف بعمرو بن بَرّاقة وهي أمه.شاعر همدان قبيل الإسلام. له

مَتَى تَطْلُبِ المالَ المُمتَعَ بالقنا تَعِشْ ماجداً أو تَخْتَرِمْكَ المخارِمُ

وممن أهمّه حال الفقراء فغزا لإطعامهم أثيلة بن المتنخّل الطائيّ، وله يقول ربيعة بن الجحدر الهذليّ[١]:

وذَي إبلٍ فَجَعْتَهُ بِخِيَارِها فَأَصْبَحَ مِنْها وَهْو أسوْانُ يَائِسُ

وحَيٍّ جِيَاعٍ قد ملأتَ بَطُونَهُمْ وأنطقتَ بعدَ الصمتِ مَنْ هُوَ ناكِسُ

و عروة بن الورد لا يشغله الغنى عن الفقراء، فهو لايرى السيادة فى الثراء ، بل يراها فى العطاء[٢]:

ما بالثراءِ يَسُودُ كلُّ مُسَوَّدٍ مُثْرٍ ولكنْ بالفَعالِ يَسُودُ

ومن ثم فهودائم البذل ، يهرع إلى المساعدة ، فيفتقر ، ويعود من جديد إلى الغزو للحصول على المال. يقول عروة[٣]:

إذا قلتُ: قد جاءَ الغنى حَالَ دُونَهُ أبو صِبْيَةٍ يشكو المفاقِرَ أعْجَفُ

له خَلّةٌ لا يَدْخُلُ الحقُّ دونَها كريمٌ أصابتْهُ خطوبٌ تُجَرِّفُ

فإني لمستافُ البلادِ بسُربةٍ فَمُبْلِغُ نفسي عُذْرَها أو مُطوِّفُ

وقد فاخر عروة ، قيس بن زهير سيد بني عبس إنه عف النفس لايطلب لنفسه بل للمحتاجين من حوله ، فالذى فى يده قسمة مشتركة بين المحتاجين ، فشتان بين من أنحفه العطاء ، ومن أبشمه

أخبار في الجاهلية. عاش إلى خلافة عمر بن الخطاب، ووفد عليه، قال الكلبي: أذن عمر للناس فدخل عمرو بن بَرّاقة وكان شيخاً كبيراً يعرج.

(١) شرح أشعار الهذليين، مصدر سابق ، ٢/٦٤٥- ٦٤٦. واسمه ربيعة وإنما سمي جحدرا لقصره شاعر جاهلي وهذه الأبيات قالها يوم التحاليق وكان لبكر على تغلب أيام حرب البسوس وسمى هذا اليوم بيوم التحاليق لأن بكرا حلقت رؤسها يومئذ استبسالا للموت وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم إذ كن معهم في الحرب ولم يبق منهم أحد إلا حلق رأسه غير جحدر فإنه كان رجلا دميما حسن اللمة فارسا من الفرسان المعدودين فقال يا قوم إن حلقتم رأسي شوهتم بي فدعوا لمتي لأول فارس يطلع من الثنية غدا من القوم ففعلوا ذلك وتركوا لمته ، ديوان الحماسة ، ج١ ص١٩٥

(٢) المصدر السابق ص٤٨.

(٣) ديوان عروة، مصدر سابق ، ص١٠٧- ١٠٧. والخلة: الحاجة.وتجرف: تجرف ماله.

الثراء يقول [١]:

إنّي امرُؤٌ عافي إنائيَ شِركَةٌ وأنتَ امرؤٌ عافي إنائِكَ واحِدُ

أقَزأُ مِنّي أنْ سَمِنْتَ وأن ترَى بوجهي شحُوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ

أُقسِّم جسمي في جُسومٍ كثيرةٍ وَأحسو قَراحَ الماءِ والماءُ بارِدُ

وحياة الصعاليك المتمردين حياة القلق ، وفقدان الإحساس بالأمان ، يقول عمرو بن براقة الهمداني يخاطب امرأة [٢]:

ألَمْ تَعْلَمِي أنَّ الصعاليكَ نومُهمْ قَليلٌ إذا نامَ الخَلِيُّ المُسالِمُ

وكانوا ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للكرامة إذا انْتُقِصَت بين الأقارب[٣]:

وسائلةٍ: أي الرحيلُ؟ وسائلٍ ومَنْ يَسْألُ الصّعلوكَ: أين مذاهُبهْ

مذاهبهُ أن الفِجاجَ عريضةٌ إذا ضَنَّ عنه بالفعالِ أقاربهْ

والشنفرى ، أرضه الجديدة هي كل أرض تطؤها قدمه ، ومجتمعه الجديد الذي انتمى إليه هو عالم الحيوان وهو يمتاز بالصدق والوفاء والأنس، ويحرص على كرامته فيقول[٤]:

أقيموا بني أمي صدور مطيّكم فإني إلى أهل سواكم لأميلُ

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى متعزّلُ

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئٍ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ

---

(١) ديوان عروة ، مصدر سابق ، ص٥١- ٥٢. والإناء العافي: الذي مُلِيء لبنا حتى فاض. والحقّ جاهد: الحق يجهد الناس، لأنهم يؤثرونه على النفس والعيال. جسمي: أراد طعامي

(٢) قصائد جاهلية نادرة، مصدر سابق ، ص١٠٠.

(٣) ديوان عروة ص٢٩. والفجاج: الطرق الواسعة بين الجبال

(٤). ديوان الشنفرى الأزدي، الطرائف الأدبية، صححه وخرّجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيّله عبد العزيز الميمني،دار الكتب العلمية، بيروت.-ص ٧٦-٧٧، الشنفرى كان من الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث أسرته بنو شبابة بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف بن ميدعان بن

ولي دونكم أهلون سِيْدٌ عملّـــــــسٌ وأرقطُ زهلولٌ وعرفاء جيـــألُ

همُ الرهط لا مستودعُ السرِّ شائـــعٌ لديهم ولا الجاني بما جرَّ يخذلُ

والأبيات كأنها تحكى قصة نفوره وتمرده ؛ فإن ضاق من الناس وظلمهم ، فلن تضيق به البرية ، وقد كان بالتمرد على واقع الفقر المؤلم ؛ إنما يسعى إلى تأكيد قيمة المساواة بـــين النـــاس ، وظلـــم التفاوتُ الطبقي .

وكان التمرد على الفقر بالغزو سبباً في مظالم كثيرة ، وفي إشعال حروب كثيرة.

وقد يثار سؤال لم لم يتمردوا على الفقر بالعمل المنتج ؟ . إن الصعاليك من قـــوم بـــداة ، وفى الحياة المتبدية يصعب امتهان الأعمال اليدوية ، وفى امتهانها مهانة ، وأكثر مايمارسونها العبيد ، وليس فيها ما يغري المتطلعين في مواجهة عنت السادة وظلمهم ؛ فبدلا من السعى إلى تحسين أوضـــاعهم ، يتحولون إلى أشباه عبيد.

وبعد فهذه إلمامة يسيرة ألقينا بها الضوء غلى تمرد الجاهلى الذى حملته لنا القصيدة العربية بين ثناياها ، تاركين لمن يود المزيد مطالعة الشعر الجاهلى ليكتشف أن ما تناولناه لا يعدو أن يكون أمثلة تؤيد فكرتنا ، وأن القصيد العربية عامرة بمثل هذه التوجهات .

وهكذا قدمت لنا القصيدة الجاهلية التمرد من منظور فكرى ، وبقى أن نتوجه إلى المحور القادم لنكشف عن المنظور الفنى ...

رابعا :المظاهر الفنية للتمرد

لا يمكن أن يتحقق التمرد دون أنْ يكون هناك خصوصية للمتمرد فى الأداء تكشف عـــن خصوصية الفعل والتوجه ، وأبرز المظاهر الفنية للتمرد فى القصيدة الجاهلية ؛ هى ارتفـــاع نغمـــة الفردية ، وتأكيد العزف عليها ، وجنوح الشاعر إلى تصوير وجوده الفردي بأسلوب يميز الذات ، ويفصح عن(الأنا) المنفصمة عن واقعها.

وقد شكل اعتداد الشعراء بأنفسهم خارج إطار الفخر القبلي امتداداً لنزعات التمـــرد الـــتى مارسها هؤلاء الشعراء على مستوى إبداعهم الفنى ، ليعوضوا مافقدوه على مستوى الواقع الاجتماعى .

وملامح الاعتداد بالذات نبدؤها من عنترة بن شداد ، وقد أتت انعكاسا لما أصاب ذاته *مالك* نتيجة لتجاهل المجتمع لفروسيته ، وتعييرهم له بأصله ولونه ، فهو يعد نفسه أعلى قيمة بفروسيته [١] :

أذكُر قومي ظلمَهم لي وبغيَهم وقلةَ إنصافي على القربِ والبُعد

بنْيتُ لهم بالسيفِ مجداً مشيّداً فلما تناقَصَ مجدُهم هدمُوا مجدِي

يعيبون لوني بالسواد وإنّـــما فعالُهم بالخُبْث أسودُ من جلـــدِي

فوا ذلّ جيراني إذا غبتُ عنهم وطَال المَدى ماذا يلاقون من بَعدي

ولا يزال من حين لأخر يستشعر هذا الظلم ، و يحاول أن ينفلت من القيود الاجتماعية الـــتى كبلته ، و يرى أنه جدير بذلك ، كيف لا وهو حامى الحمى ، وسيف العشيرة [٢]:

ومن يكُن عبدَ قومٍ لا يخالفُـــهم إذا جَفوه ويسترضي إذا عَتَبُوا

قد كنتُ فيما مَضَى أرعى جمالَهم واليوم أحمِي حِمَاهُم كلّما نكبوا

لله درُّ بني عبس لقد نسلـــوا من الأكارم ما قد تنسل العرب

لئن تُعيبوا سوادي فهو لي نسب يوم النزال إذا ما فاتني النسب

فالعبد الذى كان يسترضيهم ، ويرعى جمالهم ، هو الأن القائد الذى يحمى الحمى ويزود عـــن القبيلة ، فكيف يسلونه منهم ، ويضنون عليه بانتسابه لهم ؟ ، وعلى الرغم من اعتراف أبيه بنـــسبه إليه ، فهو في نظر أعدائه وقومه عبداً وهذا ما دفعه إلى التعبير عن معاناته ،بقوله [٣] :—

يعيرني العدا بسواد جلـــدي وبيض خصائلي تمحو الســـوادا

---

(١) شرح ديوان عنترة، تحقيق وشرح عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، تقديم إبراهيم الأبياري، مؤسسة فن الطباعة ص٦٢.

(٢) شرح ديوان عنترة، المصدر السابق ص١٠.

عنترة بن شداد وقيل ابن عمرو بن شداد وقيل عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة وقيل مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر وله لقب يقال له عنترة الفلحاء وذلك لتشقق شفتيه وأمه أمة حبشية يقال لها زبيبة وكان لها ولد عبيد من غير شداد وكانوا إخوته لأمه وقد كان شداد نفاه مرة ثم اعترف به فألحق بنسبه

(٣) شرح ديوان عنترة، المصدر السابق ، ص٥٧.

سلي يا عبل قومك عن فعالي ومن حضرالوقيعة والطـــرادا
وردتُ الحربَ والأبطالُ حولي تَمُز أكفُها السمرالصعـــــادا
وخضتُ بمهجتي بحرَ المنايا ونار الحرب تتقد اتقـــــادا
وعدت مخضّباً بدمِ الأعـادي وكرب الركض قد مضت الجوادا
وكم خلفت من بكـــر رداح بصوت نواحها تشجي الفـــؤادا
وسيفي مرهف الحدين ماض تقد شفاره الصخر الجمـــــادا

، لكنه عز عليه أن يشكو شكوى الضعيف ، بل استبدل ذلك ؛ بأنه راح يفـاخر ببطولتـه وفروسيته واصفاً إياهما ، وكان عنترة يعلم أنّ الحرية التي يطلبها لا تمنح ، وإنما تؤخذ بالكفـاح ، واثبات الذات ، والإعلان عن نفسه بأفعالها ، مضفياً على نفسه تلك الخصائص والخصال الحميدة ، يقول عنترة[١]:

أثني عَلَيَّ بما عَلِمتِ فَإِنَّنـــي سَمحٌ مُخالَقَتي إذا لَم أُظلَـــمِ
وَإذا ظُلِمتُ فَإنَّ ظُلمِيَ باسِـلٌ مُرٌّ مَذاقَتُهُ كَطَعمِ العَلقَـــمِ
وَلَقَد شَرِبتُ مِنَ المُدامَةِ بَعدَما رَكَدَ الهَواجِرُ بِالمَشوفِ المُعلَمِ
فَإذا شَرِبتُ فَإنَّني مُستَهلِـــكٌ مالي وَعِرضي وافِرٌ لَم يُكلَـــمِ
وَإذاصَحَوتُ فَماأُقَصِّرُعَن نَدىً وَكَما عَلِمتِ شَمائلي وَتَكَرُّمي

ومع كل هذه الشجاعة الهائلة ، فهو يبتغى الحرب ، لايبتغى مغانمها ، فشهامته لاتقـل عـن بطولته ، وفروسيته نابعة من أنفته ، وبطولته تجعله لا ينازل إلا الأقوياء ، بقوله:[٢]

هَلّا سَأَلتِ الخَيلَ يا ابنَةَ مالِكٍ إن كُنتِ جاهِلَةً بِما لَم تَعلَمـــي
إذ لا أَزالُ عَلى رِحالَةِ سابِحٍ نَهدٍ تَعاوَرُهُ الكُماةُ مُكَلَّـــمِ
طَوراً يُجَرَّدُ لِلطِعانِ وَتـارَةً يَأوي إلى حَصدِ القَسِيِّ عَرَمرَمِ

(١) شرح المعلقات السبع، الزوزني ، مصدر سابق ، ١٩٨٠ . ص١٢٨ى ، ١٢٩
(٢) المصدرالسابق ، ص١٢٨.

يُخبِرك مَن شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنّني أَغشى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

وتعلو الذات ، وتتضخم الأنا ، فيعمد عنترة بن شداد إلى المبالغة ، ويفرد للأنـا مكانـا بارزا فى قصيدته .(أنا ، أنى ، أخشى ، سيفى ، رمحى ، عندى ، منفردا) [١]:

إذا لم أروِّ صارمي من دم العدا ويصبح من افرنده الدمُ يقطـــر

فلا كحلتْ أجفان عيني بالكرى ولاجاءني من طيفِ عبلة مخبـرُ

أنا الموت إلا أنني غير صابر على أنفس الأبطال والموت يصبر

ويقول : [٢]

وكيف أخشى من الأيام نائبـــة والدهر أهون ما عندي نوائبـه

كم ليلةٍ سرتُ في البيداء منفرداً والليلُ للغربِ قد مالتْ كواكبُـه

سيفي أنيسي ورمحي كلما فُهمت أسد الرمال إليها مال جانبـــه

وكم غدير مزجت الماء فيه دماً عند الصباح وراح الوحش طالبه

يا طامعاً في هلاكي عد بلا طمع ولا ترد كأس حتف أنت شاربـه

ويبالغ فى وصف خصمه ، يصفه من حيث الهيئة والاستعداد ، فهو مدجج بالسلاح ، و يصفه بأنه ليس برعديد ولاهياب ، تخشاه الأبطال وتهابه الصناديد ، وهذان البعدان الداخلي والخـارجي حولا خصم الشاعر إلى أسطورة عظمى ، وقد قصد عنترة إلى ذلك ، حتى يكون انتصاره بطولـة نادرة. يقول: [٣]

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُمَاةُ نِزَالَـــهُ لا مُمْعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَسْلِـــمِ

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيابَهُ في سَرْحَـــةٍ يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ لَيْسَ بتَـوْأَمِ

جادَتْ يَدايَ لَهُ بعاجِلِ طَعْنَـةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الكُعُوبِ مُقَـــوَّمِ

(١) شرح ديوان عنترة المصدر السابق ، ص٨١.

(٢)شرح ديوان عنترة المصدر السابق ، ص٩.

(٣) شرح المعلقات السبع، الزوزني ، مصدر سابق ص ١٢٩

فشَكَكْتُ بالرُّمحِ الطَّويلِ ثيابَه ... لَيْسَ الكَرِيمُ على القَنا بِمُحَرَّمِ

فتَرَكْتُهُ جَزَرَالسِّباعِ يَنْشْنَهُ ... ما بَيْنَ قُلَّةِ رَأْسِهِ والمِعْصَمِ

وَمَشَكِّ سابِغَةٍ هَتَكْتُ غُرُوشَها ... بالسَّيْفِ عن حامِي الحَقِيقَةِ مُعْلِمِ

لَمَّا رَآنِيَ قد نَزَلْتُ أُرِيدُهُ ... أَبْدَى نَواجِذَهُ لِغَيْرِ تَبَسُّمِ

فطَعَنْتُهُ بالرُّمْحِ ثم عَلَوْتُهُ ... بِمُهَنَّدٍ صافِي الحَدِيدَةِ مِخْذَمِ

وحين يعرض عنترة لكيفية انتصاره على خصمه يؤكد ذلك من خلال ضمير المتكلم « جادت له كفي، فشككت بالرمح ، فتركته جزر السباع ، هتكت فروجها قد نزلت ، أريده ، عهدي به ، فطعنته بالرمح ، ثم علوته » إنّ هذا يعني أنّ الشاعر يؤكد على الجانب الفردي للبطولة ، ويلح عنترة على ذكر اسمه في قصائده ، (يدعون عنترة ، ويك عنترة) مما له دلالة نفسية تعبر عن تضخم الذات، يقول: [1]

ولَقَدْ رَأَيْتُ القَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ ... يتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَمُذَمَّمِ

ولَقَدْ شَفَى نَفْسِي وأَبْرَأَ سُقْمَها ... قَوْلُ الفَوارِسِ وَيْكَ عَنْتَرُ أَقْدِمِ

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرِّماحُ كَأَنَّها ... أَشْطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأَدْهَمِ

ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِثُغْرَةِ نَحْرِهِ ... ولَبانِهِ حتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ

فازْوَرَّ مِن وَقْعِ القَنا بِلَبانِهِ ... وشَكا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ

لو كان يَدْرِي ما المُحاوَرَةُ اشْتَكَى ... ولَكانَ لو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلِّمِي

وتتجلى ملامح هذه الذات المتضخمة اكثر في قوله : « ولقد شفى نفسي وأذهب سقمها »لأنّ لفظي « شفى » و «أذهب » وفي رواية أخرى« أبرأ » لها دلالة مهمة ؛ لأن هتاف المستنجدين به أشعره بتفوقه عليهم ، فهاهوذا قد استرد مكانة اسكثروها عليه ، وهوية سلبوها منه . واستعاد كينونته الخاصة ، وتجاوز بشجاعته أقرانا طالما سخروا منه ، وحسبوه أقل منهم .

فعنترة بن شداد يضع قبيلته دائما في ناحية ، ويضع نفسه في ناحية أخرى ، فهو يحس أنه

(١) ديوان عنترة ، مصدر سابق: ص ٢٤٨

مختلف عنهم لوناً وقيمة ، وليس متفردا فحسب في بطولته العسكرية ، فإذا كانت فروسيته قد تجاوزت الحد ، واستطاع أن يقيم لنفسه مجدا تليدا بالقتال وبالسيف ، فإنّ فى خلاله الحميدة منجم أخر من طيب المعدن وكرم الخلق ، إنه يقاتل دون خوف ؛ وتعف نفسه عند توزيع المغانم ، ليس ادعاء ، وإنما على لسان من شهد الوقيعة [١]:

يُخبِرِكِ مَن شَهِدَ الوَقيعَةَ أَنّني أَغشى الوَغى وَأَعِفُّ عِندَ المَغنَمِ

وهوطاهر الذيل ، عفيف النفس ، سمح الخليقة ماجد ، لايميل مع هواه ، ولايسلك طريق اللجاج ، يقول [٢] :

أغشى فتاةَ الحيّ عند حليلِها وإذا غَزَا في الحرب لاَ أغشاها

وأغضُّ طرفي ما بدتْ لي جَارتي حتى يُوَارِي جارتي مَأْواها

إني امرؤٌ سمحُ الخليقة ماجدٌ لا أتبعُ النفسَ اللّجوجَ هواها

ولعلنا لا حظنا نغمة التمرد ظاهرة ، فإضفاء الصفات الملحمية على شجاعته وقدراته ، وأخلاقياته ، فهوالمعنى بحماية القبيلة بأسرها ، إضافة إلى أنه تعف نفسه عند توزيع المغانم ، ويردد اسمه في قصانده ليعلن عن حضور الذات الدائم ، واتكائه على ضمائر المفرد في الغياب والحضور ، دليل على سيطرتها على نفسه ، معلنة تمردها على عقدة النقص التي وصمه بها قومه ...

أما طرفة فتأزمه الإنساني مبعثه الإحباط النفسي المتمثل فى تصرف أهله وعشيرته ، وقبيلته تجاهه وتجاه أمه ، وإخوته ، أسلمه إلى حالة من الاغتراب عالجها بالتهالك على العبث حينا ، والارتماء فى أحضان اللذة الأبيقورية حينا أخر ، تعويضا عن الإحباط الذى ألم به [٣]:

ولولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى وجدّك لم أحفلْ متى قام عُوَّدي

فمنهنّ سبقي العاذلاتِ بشربةٍ كُميتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزبدِ

وكرّي إذا نادى المضافُ محنّباً كسيدِ الغضا نبّهتَهُ المتورِّدِ

وتقصيرُ يومِ الدّجْنِ والدّجنُ ببهنكةٍ تحتَ الطرافِ المعمّدِ

---

(١)شرح المعلقات السبع، الزوزني ، مصدر سابق ص ١٢٩

(٢) ديوان عنترة، مجموعة الأعلم، ص٤٠٩.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ، مصدر سابق: . ص ٣٢ .

لكنه سرعان ماانتصر على هذا التخبط ، وبدأ البحث عن ذاته المفقودة ، وهويته الضائعة ، وتمترس بها ، ليدفع عن نفسه هذه الاحباطات ، فأصبحت فروسيته المتفردة سلاحه الشخصي ، الذى يسترد به مافقد [١]:

أنا الرجلُ الضربُ الذي تعرفونه ... خشاشٌ كراسي الحيةِ المتوقِّدِ

فآليتُ لا ينفكُّ كشحي بطانةً ... لعضبٍ رقيقِ الشفرتين مهنَّدِ

حسامٍ إذا ما همتُ منتصراً به ... كفى العَودَ منه البدءُ ليس بمعضَدِ

أخي ثقةٍ لا ينثني عن ضريبةٍ ... إذا قيل مهلاً قال حاجزُه قُدِ

إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتني ... منيعاً إذا بُلَّتْ بقائمِهِ يدي

وشكلت هذه الممارسة الهوية التي احتل بها موضعه فى الوجوده الإنساني وبنى على أساسها فلسفته المعقدة ، التى أضحت منطلقه في الحياة :

ألا أيهذا اللائمي أحضرَ الوغى ... وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مخلدي

فإن كنتَ لا تسطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرْها بما ملَكت يدى

فالممارسة الفردية الخالصة ، وذوبانه فى لذة الحس الفردي ؛ كان صورة لحلم اليقظة الذى استبدل به الواقع المفروض والمرفوض ، والذى نحى به مرارة الانفصام الاجتماعي ، فحضورالذات بكثافة أصبح بمثابة التعويض العنيف لطرح الواقع والانتصار عليه [٢]:

وأنا امرؤ أكوي من القصر الـ ... ـبادي وأغشي الدُّهمَ بالدُّهمِ

وأصيب شاكلةَ الرميةِ إذ ... صدَّت بصفحتِها عن السهمِ

وأُجرّ ذا الكفلِ القناةَ على ... أنسائه فيظلُّ يستدمي

---

(١) ديوانه المصدر السابق ص٧٥

(٢) ديوانه المصدر السابق ص ٨٧. القصر: داء في العنق كنى به عن تكبر الخصم. الدهم: الخيل. شاكلة: خاصرة. أجرّ: أطعن. القناة: الرمح. أنسائه: عروق وركه. مخيلة: كبر. العريض: كثير التعرض. موضحة عن العظم: ضربة تكشف اللحم عن العظم. أرغب: أوسع.

وتصدُّ عنك مخيلة الرجل الـــــ ـــعرِّيضِ موضِحةٌ عن العظمِ

بحسامِ سيفكَ أو لسانكَ والـــ ـــكَلِمُ الأصيلٌ كأرغبِ الكَلْمِ

فبروز الذات لا يعدو أن يكون تعبيرا عن قطع الخيط الواهى بين الشاعر وعشيرته من خـــلال طرح انتمائه ، فهو لم يعد يعبأ بهذا الخيط الواهي بينه وبين انتمائه[١]:

فذريني وخلقي إنني لك شاكرٌ ولو حلّ بيني نائياً عند ضرغد

إذن لاغرابة حين تتضخم (الأنا) ، بدلاً من ضمير الجماعة « نحن » ، فالتشكيل الفنى منبثق عن اعتقاده ، والمادة الفنية لشعره مشتقة من شخصيته ، لكن ومع كل فهذه الأنا قلقة تبحث عن ذاتها من أجل إزالة آثار التركيبة الطبقية للقبيلة ، إن طرفة المتمرد يريد أن يحيا ، ويعترف به في شخصه ، وإلاّ... إنه يؤثر أن يموت عزيزاً رافع الرأس على أن يعيش عيشة الهوان [٢].

إنه لا يبالي بما يقع له ، إنّه اختار الخروج على القبيلة ومن ثم تكون التضحية أمراً عادياً، فقد يموت الإنسان وهو يكافح ، ومن ثم كان مرموز الموت فى قصيدة المتمردين ، يتخلل لحظات الحياة الصاخبة ، فعنترة يتذكر محبوبته ، فيرى صفحة وجهها ، ونداوة ثغرها على سطح مرآته ، ومرآته ليست إلا صفحة السيف الملطخ بالدماء [٣]:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبســـــــم

و طرفة يؤكد حتمية الموت ويعدد مناقبه التى يمكن أن تذكر له [٤]:

فإن متُّ فانعيني بما أنا أهلُـــــــهُ وشقّي عليَّ الجيب يا ابنةَ معبدِ

ولا تجعليني كامرئٍ ليس همّـــــهُ كهمِّي ولا يُغني غنائي ومشهدي

---

(١) ديوانه المصدر السابق ص٣٦. ضرغد: جبل

(٢) جابر عصفور، حكمة التمرد، مجلة العربي ع :٤٤٤ ص ٧٧ بتصرف

(٣) ديوان عنترة ، مصدر سابق: ص ٢٤٨

(٤)- ديوان طرفة بن العبد مصدر سابق ص ٣٩

بطيءٍ عن الجلّى سريعٍ إلى الخنا ذلولٍ بإجماع الرجالِ ملهـــــدِ

فلو كنتُ وغلاً في الرجالِ لضرّني عداوةُ ذي الأصحابِ والمتوحدِ

لكن فى الوقت ذاته ، يؤكد أنه طالما أن الموت لايمكن دفعه ، والمنية لايمكن تأجيلها ، فـــدعوه يعيش حياته بطريقته :(١)

ألا أيهذا اللائمي أحضرَ الوغى وأن أشهد اللذاتِ هل أنت مخلدي

فإن كنتَ لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرْها بما ملـــكت يدى

هذه الرؤية التمردية عند شاعرين مثل منحى خاصا من مناحى التمرد كما سبق أن أســـلفنا ، ننتقل بعدهما إلى صورة أخرى .

أما قصيدة التمرد عند الصعاليك فتأخذ بعدا آخر ، لم يقف عند حدود الثورة على المفـــاهيم السّائدة وقيم القبيلة المتعارفة ، بل نزعت نزعة تمردية تجلت فى الخروج على تقاليد القصيدة الجاهلية السائدة وقواعدها. فلم تمض قصيدة الصعاليك على سنن القصيدة الجاهلية فى بنيتها أو صـــورها ، وإنما نحت شاعرها بنيتها من واقعه ، وشكل صورها من تجربته، ومن واقع حياته، فجاءت قـــصيدة الصعلوك في أفقٍ جمالي وفنى خاص بها ، يكشف أفقها الفنى عن حياة الصعلوك وظاهرة الـــصعلكة بصورة عامة . وللوقوف عند الظواهر التي يفصح عنها النص فلا بد من الدخول إلى عوالمه من محاور فنية تقتضيها الدراسة:

المحور الأول : من مظاهر التمرد اللغوى

توافقت لغة شعر الصعاليك مع الطابع التمردى لأصحابها ؛ فتمردت على لغة الشعر الجاهلي ، و تعددت مظاهر التمرد اللغوى عندهم ؛ فقد خالفوا العرف اللغوى السائد حـــين اســـتخدموا فى معجمهم الشعرى بعض الكلمات التي أتت مخالفة للقياس ، أو التى جـــاءت علـــى وزن مهمـــل لم يستعمل من قبل ، أو وزن نادر الاستعمال ونحوه ، كذلك عمدوا إلى استخدام المفردات الغريبة..الخ مما جعل أشعار الصعاليك محط أنظار الباحثين اللغويين ، يختلفون فى تأويلها ، ويجتهدون فى تفـــسير مستغلقاتها ، وشرح دلالاتها ، وغدت مصدرا مهما للباحث اللغوي ، ينشد فيها ضالته ، ويستخرج

(١) ديوانه المصدر السابق ص٧٥

منها شاهده ، ويستكمل بها قواعده ، فعمرت بها كتبهم ، وحفلت بها معاجمهم ، وذاع صيت كثير من هذه الأشعار بعد أن تداولتها مصادرعلوم اللغة ومراجعها . وسنسوق بعض الأمثلة للتدليل على ما أوردنا ونحيل راغب الاستزادة إلى مصادرها ومظانها .

فمما خالف القياس ؛ كلمة (اليستعور) فى قول عروة(١):

أطعت الآمرين بصرم سلمى | فطاروا في عضاه اليستعور

قال سيبويه ليس في كلام العرب يفتعول ، وقال ابن جني "لم يجئ في الأسماء يفتعول إلا يستعور وهو موضع(٢):" كذا في الجمهرة ، وهو البلد البعيد ويقال موضع قريب من المدينة وقال صاحب اللسان "بل هو شجر يستاك به.. وقيل إنه يريد السعير" (٣) ، ومنه وضع الفعل موضع المصدر ككلمة (ألهو) فى قول عروة (٤):

وقالوا ما تشاء؟ فقلت: ألهو إلى الصباح آثر ذي أثير

فهو أرادا أن ألهو أي أراد اللهو إلى الصبح ، فوضع ألهو موضعه لدلالة الفعل على مصدره كقولك لمن قال لك: ما يصنع زيد؟ يصلي، أو يقرأ، أي الصلاة والقراءة (٥)

ومنها ماجاء فى شعرهم على وزن نادر ككلمة (قَرَماء) كما فى قول السليك (٦):

على قَرَماء عالية شواه كأن بياض غرته خمار

قال سيبويه وقد جاء فعلاء بفتح العين في الأسماء دون الصفات قالوا قرماء وجنفاء وهما مكانان . وقال ابن قتيبة قد جاء فعلاء في حرف وهو صفة قالوا للأمة ثأداء بتسكين الهمزة وثأداء بفتحها

---

(١):ديوان عروة ، مصدر سابق ،٣٢.

(٢):ا لمزهر فى علوم اللغة جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكر السيوطى تحقيق فؤاد على منصور دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٨ط ١ ج٢ص٢٠٢/٦٥

(٣):لسان العرب ، مصدر سابق ، مادة (سعر).

(٤): انظر الخصائص ، ابن جني ، ٤٣٣/٢.

(٥).مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابورى ، تحقيق /محمد محى الدين عبد الحميد – دار المعرفة – بيروت لبنان ١٩٨٨ ، ط٢ ، ج٢ص٧٦ .

(٦) أدب الكاتب ، ابن قتيبة الدينورى . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية . مصر ١٩٦٣ ط٤ج١ ص٤٧٨

وقال غيره ، لم يجئ فعلاء بفتح العين في الصفات وإنما جاء حرفان في الأسماء فقط (قرماء ، وجفنـــاء) وقد قالوا الثأداء للأمة بالتحريك وهو نادرفي الاسم والصفة [١].

أو جمع على غير قياس مثل كلمة (المفاقر) فى قول عروة [٢]:

إذا قلت قد جاء الغنى حال دونه أبو صبية يشكو المفاقر أعجف

المفاقر الحاجات جمع فقر على غير قياس وأعجف أي هزيل ، والمعنى أننا إذا جمعنا المال للغنى جاءنا فقير هزيل ذو عيال فنعطيه وننفق منه وهذه حالنا مع غيره .

ولم يقف الأمر عند حدود المخالفة بل استخدموا ألفاظا لم تسمع عند غيرهـــم ، مثـــل كلمـــة "الخيعابة": قال صاحب اللسان الخَيْعابةُ: الرَّدِيءُ ولم يُسْمَع إلاّ في قولِ تأبَّط شرّاً [٣]:

ولا خَرِعٍ خَيْعابةٍ، ذِي غَوائِلٍ هَيام، كَجَفْرِ الأَبطَحِ المُتَهيِّل

وقال صاحب التهذيب: الخَيْعابة والخَيْعامة: المأبون، وأورد البيت السابق ، وقال: ويروى خَيْعامة. والخَيْعامة: القَصِفُ المُتَكَسِّر [٤]

ومنه استخدام المفردات الغريبة وحشدها فى أشعارهم حشدا ؛ يجعل المعنى غريبا لا يدنيـــه مـــن الفهم إلا الاستعانة بالمعاجم اللغوية ، وهذا ليس خاصا بواحد منهم بل وجدناه عند غالبيتهم _علـــى تفاوت بينهم _ وسوف نبرهن على ماقلناه من خلال عرضنا لهذه النماذج الذى تمثله ، والتى تكشف كيف غلب– الإغراب فى اللغة – على شعر الصعاليك .

فهذا (تأبط شرا) يصف جواده وقد انطلق به يركض كالمجنون المذعور وقت غروب الـــشمس بسرعة الظليم وقد رأى الماء ، وهو لسرعة عدوه يمد أفخاذه ويطير شعره في الفلوات ويتفوق علـــى غيره من الخيول. [٥]:

وحثحث مشعوف الجـــاء كأنني هِجفٌ رأى قصراً سمالاً وداجنا

---

(١)المزهر ج٢ ص٥٧

(٢) ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، ج٢ ص٣٣٨.

(٣) اللسان ، مصدر سابق ، (خعب).

(٤) التهذيب ، مصدر سابق ، (خعب).

(٥):الأغاني ، مصدر سابق ، ج١٠ ص١٤٧ ، ١٤٨

من الحص هزروفٌ كأن عفاءه إذا استدرج الفيفا ومد المغابـــنا

أأزج زلوج هَزرفيٌ زفـــــازف هزِف يبذ الناجيات الصوافـــنا

فأنت ترى الأبيات الثلاثة من الصعوبة فى الفهم بمكان ، على الرغم من أن أغلب هذه الكلمات تدور حول الركض والهروب ، والفرار(فأزج زلوج وهزرفي) كلها تعني السرعة و(زفازف تعني الريح) ، إلا أن كل لفظة فيها تحتاج إلى البحث عن مدلولها ، والكشف عنه لشرحها وتقريب معناها... يقول أبو هلال العسكرى معقبا (فهذا من الجزل البغيض الجلف ، الفاسد النّسج ، القبيح الرّصف ، الذي ينبغي أن يتجنّب مثله. [١]:

ويقول تأبط شرا كذلك يصف شِعباً صعب المسلك تجمعت فيه بقايا السيول والغدران ، ســـدت منافذه الحجارة المتساقطة على إثر السيول ، وهو مسلك لم يهتد إليه من قبل حتى تعرف مفازاته فهـــو ينعت قدرته على اجتياز المسالك الصعبة ، وقطع مجاهيل الأرض فى جرأة ، يقتحمها غـــير محتـــاج إلى وصف الواصف ، أو هداية الدليل [٢] :

وشعب كشلّ الثوب شكسٍ طريقه مجامع صوحَيْه نطاف مخاصر

به من سيول الصيف بيض أقرُّها جُبار لضم الصخر فيه قراقـــر

تبطنته بالقوم لم يهدني لـــــــــه دليل ولم يثب لي النعت خابـــر

به سملات من مياه قديمـــــــــة مواردها ما ان لهن مصـــــادر

ولكن الأبيات كما ترى حافلة بالألفاظ غريبة ، التى يستغلق النص بغير فهم دلالات مفرداتهـــا فإذ أضفنا اختلاف اللغويين فى ضبط مفرداتها فكلمة (شل) فى نسخة أوربة بفتح الشين ،وفى الشنقيطية بكسرها ، وفى رواية اللسان(كشك الثوب) ، وعند ابن الأعرابى (شل الثوب) وفى رواية ابن السكيت (شق الثوب) ، وقال التبريزى فى شرح ابن السكيت (وزعم أبو عمرو أن الشاعر أراد بالشعب فـــم امرأة ، وقد رد عليه ، بأن الشعر يدل على خلاف قوله..) [٣]

---

(١):الصناعتين ، أبو هلال العسكرى ،تحقيق البجاوى ، وأبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ١٩٨٦م ص٦٧ ، ٦٨

(٢) ، (٢):الأصمعيات – ، مصدر سابق ، ص ١٢٥

(٣):الأغاني ، مصدر سابق ، ج١٠ ص١٥٣

ولم يكن تأبط شرا فى الميدان وحده ؛ بل إن هذا الغريب مثل ظاهرة فى شعرالصعاليك .

فالشنفرى مع رفقة من الصعاليك سلكوا الرهو فى طريقهم لمهاجمة العوص وبعد مسير ثلاث ، بان شعشاعهم وثاروا عليهم يقول [١] :

غرٌّ برهو الماء صفحاً وقد طوت ثمانلنا والزاد ظن معـــــــــيَّب

ثلاثاً على الأقدام حتى سما بنا على العوص شعشاع من القوم محرب

فثاروا إلينا في السواد فهجهجوا وصوَّت فينا بالصباحالمـــــــــثوِّب

وصخر الغي تروي له أرجوزة من الشعر نسبها البعض إلى الأصمعي ، وهي حوار بين الراجز وامرأة مـــن آل طيسلة (لعلها تكون زوجه) عابت عليه فقره وشيخوخته فرد عليها مصوراً حالها السالف الباقي و حاله الـــسالف الباقي وهجاها في ذلك هجاءً مراً وفخر بنفسه فخراً عريضاً نختار منها هذه الأبيات. يقول: [٢]

تَمزأ مني أخت آل طَيـسلـــــه

قالت أراه معلقا لا شيء لـــه

وقبلها عام ارتبعنا الجُعلـــــه

مثل الأتان نصفاً جُنَعد لـــه

وتارة أنبثُ نبث النقنلـــــــه

خزعلة الضبعان راح الهنبله

وهل علمت فحشاء جهلـــــه

مُغوثةً أعراضهم ممرطلـــه

وأمنح المَيّاحة السبحللـــــــه

وأطعن السحـــاحة المشلشله

---

(١): الأصمعيات – مصدر سابق ، ص ٢٣٤، ٢٣٥ ، وهو صُخَير بن عُمَير شاعر جاهلي من بني تميم اختلف في اسمه فقيل ، صُخَير بن عُمَير وقيل صخر بن عُمَير وقيل صخر الغي

(٢) الحماسة ، مصدر سابق ، ص٤٩. ، واسمه خويلد بن مرة أحد بني هذيل وهو من فرسان العرب وفتاكهم شاعر مخضرم أسلم وهو شيخ كبير يوم حنين وكان ممن يعدو على رجليه فيسبق الخيل

فانظر إلى مفردات مثل (طَيسله ، ارتبعنا ، الجُعله ، جُنَعد ، النقنلـه ، خزعلة ، الهنبله ، ممرطله ، المَيّاحة ، السبحلله ، السحساحة ، المشلشله) تجد نفسك أمام طلاسم لفظية ، تحتـاج إلى فـض رموزها وفك شفرتها . .

و أبو خراش الهذلي فسائر فى الدرب نفسه ، فيجيء شعره غريباً خشناً متلاحقاً. يقول:

رفوني وقالوا يا خويلد لم تـُرَع فقلت وأنكرت الوجـوه هم هم

فعاليت سبَّاق الدريس كأنـما زعزعه مومٌ من الورد مُـردم

فو الله ما ربداء أو علج عـانة قبٌ وما أن تيس رمل مصـمم

أُتيّت حبال في مراد يـروده فأخطأه منها كفاف محـزَّم

كأن الملاء الممض خلف ذراعه صُراحية والآخنيٌ المخـذم

أوايل بالشد الذليق وحـثني لدى المتن مشبوح الذراعين خلجم

رفوني بالفاء: سكنوني وقالوا: لا بأس عليك.غاررت: تلبثت. والدربس: الخلق من الثياب، ومثله الجرد والسحق والحشيف. ومردم:لازم . والأبيات كما تلرى حافلة بالغريب الذى يحـوج إلى بحثـه وتحرى معناه .

وإذا كان عروة بن الورد فيما يراه –د / يوسف خليف– الزعيم الشعبي وأبو الـصعاليك [1]، لم يعتزل مجتمعه ، ولم يعش في الصحراء فجاء أسلوبه شعبياً سهل اللفظ –بالقياس إلى شعر الـصعاليك– وواضح المعنى قريب التعبير لا تكليف فيه ولا تنميق.

نجد أن هذا الرأى على إجماله لا يتوافق والأشعار الواردة إلينا فى ديوانه ، فهذا الحكم لا ينطبـق على جل شعره فهناك الغريب الذى حملته أشعاره ، وإلا فما رأيه فى قول عروة [2]

أقب ومخماص الشتاء مرزءاً إذا أغبر أولاد الأذلة أسفرا

فهل ينطبق على هذا سهولة اللفظ ووضوح المعنى ، أنستطيع فهمه دون الرجوع إلى معاجم اللغة ؟.. ومثل هذا قوله [1]:

(١):الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، د / يوسف خليف ، مصدر سابق ، ص٣٠٨.

(٢):ديوان عروة ، مصدر سابق ، ص٣٥.

وإن شئتم حاربتموني إلى مدى فيجهدكم شأو الكظاظ المغرب

فهل (الكظاظ) قريب المعنى ، و(الكظاظ) ما يملأ القلب من الهم والوصب .

ويقول [٢]:

أفي ناب منحناها فقـــــيراً له بطانبا طنب مُصيتُ

تبيت على المرافق أم وهب وقد نام العيون لها كتيت

وربت شبعة آثرت فيـــــها يداً جاءت تغير لها هتيت

فلفظتا (كتيت ، طنب) غريبتان والأولى تعنى صوت غليان القدر، وأما الثانية فـــتعني الحبـــل الطويل الذي تشد به الخيمة.

هذه الأشعار التي أوردناها لعروة تؤكد أن الإغراب في اللغة مثل قاسماً مشتركاً عند جميع الشعراء الصعاليك ، وإذا ما قيست بشعر غير الصعاليك من الشعراء الجاهليين نجد أن الجاهليين لم يخل شعرهم من الغرابة ؛ لكنها عند الصعاليك ظهرت بصورة أكبر، فهل ذلك لأن الصعاليك لم يعتنوا بـــشعرهم ويتأنقوا فيه ، لأن الإيقاع السريع الذى حكم حياتهم ، وغياب الاستقرار الذى فرضته حياة المطاردة والتوجس لم يترك لهم مجالا لإعمال الفكر ، أومراجعة أشعارهم أو تجويدها (وجهة نظر) ، أم أن الأمر لا يعدو أن يكون دافعا ذاتيا ينطلق من بؤرة التمرد التى عايشها الصعلوك ، وخالف بها حياة الآخرين بعثت فى نفسه الحافز أن يغرب فى لغته ويتبدى فى عبارته ، ليواكب التمرد الذى يحياه ، ويـــستكمل مظهر التمايز عن الآخرين ، وهذا ما يفسر النزوع إلى الغريب فى شعرهم من وجهة نظرى ، فـــنزوع الصعاليك للتفرد وميلهم نحو للتمرد جعلهم في حالة اختلاف مع قومهم ليس فقط على مستوى الحياة القبلية ، والسلوك الاجتماعي وإنما إلى مخالفتهم فى أنماط التعبير وهذا ما سيكشف عنه العنصر الثانى.

المحور الثانى : من مظاهر التمرد الأسلوبى :

(١) المصدر السابق _ص١٧

(٢) المصدر السابق _ص١٧

اتسم شعر الصعاليك بالعفوية ؛ حيث جاء غريباً خشناً بريئا من التكلف ، متلاحقـاً يعـدل في سرعته إيقاع حياقم ، ويشبه في صلابته قسوة أيامهم ، ويتواكب مع سرعة عـدوهم وانـدفاعهم ، فكان يصدر فى عجلة فنية لا تجد زمانا للزينة ، أو تترك مجالا التأنق ، فواقع حياقم لا يسمح بذلك.

فأنى يتأتى لشاعر أن ينمق شعره وهو يركض مسرعا ، فالسليك بن السلكة ينقل خبرا لرفيقيـه وهو يعدو بسرعة فهل نتصور أنه يستطيع التأنق فيما نظم أو مراجعته ، يقول[١]:

يا صاحبي ألا لا حي بالوادي لا عبيد رآم بيـــن أذواد

أتنظران قليلاً ريث غفلتهـم م تعدوان فإن الريح للعادي

ولكن إن يكن قد خلا شعرهم من الصنعة ؛ فهو قطعا لايخلو من الفن ؛ وإلا ماكان لـشعرهم قيمة فى الأوساط الأدبية ، ومن ثم لا نعدم الصور التي أتت فى أشعارهم عفوية ؛ لكنها من إفراز الحس الفنى وليس التفنن ، ونمثل لهذا بقصيدة لتأبط شراً قالها عندما عاد إلى قومه بعد أن نجا مـن أعدائـه لحيان: يقول [٢] :

فذاك قريع الدهر ما عاش حوّل إذا سُد منه منخر جاش منخـــر

أقول للحيان وقد صغرت لهـم وطابي ويومي ضيق الحجر معور

يقول إن أخا الحزم قرعه الدهر بنوائبه حتى جرب وتبصر، فهو طيلة حياتـه يـصارع الأيـام وتصارعه ، ويتفنن مدة عيشه فى تحايله مع الأيام فإذا ما أتقن حيلة تقلبت له الأيام وتحولت. وانظر إلى الصورة المؤدية للمعنى الذى سقناه ، يعبر عنها بقوله إذا سد منه منخر....الخ واستخدام الفعل جاش وإسناده إلى منخر بكل ما يؤديه الفعل من معان تقع كلها فى الدوائر الاستعارية التى ترشح الـصورة، وتنبىء عن عظيم تقلب الدهر، ففى الفعل الهيجان والغليان والاضطراب ، وتجييش الجيوش ، وكـل ذلك مناسب لتفنن الدهرفي الحيل لا يأخذ عليه طريق إلا نفذ في آخر. وانظر إلى الصورة فى تعـبيره (صفرت لهم وطابي) ، وما تؤديه من معنى شمول القحط وهلاك المال. وقوله: (ويومي ضـيق الحجـر معور) ، أي اليوم يوم شديد عسير، انكشف خفيه وبان عواره . فالصورة تسجل المخاطرة التى يحياها

(١):الأغاني ٢٠، مصدر سابق ، ج٢٠، ص٣٧٧.

(٢):حماسة أبي تمام، مصدر سابق ، ج ١، ٣٨ص- العقد الفريد ، مصدر سابق ، ج ٣، ص٢٢.

الصعلوك متمردا ؛ بل إن الكثير من تصويراتهم الشعرية تأتى فى هذا الإطار ، يقول أيضاً يصف نفسه وقد هرب من بجيلة [١] :

كأنما حثحثوا خصّاً قوادمـــــه أو أم خِشفٍ بذي شثٍ وطبّاق

حتى نجوت ولما يترعوا سلَبي بواله من قبيص الشد غيـــداق

عاري الظنابيب ممتد نواشره مدلاج أدهم واهي الماء غساق

كالحقف حدّاه النامون قلت له: ذو ثلتين وذو بهم وأربـــــاق

يقول عندما لحقوا بي فكأنهم حركوا بحركتهم إياي ظليماً أو ظبية ، فنجا من بجيلـــة كالمـــذعور المجنون الذي فقد عقله من شدة سرعته وهربه وطلبهم إياه. ثم يصف نفسه فيقول إني عاري الـــساقين وظهرت عروق الذراع فأنا أدلج الليل الممطر والمظلم ، يعني أنه ذو عزم وقوة وجرأة ، ثم شبه عدوه الذي يلحق به- وقد ذكره في بيت سابق- بأن شعره كالرمل الذي تلبد من كثرة ما سار عليه النامون ، ويحقره بأنه صاحب قطع من الغنم. فإذا كانت الصورتان السابقتان قد صورتا المطـــاردة فى حيـــاة الصعلوك ، فإن الصورة التالية تكشف حياة التقشف وأيام الطوى ، وليس بغريب أن يفتخر بها لأنـــه بتمرده ؛ إنما رغب فيها أكثر مما أرغم عليها ، يقول تأبط شرا [٢] :

قليل ادخار الزاد إلا تعلـــــــة فقد نشز الشرسوف والتصق المعا

يبيت بمغنى الوحش حتى ألفنه ويصبح لا يحمى لها الدهر مرتـــعا

فهو لا يدخل جوفه من الزاد إلا بمقدارما يتعلل به ، فآثر الطوى حـــتى هـــزل ، فتـــرى رؤوس أضلاعه شاخصة ، وأمعاءه تلتصق بعضها ببعض لخلوها من الطعام. واتصال مكابدته للشدائد ، ضاقت به الديار ولفظته الإنس ، فألف القفار ولزم مرابع الوحش ، حتى أنست به وسكنت إليـــه، وعدتـــه واحداً منها.

ويصور الشنفرى جناياته التي ارتكبها وقد تراءت أمامه ممتزجة بهمومه فى قوله[٣] :

---

(١):المفضليات . مصدر سابق ، ص٢٧-٣١.

(٢):حماسة أبي تمام. مصدر سابق ، ج٢، ص٦٧ الشرسوف: غضروف معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف..

(٣)مختارات شعراء العرب ، ابن الشجرى ، تحقيق د/ نعمان محمد أمين طه . دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ،ط١ ،١٩٧٩م ، ص١١٥ ، ١١٦.

طريدُ جنايات تياسرن لحمه عقيرته لأيها حُمَّ أولُ

تنام إذا ما نام ، يقظى عيونها حثاثاً إلى مكروهه تتغلغل

وإلفُ هموم ما تزال تعوده عيادا كحمى الربع أوهي أثقلُ

إذا وردت أصدرتها ثم إنها تثوب فتأتي من تُحَيتُ ومن علُ

فهو جزور ينتظر المتطلعون إلى لحمه أول عافر ، حتى يأخذ كل منه بنصيب ، ولذا فهو ينام نوما غير قرير يفتح عينا ويغمض أخرى ، وهى حالة تعودها كما تعودت الجسم المريض آلام الحمى ومعاوداتها له ، وهو لايدرى أى شيء يتقى ، وهكذا فأغلب الصور عندهم تستمد من البيئة الصحراوية ، وحياة المطاردة مفرداتها الجزئية ، وتكويناتها الأولية ،فالصورة تنطق بمنطوق الحياة التمردية التىحيوها هؤلاء وتكشف عن عمق الصدق فى امتزاج حياتهم بفنهم. ومن الصور الجميلة هذه الأبيات للشنفرى من تائيته[١]:

فَدَقَّت وَجَلَّت وَاسبَكَرَّت وَأُكمِلَت فَلَو جُنَّ إنسانٌ مِنَ الحُسنِ جُنَّتِ

فبتنا كأن البيت حُجِّر فوقنا بريحانة ريحت عشاء وطُلت

بريحانة من بطن حلية نوَّرت ها أرج ما حولها غير مسنت

فصاحبته دقّت خاصرتها، وجلت عجيزتها، وامتدّ قوامها ، واسودّ شعرها، فلو كان إنسان يُجَنُّ من فرْط الحُسن لجُنّ بهذه ، وهى طيبة الرائحة تملأ البيت عطراً وكأن البيت أغلق على ريحانة مطلولة سرت إليها نسمات باردة في وقت العشاء فجاءت بأريجها المعطر وهذه الريحانة نبتت في ربوة ، ولهذا هي قوية الرائحة وهي ناضجة خرج نورها وانتشر عطرها في كل جانب . وهي فوق كل ذلك قابعة في بقعة خصبة كل ما حولها خصب قال الأصمعى(وهذه الأبيات أحسن ماقيل فى خفر النساء وعفتهن [٢]. ومثل تلك الصورة السابقة نادرة فى شعرهم .. فالصورة التي يرسمها الصعلوك هي صورة الرجل المتبدي ، الذى ألف الوحش ، واستأنس بالضوارى ، ولذا كثرت تشبيهاتهم المقتبسة من عالم الحيوان والطبيعة . يقول أبو الطمحان القينى[٣]:

---

(١):الأغاني ، مصدر سابق ، ج١٠، ص١٩٢.

(٢):الفضليات ، المفضل الضبي ، تحقيق ، أحمد محمد شاكر ، عبد الاسلام هارون ، دار المعارف بمصر .ط٧ ١٩٨٣م ، ص١٠٨ ، ١٠٩.

(٣) الأغانى ، مصدر سابق ، ج١٣ ص٤١٦ ،.

إذا شاء راعيها استقى من وقيعة كعين الغراب صفوها لم يكدر

فالوقيعة: المكان الصلب الذي يُمسك الماء ، والماء الصافى يشبه بعين الغراب لحدَّةِ بصره، وصفاء مُقْلته . ويقول صخر الغي[١]:

فَأَقبَلَ مِنهُ طِوالُ الذُرا كَأَنَّ عَلَيهِنَّ بَيعاً جَـزيفا

وأقبل مراً إلى مجدل سياق المقيد يمشي رسيفا

يَصِفُ سَحابة أمطرت فإذا مطرها وفير ولشدة وفرته فكأنه صبرة طعامٍ بِيعَت جِزافاً بغير كَيْـل ، ويصف تربثه فى مكان المطول بقتيل جدل ، أو أسير يرسف فى قيده . ويقول الأعلم [٢]:

سود سحاليل كأن جلودهن ثياب راهب

يصف ضباعا بأن جلودها لينة سود تشبه ثياب الرهبان .

ويقول عروة مشبهاً صوت الرعد بزئير الأسد [٣] :

كأن خوات الرعد رزء زئيره من اللاء يسكنَّ الغريف بعثرا

وهكذا تاثرت فنياتهم الشعرية بحياوتهم ، فجاءت انعكاسا لها.

هناك خاصية أسلوبية طغت على أسلوب المتمردين رأيناها بوضوح عند عنترة وطرفة اللذين مثلا منحى مختلفا من التمرد على القبيلة كما سبق أن أشرنا ، هذا الخاصية هى التعبير ب« أنـــا » وفيـــه يصبح «ضمير الفرد « أنا » أداة للتعبير بدلاً من ضمير الجماعة « نحن » هذه الخاصية تميزت فى شعر الصعاليك بميزة أخرى وهى أنها لاتهمل الآخر، وذلك لأن النزوع الفردى عند الصعاليك يختلف عنـــه عند عنترة وطرفة فالأخيرين مايعنيهما هو إثبات حقهما فى النسب أو السيادة ، أما الصعاليك فالنزوع الفرد ى نابع من حرصه على إزالة قوانين الطبقية الحاكمة للقبيلة ، من أجل عدالة اجتماعية ؛ يحاولون

---

(١):أشعار الهذليين ، مصدر سابق ، ج٢ص٧٠ .

(٢) هو حبيب بن عبد الله الهذلي الخثعمي. وهو أخو صخر الغي من قبيلة هذيل، له شعر مجموع في ديوان الهذليين. ، أشعار الهذليين ، مصدر سابق ، ج٢ص٨٠. سحاليل لينة واحدها سحليل

(٣) ديوان عروة ، مصدر سابق ، ص ٥٦. ، وعثر :أرض مأسدة ، والغريف : الشجر الملتف

تحقيقها على طريقتهم ، ومن هنا فقد أقامت موازنة بين الأنا والأنا الآخر من منظور آخر، فالصعلوك لاتتملكه الأثرة وحدها ، وإنما يتكئ على مقومأخرهوالإيثار، ومن هنا نجد كثيرا من القصائد التى تبرز فيها الأنا المتمثل في الصعلوك ، يقيم توازنا بينها وبين إيثاره للآخر، يقول عروة[١]:

إني امرؤ عافي إنائي شركةٌ وأنتَ امرؤ عافي إنائكَ واحدُ

أهَزأُ مني أن سَمِنتَ وأن ترى بوجهي شحوبَ الحقِّ والحقُ جاهدُ

أقسّمُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ وأحسو قراحَ الماءِ والماءُ باردُ

فالأبيات تنبئ عن « التعارض الجدي بين قيم الصعلوك وقيم الآخرين، بين الإيثار والأثرة ، بين الانظلام والظلم ، وتبرز هذا التعارض بواسطة الصورة الكنائية لوعاء الزاد الذي لا يقربه سوى صاحبه، والوعاء المقابل الذي يبيحه صاحبه للناس جميعاً فلا يبقى له شيء . صاحب الوعاء الأول يزداد سمنة وترهلاً، مقابل صاحب الوعاء الثاني الذي يزداد هزالاً ونحولاً لأنه أثر الحق، والحق مجهد لصاحبه، وآثر أن يعطي من نفسه لغيره، كأنه يقسم جسمه بين جسوم كثيرة ولا يتمتع بشيء سوى قراح الماء البارد » [٢].

على أن ذلك لم يشغله كلية عن الاعتداد بالذات والتفاخر بالخصائص الفردية

إذا قيلَ يا ابنَ الوَردِ أقدِم إلى الوَغى أجَبتُ فَلاقاني كَميٌّ مُقارِعُ

بِكَفّي مِنَ المَأثورِ كَالمِلحِ لَونُهُ حَديثٌ بِإخلاصِ الذُكورَةِ قاطِعُ

فَأَترُكُهُ بِالقاعِ رَهناً بِبَلدَةٍ تَعاوَرُهُ فيها الضباعُ الخَوامِعُ

مُحالِفَ قاعٍ كانَ عَنهُ بِمَعزِلٍ وَلَكِنَّ حَينَ المَرءُ لا بُدَّ واقِعُ

فَلا أَنا مِمّا جَرَّتِ الحَربُ مُشتَكٍ وَلا أَنا مِمّا أَحدَثَ الدَهرُ جازِعُ

فالاعتداد بالذات فىالأبيات السابقة ، والتفاخر بالخصائص الفردية واضح جلى ، لم يتكىء على لفظة الأنا وحدها ، وإنما بالاسم الظاهر وبضمير المتكلم ونحوه ، فلانستطيع بحال أن ننكر على الصعاليك اعتدادهم بذواتهم ؛ وقد قاسوا ماقاسوا من أجلها ، ولكن أردنا فقط أ، نؤكد أنهم فى

(١)ديوان عروة بن الورد، ، مصدر سابق ، ص ٢٩ .

(٢) جابر عصفور، حكمة التمرد ، مجلة العربي ، مرجع سابق ، ع :٤٤٤ ص ٧٧ .

اعتدادهم بذواتهم كثيرا ماالتفتوا إلى الأنا الآخر ، بل ونرجح أن المبالغات المفرطة التي جاء بها شـــعر الصعاليك من أخبار تصور سرعة العدو لديهم ، والتى ارتبطت بعالم الخيال المجنّح ، كانت ظاهرة فنية أكثر منها واقعية ، إنما تأتى فى إطار تأكيد الاعتداد بالذات كذلك ومن هذه المبالغات قول حاجز بـــن عوف الأزدي يصف سرعة عدوه [١] :

فما الظبي أخطت خلفه الصقر رجلها وقد كان يلقى الموت في حلقه الصقر

ويقول فى مناسبة أخرى طارده الأعداء يتفاخر فيها بسرعته ، وقد فر من خثعم وتبعـــه المرقـــع الخثعمي ثم الأكلبي. ففاقما حاجز، يقول [٢]:

وكأنما تبع الفوارس أرنبـــا أو ظبي رابية خفافاً أشعـــــبا

وكأنما طردوا بذي غمراتـــه صدعا من الأروى أحص مكلبا

أعجزت منهم والأكف تنالني ومضت حياضهم وآبوا خيـــبا

أدعو شنوءة غثها وسمينـــها ودعا المرقع يوم ذلك أكلـــــبا

فالشاعر كمارأينا يبالغ فى سرعته في العدو ، ويشاركه تأبط شرا ، فيعلن أنه يسبق الجياد الـــتى تسابق الريح[٣] :

يَفُوتُ الجِيَادَ بتَقْرِيبِـــــهِ وَيَكْسُو هواديَها القَسْطَـــــلاَ

وأَدْهَمَ قد جُبْتُ جِلْبَابَـــــهُ كما اجْتابَتِ الكاعبُ الخَيْعَلا

إِلَى أَنْ حَدَا الصُّبْحُ أَثْنَاءَهُ وَمَزَّقَ جِلْبَابَهُ الأَلْيَـــــــلاَ

وهذه المبالغات ، وإبراز البطولة والشجاعة إنما تقوى الاعتداد بالذات ، لكنّ مع هذا وجدنا أنّ أشعارهم مبطّنة بالحزن ، ولعل من يغورفى أشعارهم ويستبطنها ، يكشف أنّ التحدي الذى يعلنونه ليس إلا ردة فعل لأخاديد من الحزن نقشها المجتمع فىنفوسهم ، وأنّ مشاعر مأساويّة تبطن خلفية الـــنصّ الشعرى عندهم . وإلا بما نفسر امتلاء القاموقس الشعرى لديهم بمفردات من مثل (الطرد والـــصدع،

(١)الأغانى ، مصدر سابق ، ج١٣ ص٢٤٠

(٢) الأغانى ، مصدر سابق ، ج١٣ ص٢٤١

(٣) الشعر والشعراء ، مصدر سابق ، ج١ ص٣١٣

والجوع والفقر والظلم والأسى والرحيل والموت والضياع والجزع والخوف والأذى والجناية .....الخ) مما انطوى عليه شعر الصعاليك ع ألا يكشف ذلك عن مدى الأسى والمرارة التى يحيونها والتىمثلت انعكاسا لاغترابهم وساهمت فى تأكيد تمردهم ، وإذا تجاوزنا المفردات إلى الأساليب فخذ منها (فَلَلمَوتُ خَيرٌ لِلفَتى مِن حَياتِهِ ؛ وَسائِلَةٍ أَينَ الرَحيلُ وَسائِلٍ ، وَمَن يَسأَلُ الصُعلوكَ ، وفي الأرضِ منأىً للكريم عن الأذى ، و فيها لمن خاف ا لقِلَى متعزَّلُ ، لديهم ولا الجاني بما حرَّ يُخذلُ ....) هذه بعض مقاطع من أبيات كانت شواهد هذه الدراسة ومن ينعم النظرفى مزيد من هذه الشواهد لايفوته الوقوف على ماقلنا ، من أنهم يستشعرون ألما لا يقاوَم ، ويكتمون إحساسا بالحزن يفضحه استكناه النصّ .وأخـــيراً يمكن أن نلاحظ أن قصيدة الصعاليك كانت تصدر فىعفوية دون اهتمام أو تزيين أو تأنق ، تمشيا مع طريقة حياتهم على عكس الشعراء الجاهليين الذين كانوا يقضون سنة كاملة في نظم القصائد التي سميت بالحوليات. ، فجاء شعر الصعاليك غريباً خشناً متلاحقاً يعدل في سرعته سرعة حياتهم ، ويـــشبه في صلابته صلابة أيامهم ، ويتواكب مع سرعة عدوهم واندفاعهم ، وهى خاصية انفرد ت بها قـــصيدة الصعاليك ، ومع هذا لم يخل شعرهم من الصبغة الشعرية الخاصة التى تـــدل علـــى القـــدرة الفنيـــة والإحساس الجمالي المرهف.

المحور الثانى : التمرد بين الرؤية والتجربة

أولاً: صراع الوجود

إن الواقع الذي يعيشه الصعلوك يؤجج فى نفسه صراعا ضد المجتمع من جهة ، ويجرح كبرياءه ، ويحطم ذاته من جهة ثانية ، فهو غريب بين من هم له أهل ، مطارد ممن هم عصبته ، يعيش فى صـــراع من أجل الوجود وإثبات الذات ، بين واقع لا يفلح فيه الرفض دون أن يمتزج بـــالهروب ، وهـــروب ممتزج بالرفض نهايته الموت المحتوم ، فالأمريحتاج إلى المخاطرة يقول النمر بن تولب: [١]

خَاطِرْ بنفسكَ كي تصيبَ غنيمةً إن القُعُودَ مَعَ العِيالِ قَبيحُ

المالُ فيه مهابَةٌ وتَجـــــــــلّةٌ والفقرُ فيهِ مَذَلّةٌ ونُضُوحُ

(١) شعرالنمر بن تولب ، مصدر سابق ، ص٤٩.

إذن المال فيه المهابة والتقدير ، وفيه حفظ ماء الوجه من المذلة والصغار، ولذا فهو يسعى للمـــال لتغيير واقعه ، ويفضل الموت بديلاً عن العيش فى هوان. وينطلق من قناعة نهائية ، هى أنه ليس أمامـــه سوى خيارين إما الموت وإما الغنى ، يقول الشنفرى :[١]

فذلك إن يلق المنية يلقها حميداً وإن يستغن يوماً فأجدر

وهكذا يقدم لنفسه مبرراً ، أنه لا سبيل لتحقيق ذاته إلا بذلك ، ويتحول الصراع إلى صراع وجود ، فإما أن يحيا حياة حرة كريمة ، وإما أن يموت دون ذلك ، يقول عروة بن الورد [٢] :

فللموت خير للفتى من حياتـــــه فقيراً ومن مولى تذّب عقاربه

وطالما أن الإنسان لا يملك لعيشه الكفاف فليواجه المخاطر، ويسعى في مناكب الأرض للحصول على رزقه بكافة السبل ليبقى كريماً عزيزاً لا يتذلل لأحد يقول الشنفرى[٣].

وفي الأرض منأى للكريم عن لأذى وفيها لمن خاف القلى متعزل

ويجد تبريراً آخر ؛ يتعلق بواجبه الاجتماعي تجاه الأسرة ، ومسئوليته نحو زوجه وعياله يقول عروة [٤] :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح

ويقول عروة(٥) :

ذريني اطوف في البلاد لعلني أخليك أوأغنيك عن سوء محضري

فليرفض الواقع المحبط ، ولينبذ حياة العوز والحرمان ، وليسع إلى تحقيق المال ، طالما هو الرافـــع

---

(١) الأصمعيات ، مصدر سابق ، ٤٣.

(٢) ديوان عروة، المصدر السابق ، ص /١٥

(٣) مختارات شعراء العرب ، ابن الشجرى ، مصدر سابق .ص٩٧:.

(٤) ديوان الحماسة ، مصدر سابق ، ج ١ص.١٧٨

(٥) الأصمعيات مصدر سابق:.-ص ٤٤.

للأقدار،يقول الشنفرى (١) :

دعِيني للغنَى أسعَى فإنِّي رأيتُ الناسَ شرُّهم الفقيـــرُ

وأبعدُهم، وأهوئُهم عليهم وإن أمسى لـــه كرمٌ وخيرُ

ويقصِيهِ الدَّنِيُّ وتزْدَرِيـــهِ حليلتُهُ ، وينهرُهُ الصغيـــرُ

ويمكن أن نلاحظ أن الشاعر الصعلوك ، ظل أبيا ، مخلصاً لمبادئه ، حريصا على كرامته ، فلم يخضع للأغنياء ولم يتطفل على موائدهم ، بل بقى نائياً عنهم ، محافظاً علىماء وجهه ، صابرا على شظف العيش وقسوة الحياة ، يقول (٢):

أديم مطال الجوع حتى أميـــــــته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

وأستف ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤٌ متطـــــول

ولولا اجتناب الذام لم يبق مـــشرب يعاش به إلا لدي ومأكـــــــــل

ولكن نفساً حرةً لا تقيـــــــم بي على الضيم إلا ريثما أتحـــــول

وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خيوطةَ ماريّ تُغار وتفتل

ولكن ذلك لا يعني لديه الخنوع والدنو للأغنياء ، كاستجابة للحالة التي يمر بها ، بل حافظ على شرفه من الدنس ؛ ولم يقدم تنازلات لتعويض الفقر بالغنى ، لكنه جعل ردة فعله هي السعي باستخدام القوة التي يتعادل فيها الموت والغنى .

ثانياً: الموقف من المجتمع :

برزت ظاهرة العدل الاجتماعي في شعرهم ؛ معبرة عن فلسفتهم في الحياة ، التى تولدت لديهم من خلال تجاربهم اليومية .. و التي يتوقون إليها ، ويسعون جاهدين للوصول إلى إقامة رابطة اجتماعية يتجسد فيه معنى الإنسانية ، تمد أصحاب الحاجة بما يحتاجون إليه ، تحقيقا للمساواة ، وطلبـــا لحيـــاة

(١) ديوان الشنفرى، مصدر سابق:.-ص ٧٦-٧٧

(٢)مختارات شعراء العرب ، ابن الشجرى ، مصدر سابق ،ص ١٠٥

تسودها العزة والكرامة يقول عروة[١]

فلا أترك الأخوان ماعشت للردى كما أنه لا يترك الماء شاربه

بل يتحملون الأذى الجسدي ، والجوع ، ولا يستأثرون بما يأخذون ، بل كانوا يؤثرون أصحاب الحاجات المعوذين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، يقول عروة[٢] :

إني امرؤ عافى إنائي شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحـــد

أقزأ مني أن سمنت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد

أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بـــارد

فإن قصيدة الصعاليك وإن اتكأت على النزوع الفردى ؛ إلا أنه من منظور آخـــر، إذ لم يقـــدم فروسيته واعتداده بذاته فى وجه القبيلة من أجل ذاته فحسب ؛ بل من أجل صعاليك آخرين فى موازنة ومواءمة بين الإيثار والأثرة رغم أنهما متعارضان.

وهذه كلها لوحات فنية تعكس الجوانب المشرقة في حياتهم عبر طرحهم التجربة الإنسانية التي يحيونها ، فجاء شعرهم من واقع تجربة حقيقية ، يتوجها الصدق ، وينأى بها عن التكلف ، واصـــطبغت أدبيات الصعاليك برؤيتهم عن الحياة فجاءت معظم قصائدهم تحكي عن شجاعتهم وقدرتهم .

وهكذا فإن قصيدة الصعاليك قدمت رؤية فلسفية متينة تحافظ على الذات تجاه المجتمع القبلـــى ، وتحمى المقهورين فى مظلة ذواتها.

المحور الثالث : الاغتراب

لم يكن الشعور بالاغتراب عن مجتمعهم وليد التشرد و النأي عن الأهل بل كان وليد منغـــصات المجتمع الذى عانوا فى ظلاله من الفاقة والنبذ ، وكان الهجروالقطيعة نتيجة طبعية لشعورهم بالاغتراب النفسى ؛ الذى ضاعفه فيما بعد الاغتراب الجسدى .

---

(١) ديوان عروة بن الورد ، مصدر سابق، ص ٢٩. .

(٢) ديوان عروة بن الورد ، مصدر سابق، ص /١٣٨-١٤١. . عافي إنائي شركة : أي يأتيني من يشاركني فيه . قوله عافي إنائي شركة أي يأكل معي عدة يشاركونني فيما في الإناء، وأنت رجل تأكل وحدك، فعافى إنائك واحد. وأصل العافى من عفاه واعتفاه، إذا طلب معروفه، فأعفاه أي أعطاه ، يقال: طلب منه فأطلبه، ومنه عافية الطير والسباع

إن الشنفرى لا يرى أنه يهجر قومه بفراقهم ، بل هم الذين سيهجرون المكان بفراقه ، كأنه بذلك يتخلى عنهم ويطردهم من ساحة حبه ، وفناء قلبه ، ولسان حاله قول المتنبي :

إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلونَ همُ

يقول[١]:

أقيمـوا بنـي أمـي صدور مطيكم فإنـي إلـى قـوم سـواكـم لأميلُ

فقـد حمـت الحـاجات والليل مقمر وشـدت لطيّـات مطايـا وأرحـلُ

في الأرض منـأى للكريم من الأذى وفيهـا لمـن خـاف القلى متعـزّلُ

لعمرك ما بالأرض ضيق على أمرئ سـرى راغبـا أو راهبا وهو يعقـلُ

كأنهم هم المتأهبون للرحيل بعد أن قرر فراقهم إلى غير رجعة ، وأنه سيستبدلهم بأهلٍ آخـرين ، وهؤلاء الأهل الجدد هم وحوش الصحراء ، وهنا تبرز شخصية الصعلوك بقدرته على مواجهة تقلبات الأيام بهجر المجتمع ، وإعلانه التمرد على التقاليد ، وتحديات الطبيعة بصداقة الوحوش تعبيراً عن يأسه في مساكنة البشر، إنها ببساطة حياة بدائية مشبعة بالجو الأسطوري ، وهذا بالطبع يوضح الهوة الـتي تفصله عنهم ، والاغتراب الذي يعانيه تجاههم ، والذي جعله يفضل صـحبة الحيوانـات المتوحـشة وضواري الصحراء التي يرى فيها الشنفرى أهلا له بعد أن قرر أن يهجر أهله[٢]:

ولي دونكم أهلون سيد عملسُ وأرقط زهلول وعرفاء جيألُ

هم الأهل لامستودع السر ذائع لديهم ولا الجاني بماجر يخذلُ

فيعلن أنه يفضّل وحوش الصحراء على قومه ، لأنّ تلك الوحوش تحافظ على سـرّ الإنـسان وتحترمه ، عالم صادق ، صادَقَ فيه ما لا يخطر على بال كائن من الوحوش والأفاعي ، إنّه اسـتطاع مصادقةَ أشر أنواع الحيوانات الصحراويّة ، ومقاومة الجوع والتشرّد ، وعجز عن مصادقة الإنسان ، والإقامة بين ظهراني البشر فيما يزعمون أنه الحضر ، مفضلا حياة التبـدى عليهـا أى إحـساس بالاغتراب يكشف عنه ذلك ؟ .

---

(١)مختارات شعراء العرب ، ابن الشجرى ، مصدر سابق ،ص ٩٦ ، ٩٧ . .

(٢) المصدر السابق، ص ٩٨.

لم يكتف الصعاليك فى إعلان اغترابهم بمصادقة الوحوش والضوارى ؛ بل تمادوا فى اغترابهم ليدخلوا به إلى عالم الخرافة ورموزها ، حيث تتداخل المرائى بالأشباح ، وتختلط أصوات الذؤبان والغيلان ، محطما المسافات الفاصلة بين عوالم الإنسان والحيوان إلى عالم الغول والعنقاء ، فيختلط الممنوع والمباح .

انظر هذه الأبيات لتأبط شرا، الذى كثرت أشعاره في هذا المعنى ، فإنه يصف لقاءه إياها في شعره كثيرا فمن ذلك قوله[١]:

فأصبحت الغول لي جارة فيا جارتا لك ما أهولا

فطالبتها بضعها فالتوت علي وحاولت أن أفعلا

فمن كان يسأل عن جارتي فإن لها باللوى منزلا

فها هو ذا قد ساكنها بل وراودها ، ودخلا معا فىمشاغبات ، وأحاديث جانبية ، ويصف فيما يلى كيف التقاها عند رحى بطحان ، وقد جمعا بينهما وعثاء السفر ، ودخل معاها فى معركة ، خرت صريعة على إثرها ، ويمضى فى شكلها، وماكان من أمره وأمرها، وكيف عشقته فتزوجها وأولدها[٢]

ألا من مبلغ فتيان فهم بما لاقيت عند رحى بطان

وأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فقلت لها: كلانا نضو أين أخو سفر فخلي لي مكاني

فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفي بمصقول يماني

فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً لليدين وللجران

فقالت عد، فقلت لها رويداً مكانك إنني ثبت الجنان

فلم أنسك متكئاً عليها لأنظر مصبحاً ماذا أتاني

إذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان

وساقا مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أر شنان

(١) . الأغانى ج١٠، مصدر سابق ، ص١٣٩ .

(٢). الأغانى ج١٠ المصدر السابق، ص١٤٠

وهكذا حول الصعاليك القصيدة إلى مغنى يتشخص فيه الحيوان غير العاقل بل والكائنات الخرافية ترتدى ثوب الإنسان القرين ، ليختفى الصراع مابين الكائنات ، فى الوقت الذى يعلو فيه صخب الصراع الإنسانى ، وكأننا نرجع إلى عالم ما قبل القوانين الكونية هذه الصور هى قمة الاغتراب والتوارى من عالم الصراع الطبقى الذى صار غابة البقاء فيها للأقوى .

إن الطابع الإنساني تلامسه فى اشعارهم وتستطيع ان تتبين فلسفتهم تجاه القضايا الإنسانية من أطعام الفقراء والمساكين ، وأفكارهم في الحياة والحرية ، وسعيهم لتحقيق الكرامة الفردية بأخلاق الشعراء الفرسان، فجاء شعرهم صادقاً وعميقاً .

المحور الثالث : بناء القصيدة :

وبنظرة عامة لتصوير الصعاليك للرفض ، والتمرد ، من منظور فنى ، لم يقف التمرد بالصعاليك فى شعرهم عند حدود ما ذكرنا ؛ بل تجاوزوه إلى شكل القصيدة وبناءها الشعري ، فرغم أنهم أفرغوا محصولهم الفكرى داخل الإناء الفنى المتعارف للقصيدة الجاهلية ، إلا أننا لا نستطيع أن ننكر بعض اللمسات الخاصة التى كانت لهم ، من الابتعاد عن المطولات الشعرية إلا فى عدد محدود جدا من القصائد الطويلة ، التى تميزت بالوحدة الموضوعية فماوصل إلينا منها تمحضت فيه القصيدة لغرض فني واحد ، مثل ميمية (أبي خراش) ، ورائية (عروة بن الورد) ، وبائية (الأعلم) وعينية (قيس ابن الحدادية) ، وغيرها وتحولت القصيدة عندهم إلى مقطوعات شعرية قصيرة تحمل نزوعهم الخاص بهم ، وهذه لم تكن تتحمل أكثر من موضوع واحد ، كذلك خرجوا على تقليدية القصيدة الجاهلية فى البكاء على الأطلال ، فتخلصت قصائدهم المقدمات الطللية ، ؛ مما مثل خروجا على الأصول الفنية المتعارف عليها فى القصيدة الجاهلية ، وخلا مطلعها من التصريع (والتصريع هو اتفاق حرف الروي في آخر تفعيلة من الصدر والعجز).. فأغلب شعر الصعاليك كما ذكرنا هومقطوعات شعرية والتصريع يكون غالباً في القصائد الطوال ، والقصائد وصلتنا مصرعة المطالع هى قصيدة الشنفري ومطلعها[1] :

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت

(١) المفضليات، مصدر سابق ، ١٠٨- الأغاني، مصدر سابق ، ١٨٦/٢١

وقصيدة تأبط شراً ومطلعها [١]:

يا عيد مالك من شوق وإيراق ومر طيف على الأهوال طراق

وقصيدة عروة ومطلعها [٢]:

أقلي علي اللوم يا بنة منذر ونامي فإن لم تشتهي النوم فاسهري

ومعنى هذا أنّ ظاهرة التمرد قد أخرجت القصيدة الجاهلية من طوق الفنـــاء الفـــني لشخصية الشاعر القبلي في شخصية قبيلته التي نلاحظها بوضوح عند أصحاب الانتمـــاء القبلي أو العرقي في الشعر الجاهلي ، وقد تخلص الشاعر من الشخصية القبلية ، و خالف الأعراف الشعرية هذه المرة..تماما كماخالف الأعراف القبليـــة والاجتماعيـــة الـــسائدة ، وحلت محلها ظاهرة التمرد الفني ، وقدمت رؤيتها فى إطار النزعة الإنسانية التي اقترنـــت بالواقعية ، وأكسبتها الصبغة القصصية تواصلا وحيوية.

.وهكذا نستطيع أن نرصد أسلوبا شعريا متفردا ومتمردا على الأشكال الشعرية .

(١) المفضليات، مصدر سابق ، ٢٧- الأغاني، مصدر سابق ، ١٣٢/٢١

(٢) الأصمعيات، مصدر سابق ، ٤٣.

خاتمة

وبعد ، فهذا ماوفقنى الله إليه فى دراستى عن القصيدة الجاهلية بين الانتماء والتمرد

وقد حاولت ماوسعنى الجهد أن أجمع بين المنهجين الوصفى والتحليلى ؛ لتقديم رؤية متكاملة عن هذه الأطروحة ، مستعينا بالمصادر الأصيلة ، والمراجع المتنوعة ؛ لأحقق لهـــذا العمل القدر الكافى من التأصيل ، وترجمت للشعراء والأعلام ، ووضحت الكلمات الـــتى غمضت دلالتها ، وشرحت العبارات التى أعوزها الشرح لبيانها ، لحقيق الفائدة المرجوة من هذا العمل ، كما أننى لم أسبق إلى نتيجة فأقرر شيئا أو أنفيه ، بل استنطقت النص وجعلته محور الاستلال

وها هى ذى بعض النتائج التى أتصور أننى قد خرجت بها :

أولا : أصلت للانتماء والتمرد ، من خلال الدراسات النفسية والاجتماعية ووضحت معالمهما لأنهما المداران التى تسير دراستى فى فلكهما ، فبينت أنهما ظاهرتان أجتماعيتـــان يتحقق لهما مايتحقق لسائرالظواهر الاجتماعية ، من عمومية وتاريخية وإلزام .

ثانيا : ألقت الدراسة أضواء كاشفة على جوانب مهمة فى حياة العرب الاجتماعيـــة والسياسية قبل الإسلام ، كما سجلتها القصيدة العربية ، ونطق بها النص الشعرى ، فرأت أن العرب فى هذه الحقبة ، بقدر إخلاصهم لمجتمعهم القبلى ، بقدرماظهر مـــن إرهاصـــات تمردية ، تكشف عن تذمر به ، ومحاولات البحث عن نظام أفضل .

ثالثا : حددت الدراسة أشكال الانتماء ، من واقع النص الشعرى ، محللة ومقدمـــة للتعليل والرؤية المناسبة ، فبينت أن العرب قد عرفوا ألوانا من الانتماء ، فلم يقفوا عنـــد حود الانتماء العرقى والقبلى ؛ بل أضافوا إليه الانتماء الجغرافى والسياسى .

رابعا : أثبتت الدراسة أن الظاهرة الشعرية ليست ببعيدة عن ظاهرة الانتماء فرأينـــا كيف تآزر الفن الشعرى فى قالبه ولغته وبنائه الفنى ،ليتعانق مع الفكر فى تقديمه قـــصيدة منتية لحمة وسدى.

خامسا : رصدت ظاهرة التمرد كما نطقت بها القصيدة العربية ، وعـــبر نـــصوصها فألقت الضوء على مايجرى فى جسد المجتمع الجاهلى من حركات مضادة للفكر القبلـــى ،

والأسباب الدافعة وراء البحث عن فكر بديل ، فقالت القصيدة العربية إن النظام القبلـــى بتكريسه للنظام الطبقى ، وغياب العدالة وتكافؤ الفرص من وجوه كثيرة ، علا الـــصوت الشعرى بندائه بالخلاص والبحث عن البديل .

سادسا : استجاب الفن لرؤى التمرد ،فتجاوب الشكل مع المضمون حين رأينا التمرد يخترق القصيدة الجاهلية فى نمطها التقليدى وفى بنائها الشعرى لغة وأسلوبا وتجربة ووحدة ....الخ مما يؤكد وعى المبدع بما يقدم ، وأن الرؤية التمردية المطروحة لهدم الثوابت علـــى مستوى النظام القبلى ، امتدت إلى الثوابت االفنية التى عرفتها القصيدة الجاهلية.

وختاما أرجو أن يكون عملى هذا خالصا لوجه الله عز وجل ، وأن أكون قد وفقت فىتقديم هذه الأطروحة فى سمت وفكر يفيد منه القارىء ، وأن تكون قد قدمت إضافة فى مجال الأدب والنقد ، وكما يقولون مالا يدرك كله لايترك كله ، وخير القلادة ماأحـــاط بالجيد

وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

إعداد د/رمضان حسانين جاد المولى

مدرس الأدب والنقد بكلية

اللغة العربية بأسيوط

المصادر والمراجع

أولا : القرآن الكريم

ثانيا : المعاجم والكشافات

١) أساس البلاغة ، الزمخشري، دار النفائس ، ١٩٩٢م ، بيروت

٢) تاج اللغة وصحاح العربية ، الجوهري، ١٣٧٧هـ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي مصر.

٣) دائرة المعارف الإسلامية ، جولد تسيهر ، دار الشعب – القاهرة ١٩٦٩ م.

٤) العين للفراهيدي ١٦٢/١ تحقيق د . مهدي المخزومي و د . ابراهيم السامرائي ، ط لبنان ١٩٨٨

٥) القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ١٩٥٢م ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر

٦) لسان العرب ، جمال الدين بن منظور ، دار صادر، بيروت

٧) مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري ، تحقيق /محمد محي الدين عبد الحميد – دار المعرفة – بيروت لبنان١٩٨٨ ، ط٢

٨) *معجم الادباء : ياقوت الحموي، دار الفكر للطباعة والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠*

٩) معجم البلدان ، ياقوت الحموي ،طبع دار إحياء التراث العربي بيروت.بيروت١٩٧٧م بيروت١٩٧٧م

١٠) معجم الشعراء : ، المرزباني ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، منشورات مكتبة النوري، دمشق.

ثالثا : المصادر التراثية

١) أدب الكاتب ، ابن قتيبة الدينوري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية ، مصر ١٩٦٣ ط٤

٢) أسماء خيل العرب وفرسانها ،لابن الأعرابى ، تحقيق محمد على السلطانى ، مؤ سسة الرسالة ـــ دمشق

٣) أشعار العامريين الجاهليين ، جمع وتوثيق عبد الكريم اليعقـــوبي ، دار الحـــوار، ١٩٨٢ اللاذقية

٤) الأصمعيات ، الأصمعي ، تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، الطبعـــة الثانية، دار المعارف، مصر ، ١٩٦٤م،.

٥) الأغاني الأصفهاني - نسخة مصورة عن طبعـــة دار الكتـــب- وزارة الثقافـــة والإرشاد القومي- المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة

٦) الأمالي: لأبىعلى القالي ، مصورة عن طبعة دار الكتب المـــصرية، دار الكتـــاب العربي بيروت –

٧) تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، تحقيق محمد أبو الفـــضل إبـــراهيم، دار المعارف، مصر. ١٩٦١م، .

٨) الحيوان ، أبو عمرو الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار الجيل .

٩) ذيل الأمالي والنوادر، أبو على القالي ، دار الكتاب العربي ،بيروت، د.ت

١٠) رسائل الجاحظ ـــ تحقيق عبد السلام محمد هارون ـــ مكتبة الخانجي ـــ القاهرة..

١١) زهر الأداب ،ثمر الألباب / الحصرى القيروانى ، تحقيق / على محمـــد البجاوى ، عيسى البابى الحلبى ط٢

١٢) (سيرة ابن هشام)، قدم لها وعلق عليها طه عبد الرؤوف ســـعد ، دار الجيل، بيروت١٩٧٥م

١٣) شرح اختيارات المفضل، -المفضّل الضّبّيّ ،،للخطيب التبريزي، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، ، ١٩٨٧م بيروت،

١٤) شرح المعلقات السبع، للزوزني ط٢-١٩٥٠. دار الكتب المصرية مصدر سابق ، ص١٨٣، ١٨٤.

١٥) شرح ديوان الحماسة ، المرزوقي، ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة١٩٥١- ١٩٥٣مج١

١٦) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة - دار المعارف ، تحقيق أحمد محمد شاكر،الطبعة الثانية ١٩٦٦م

١٧) الصناعتين ، أبو هلال العسكرى ،تحقيق البجاوى ، وأبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا - بيروت ١٩٨٦م

١٨) (طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، مصر ١٩٧٤م

١٩) العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته ورتّب فهارسه أحمد أمين وزميلاه، الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي، بيروت١٩٦٥م

٢٠) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، - ابن رشيق القيرواني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة ،دار الجيل ، بيرت ، لبنان. ج١

٢١) عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان الطبعة الأولى ١٩٨٢م ، ص٥

الكامل ، تأليف : أبي العباس محمد بن يزيد ، المبرد ، مؤسسة المعارف ، بيروت

٢٢) كتاب الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان: ٩/١ طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٢٣) :مختارات شعراء العرب ، ابن الشجرى ، تحقيق د/ نعمان محمد أمين طه ، دار التوفيقية للطباعة بالأزهر ،ط١ ،١٩٧٩م ،

٢٤) المزهر فى علوم اللغة جلال الدين عبد الرحمن بن أبو بكـــر الـــسيوطى تحقيق فؤاد على منصور دارالكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٨ط ١

٢٥) المستطرف فى كل فن مستظرف ، : شهاب الدين الأبشيهى : مكتبـــة الحياة

٢٦) معاني القرآن، الفرّاء، تحقيق نجاتي، ومحمد علي نجـار، دار الكتـــب المـــصرية، ١٩٥٥م،ج ١

٢٧) المفضليات ، المفضل الضبى ، تحقيق ، أحمد محمد شاكر ، عبد الاســـلام هارون ، دار المعارف بمصر ،ط٧ ١٩٨٣م

٢٨) نسب قريش المصعب الزبيري، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليـــه ليفي بروفنسال، الطبعة الثالثة، دار المعارف، مصر، ١٩٨٥م .

٢٩) النقائض (نقائض جرير والفرزدق) ، دار الكتاب العربي، (مصورة عن طبعة ليدن)، بيروت.

٣٠) الوحشيات، -أبو تمام الطائي علّق عليه وحققه عبد العزيـــز المـــيمني، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٧م.

رابعا : الدراسات الحديثة

١) الأدب العربي في الجاهلية والإسلام :"رضا كحالة، المطبعة التعاونيـــة بدمـــشق ١٩٧٢... .

٢) الأصول الفنية للشعر الجاهلي ، سعيد اسماعيل شلبي ، مكتبة غريب ـــ بـــدون تاريخ ـــ ص / ٣٩٣.

٣) (أفاق التمرد ـــ قراءة نقدية فى التاريخ الأوربي والعرب) ـــ فاروق القاضى ـــ مركز البحوث العربية والإفريقية ، المؤسسة العربية للنشر ٢٠٠٤م

٤) البطل في الأدب والأساطير، شكري عياد، القاهرة: دار المعرفـــة، ١٩٥٩؛ ط٢ ١٩٧١..

٥) تاريخ الأدب العربي، رجيس بلاشير ترجمة إبراهيم الكيلاني، الـــدار التونـــسية للنشر، تونس المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٦.

٦) الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، الحوفي ، الطبعـــة الخامـــسة ، دار القلـــم، بيروت١٩٧٢م

٧) الشعر الجاهلي: منهج في دراسته وتقويمه – محمد النويهي ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة

٨) الشعراء الصعاليك في العصر الجـــاهلي ، د / يوســـف خليـــف ، دار المعـــارف ، مـــصر، ١٩٥٩م

٩) شعر الرثاء في العصر الجاهلي ، دراسة فنية، مصطفى الشورى ، الدار الجامعيـــة ، بـــيروت ١٩٨٣

١٠) الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، عـــز الـــدين اسماعيل، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٦٧ م

١١) الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، عفيف عبد الرحمن، الطبعـــة الأولى، دار الأندلس، بيروت لبنان ١٩٨٤.م .

١٢) العصبية القبيلة وأثرها في الشعر الأموي د. إحسان عباس، ، المطبعـــة التعاونية اللبنانية، ١٩٦٣م.عروة بن الورد ، حياته وشعره ، إبراهيم شحادة الخواجـــة ، المشأة الشعبية للنشر والتوزيع، طرابلس ١٩٨٠ م

١٣) عشرة شعراء مقلون ، حاتم الضامن ، دار الحكمة للطباعـــة والنـــشر، بغداد، ١٩٩٠ .

١٤) العصر الجاهلي ، شوقي ضيف ، دار المعارف، مصر، ١٩٨٦ م

١٥)

١٦) فجر الإسلام" أحمد أمين ص١٦٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦

١٧) الفروسية في الشعر الجاهلي ، نوري حمادي القيسي دار الكتب ، مكتبة نهضة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٨٤

١٨) الفن والحياة الاجتماعية-، ولالو – شارل، تعريب الدكتور عادل العوّا ، دار الأنوار، بيروت ١٩٦٦م

١٩) في أدب ما قبل الإسلام، محمد عثمان علي ، دار الأوزاعي، بـــيروت، ١٩٨٦م

٢٠) قصة الحضارة، ول وديو رانت – ، ترجمة-د- زكي نجيـــب محمـــود، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية

٢١) قصيدة المدح حتى نهاية العصر الأموي – وهب رومية ، وزارة الثقافة، دمشق. ١٩٨١م.

٢٢) قضية الشعر الجديد ، محمدالنويهي ، معهد الدراسات العربية، المطبعـــة العالمية، القاهرة ١٩٦٤م

٢٣) قواعد المنهج فى علم الاجتماع لإميل دور كايم ترجمة محمـــود قاســـم ،مراجعة ، د/ السيد محمد بدوى مكتبة النهضة المصرية ١٩٦١م

٢٤) الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة ، – د- محمد-شـــحرور ، الطبعـــة الخامسة. دار الأهالي ، دمشق

٢٥) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد على ،دار انعلم للملايين، بيروت . مكتبة النهضة، بغداد ،١٩٧٨م

٢٦) نظرية الثورة العربية، عصمت سيف الدولة، دار المـــسيرة، بـــيروت- ١٩٧٩م

٢٧) النقد الأدبي الحديث ، د/ محمد غنيمى هلال ، دار نهضة مصر للطبـــع والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ

٢٨) الهجاء الجاهلي صوره وأساليبه الفنية، عباس بيومي جلال، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية – جمهورية مصر العربية ،

٢٩) وحدة القصيدة في النقد العربي الحديث، (دراسة في تطور المفهوم واتجاهات النقاد المعاصرين) د. بسام قطوس ، مؤسسة حمادة ، إربد، الأردن ١٩٩٩،

٣٠) الوعي الجماعي عند العرب قبل الاسلام- د / فؤاد المرعي ، دار الأبجدية، دمشق، ١٩٨٩م

خامسا : الدواوين الشعرية

١) ديوان الأفوه الأودي: الطرائف الأدبية، صححه وخرّجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيّله عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢) ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبرهيم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م

٣) ديوان أوس بن حجر (بيروت- دار صادر) تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم- الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م

٤) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدّي، عني بتحقيقه الدكتور عزّة حسن، الطبعة الثانية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٢.

٥) ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره، صنعه يحيى بن مدرك الطائي، دراسة وتحقيق، الدكتور عادل سليمان جمال، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٦) ديوان الحارث بن حلّزة، جمعه وحققه وشرحه الدكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩١م

٧) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري تحقيق دكتور سيد حنفي حسنين، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م .

٨) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكّيت ، تحقيق الدكتور نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة١٩٨٧م.

٩) ديوان الخرنق بنت بدر بن هافان ، برواية أبي عمرو بن العلاء، شرحه وحققه وعلّق عليه يُسري عبد الغني عبد الله. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م

١٠) ديوان الخنساء دار صادر ،بيروت، د . ت

١١) ديوان دريد بن الصمة الجشمي، جمع وتحقيق، محمد خير البقاعي، دارقتيبة،دمشق، ١٩٨١م

١٢) ديوان الراعى النميرى / جمعه وحققه راينهرت فايبرت بيروت : المعهد الالمانى للابحاث الشرقيه ; فيسبادن : فرانتس شتاينر، ١٩٨٠

١٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر، بيروت، د. ت

١٤) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، صنعة نفطويه، تحقيق عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. ، ١٩٦٥.

١٥) ديوان سلامة بن جندل، تحقيق الدكتور فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب، ١٩٦٨م ديوان

١٦) ديوان شعر الحادرة تحقيق ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت ١٩٧٣.

١٧) ديوان شعر المتلمس الضبعي، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٠م

١٨) ديوان الشنفرى الأزدي، الطرائف الأدبية، صححه وخرّجه وعارضه على النسخ المختلفة وذيّله عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية، بيروت

١٩) ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩

٢٠) ديوان الطفيل الغنوي، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت ، ١٩٦٨م

٢١) ديوان العباس بن مرداس السُلمي ، جمعه وحققه الدكتور يحيى الجبوري ، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة. بغداد، ١٩٦٨م .

٢٢) ديوان عبيد بن الأبرص، تحقيق وشرح دكتور حسين نصار، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٧

٢٣) ديوان عدي بن زيد العبادي، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، وزارة الثقافة والإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م

٢٤) ديوان عروة : ديوان عروة بن الورد والسموأل (بيروت- دار صادر ودار بيروت)

٢٥) ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت، حققه وأشرف على طبعه ووضع فهارسه عبد المعين الملوحي، مطابع وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٦م،.

٢٦) ديوان عمرو بن كلثوم ، صنفه د/ على أنور زيد ، دار سعد الدين ، دمشق.

٢٧) ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، الطبعة الثانية، دار صادر، بيروت١٩٦٧م .

٢٨) ديوان كعب بن مالك الأنصاري، دراسة وتحقيق سامي مكي العاني، مكتبة النهضة، ١٩٦٦م، بغداد

٢٩) ديوان المثقب العبدي ، عني بتحقيقه وشرحه والتعليق عليه حسن كامل الصيرفي ، الشركة المصرية للطباعة والنشر. ، ١٩٧١م،.

٣٠) ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق الدكتور شكري فيصل، دار الفكر، بيروت ١٩٦٨م،

٣١) شرح ديوان كعب بن زهير، صنعه أبي سعيد السكري، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة١٩٥٠م

٣٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدّم له الدكتور إحسان عباس، الطبعة الثانية ، مطبعة حكومة الكويت١٩٨٤م .

٣٣) شعر عمرو بن شأس الأسدي، الدكتور يحيى الجبوري، مطبعة الآداب، النجف الأشرف١٩٧٦م.

٣٤) شعر النابغة الجعدى، جمعه وقدّم له عبد العزيز رباح، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق١٩٦٤م

٣٥) شعرالنمر بن تولب، الدكتور نوري حمودي القيسي ، مطبعة المعـــارف، بغداد، ١٩٦٩م.

٣٦) قصائد جاهلية نادرة، د.يحيى الجبوري مؤسسة الرسالة، بيروت١٩٨٢م

سادسا : المقالات

١) (البحث عن جوهرة التمرد) ـــ محمود الوردانى ـــ أخبار الأدب ،الأحد ٧ من نوفمبر ٢٠٠٤ عدد ٥٩١

٢) (حكمة التمرد). جابر عصفور، مجلة العربي ع :٤٤٤